محمّد علي ضنّاوي

الطريق إلى حكم إسلاميّ

الطريق إلى حكم إسلامي

محمد علي الضناوي

الطبعـــة الأولى

١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م

الإهداء

إلى دعاة الحكم الإسلامي في كل مكان

أهدي هذا الطريق

م.ع.ض

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الطريق

ان الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بـه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

وبعـد ...

فإذا نظرنا الى مسلم اليوم، رأينا كيف تتجاذبه التيارات الضخمة وكيف تعكس هذه ... في أعماقه صراعاً « داخلياً » عميقاً .

فهو بفطرته يحن الى إسلامه وماضيه، وهو بواقعه خاضع لمؤثرات فكرية غربية أو شرقية ، ولمحاكاة نموذجية في أكثر المناحي والشؤون ، لعـادات الغرب ومدنيته .

وإذا نظرنا إليه مجدداً رأينـا كيف يعيش في كل جانب من جوانب حياته نكسة خطرة ، لعـل أبرزها وأوضحها انه بَعُدَ عن ربه فتلاشت دولته التي أرادهـا له الله . وطبيعي أن انساناً يعيش انتكاسة في روحه ووجوده مضطرباً « تائهـاً » تتخطفه الفلسفات وتتجاذبه المذاهب ، مقطوع

الصلة بماضيه ومبتور العلاقة بحضارته ، لا يعرف دوره في الحياة ولا يدرك غايته في الوجود ، لا دولة ترعاه ولا نظام يحفظه ، لا يمكن له أن ينتصر في معركة الحياة والوجود ؟!!

ويترتب على ما تقدم أن المسلم اليوم لا يملك إسلامه أو لا يملكه إسلامه وان مجتمع اليوم لا يجوز أن ينعت بالإسلامية ، أو يتحمل أوزاره ومساوئه الإسلام الغريب ...

وفي أعماق هذه المأساة يحاول دعاة الإسلام أن يعيشوا إسلامهم أولاً ، أن يعيشوه في أنفسهم وفي عائلاتهم وفي مراكز أعمالهم. ثم يحاولون ثانياً أن يوجدوا وسطاً « إسلامياً » خاصاً بهم ، يعيشون فيه مناخ الحياة الإسلامية وجوها العابق بالمحبة والمعودة والاخلاق الكريمة. ويحاولون ثالثاً تضخيم هذا الوسط حتى يتمخض عنه تيار يقوى على مجابهة تيار اللاإسلامية وعلى إعادة الإسلامية السليمة الى هذا المجتمع المنكود .

***

والحقيقة أن « الطريق » الى حكم إسلامي ، في هذا الجو المشحون بالتناقضات ، أمر صعب تكتنفه كثير من المخاطر والأهوال .

بيد أنه لا مفر ولا مهرب منه إلا اليه ...

فالحكم الإسلامي فريضة والطريق اليه واجب، والتخلف عنه ردة، وهو مآل الرجاء وغاية الاطمئنان ..

ففي ظلال هذا الحكم يشعر المسلم بوجوده ويدرك أبعاد شرعه ويحيا معاني الحياة الكريمة العزيزة ...

إذن لا بد من وضع الخطى على أول الطريق... ولا بد من المسير الدائب الحثيث ، ولا بد أخيراً من طرق أبواب السلطة ... ولا بد من اعلان لا إله إلا الله ، نداء خفاقاً » للانسانية والحياة ...

وأول الطريق أن يقرر المسلم انهاء أزمته في الوجود وانهاء أزمته في الحضارة وذلك بتعرفه العميق على غاية وجوده وعلى دوره في الحياة وانه خليفة في الارض مستناب بأمر الله ...

وثانيه : أن يتفهم معنى الحضارة ومغزى النظام ويدرك بعمق ان الاسلام هو الحضارة وان الانسان ، الخليفة ، لا يصلح له إلا نظام الاسلام .

وبعد ان تتأكد هذه المعاني لا بد من التساؤل عن مفهوم الدولة الصحيح حتى إذا ما أدركناه ، وعقدنا العزم على ترجمته الى واقع حي ، كان لزاماً علينا أن نعي باخلاص ، تجربة الماضي، حين آبت مجتمعاته الى فطرتها السوية فوافت ، بذلك ، مستوى الاسلام في منهجه وأسلوبه ... وكان علينا أيضاً، أن نحلل بعمق ، تجربة أخرى حين أريد لهذا الواقع المسلم أن يتحلل من التزاماته وأن يتمرد على ذاته وأن ينقلب الى ضده ...

أي لا بد من دراسة مفهوم الدولة السوي والكيفية التي أقام بها الاسلام دولته والكيفية التي دالت بها تلك الدولة الراشدة .

ثم علينا ونحن في طريقنا الى بناء حكم الاسلام من جديد أن نصور واقعنا المظلم كما هو وكما أعده وأخرجه أعداء هذا الدين ... ننقله من مراجعه ومصادره دون أن نزيد عليه أو ننقص لأن دراسة أرض المعركة بصدق من أهم العوامل التي تؤثر في مجريات الأحداث ...

فأمامنا « هجوم ماكر » على الاسلام ، وأمامنا أيضاً « ردة الفعل الطبيعية » حركة المجابهة لصد هذا الهجوم ولتخذيله وللانتصار عليه .

وبعد ان درسنا الماضي وتعرفنا على أبعاد الحاضر وجب طرح السؤال « كيف نقيم حكم الاسلام من جديد ؟ » ووجب الاطلاع على مختلف أساليب العمل في اقامة الحكم .

وهذا كله شق في المسألة !

والشق الآخر يواجهنا بقوة إذا ما منّ الله علينا بحكم الاسلام من جديد!

... ما منهاج هذا الحكم أي ما هي مقوماته الأصيلة وخصائصه الذاتية ؟ ومن أين تستقى هذه المعالم الأساسية وكيف يمكن أن تتكيف هذه في كل واقع وفي كل مكان وزمان ؟

ثم كيف يمكن أن يتجمع المسلمون من جديد وكيف يكون الترابط فيما بينهم وعلى أي شكل من أشكال التجمع يلتقون أو يجب ان يلتقوا ؟

ثم كيف يحقق الاسلام دوره الفعال في مجموعة الأمم المتصارعة ليعيد الأمن والسلام لهذا الانسان التائه في هذا العالم المضطرب ؟ .

ولا ريب ان هذه المحاولات محفوفة بالمخاطر والأشواك لذلك فهي بحاجة الى مزيد من التخطيط وروية في التفكير ودقة في التوجيه والتنفيذ .

وكأي محاولة ، لا بد لهـا : من « قاعدة » تنطلق منها و« طريق » تسعى اليه للوصول الى « الهدف » المنشود .

وكل محاولة تفقد هـذه العناصر الأساسية : القاعدة والطريق والغاية . أو بعضها ، يكون مصيرها ، في الأعم الأغلب ، الفشل والاحباط ، وبقدر ما تمتلك المحاولة الوضوح والعمق في أساسها بقدر ما تقوى على تجسيد نفسها في واقع حي فعال .

* * *

كل ما تقدم ... فصول في كتاب جعلتها في قسمين :

القسم الأول وهو الذي بين يديك ، والقسم الثاني وهو الذي يتحدث عن منهج وشكل التجمع آمل أن يصدر قريباً ان شاء الله .

وان كان لي من حق التمني على القارىء الكريم فهو أن يقرأ الكتاب بالتتابع وأن لا يقفز عن آية أو حديث أو رأي أو خبر كان في علمـه ... فالكتاب فصول متصلة وحلقات مترابطـــة والقفز يسيء الى المعنى ويفقد التكامل في البحث . .

وأخيراً .. ان وفقت فيما ذهبت اليه فمن الله .. وإن أخطأت فمن نفسي .. وأحمد الله وأستغفره في الحالتين وأرجوه أن يتقبل مني عمـــلي وأن يحقق أمنيتي وأن نرى حكم الاسلام في الوجود ...

انه طريق شائك وطويل .

لكن لا بد من سلوكه ...

فهو المضمون ...

ولا نصر لنا إلا به ...

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله » .

المؤلف

طرابلس

أول شعبان سنة ١٣٩٠ هـ

أول تشرين أول سنة ١٩٧٠ م

توطئة في فصلين

غاية الوجود الإنساني

الحضارة والنظام

غايـــة الوجود الإنساني

إن أعقد مشكلة يواجهها الإنسان عند دراسته لنفسه وللعـــالم المحيط به « معرفة » موضعه في هذا العالم و « معرفـة » الارتباط الصحيح الذي يجب أن يقوم بينه وبين كائنات هـذا الوجود العجيب . هذه المشكلة التي تفرض ذاتها بقوة وعمق، لا يستطيع الإنسان – أو ليس من مصلحته – أن يتهرب من مواجهتها أو أن يتقبل المعالجة الجزئية السطحية دون التغلغل لأعماقهـا وملامسة جوهرها ...

مشكلة الوجود الانساني

هذه المشكلة ، معرفـة وجوده الكوني وصلته بالوجود ، تخلق في روحه حالة من القلق والاضطراب تحييه في تمزق داخلي ، وتدفعـــه لأزمة شعورية هائلة ، لا يقدر على إزالة آثارها وإعادة البنـاء النفسي المتكامل العميق ، إلا عندما يجد الحل ويهتدي الى السبيل! إن مرحلة التفتيش عن الذات الواعية المدركة ، ومرحلة التعرف على مكانة « هذه الذات » بـين العوالم ومرحلة إقامـة الصلات الصحيحة بينها هي أخطر المراحل ، منهجاً ونتيجة ، عـلى حياة الإنسان في هذه الأرض، فالمنهج الذي يتبناه الإنسـن في بدايه «التطلع» الكوني هــذا ، له أثره البعيد في ترتيب النتائج الحاسمة : في ضياعـه عن « ذاته » أو معرفته الكلية ..

تشويه التصور

الإنسان ، لا يعيش وحده فهو في كون فسيح مليء بالأحداث وبالآيات مليء بالموجودات والأشياء ومليء بالإنسان ذاته . . . يخلو الانسان لنفسه ويستبطن الكون – فيسمع صوتاً « عميقاً » يخرج من لدن الكون يناديه ، بعمق الفطرة ، كي يتناغم معه في حياة مبنية على نظام ، واطمئنان قائمة على معرفة أصيلة أزلية وليست عارضة صدوفة ...

ويحاول الإنسان أن يكون هو والكون والحياة في تناغم مستمر وفي انسجام دفاق حي . لكن ما أن يهم في محاولته هذه حتى يرتطم بمحجبات معمية تشوه معالم التصور السليم فتفقده السبيل وتحرفه عن الصراط وتدفعه دفعاً بسياط من حديد نحو مصيره الأسود المحتوم ... وهي ، في أثناء تشويهها ومسخها للتصور وللارتباط الكوني ، تمني هذا « الإنسان المحاول » بالوصول الى الهدف المنشود .

ان الشعور بالذات وبالعالم شعور متين عميق نظيف من حيث المبدأ ، شعور يولد مع الإنسان وينمو ويتضخم ، ثم يغدو معضلة انسانية تأخذ سبيلها الى « مجامع ذاته » بحدة وعنف فأما أن تهلكه واما أن يجابهها بحل عميق الجذور يضرب الى مكان الحقيقة الأزلية الخالدة .

المشكلة الأساسية هي في نوع العلاقة بين الفرد والعالم

من هنا يمكن أن نقول : « إن المشكلة الأساسية الاولى ليست كما تراها الفرويدية ، أي كبت تلك أو هذه الحاجة الغريزية بل هي كما وجد كثير من المفكرين والعلماء ، في نوع العلاقة التي تربط الفرد بالعالم [١] .

ويمكن أن نضيف : « قد يستطيع الانسان أن يكيف نفسه بالنسبة لكل شيء ، ولكنه يعجز عن اجراء التكيف هذا بالنسبة لشيء واحد ،

---

(١) الأيدلوجية الانقلابية ص ١٧٦ – ١٧٩ .

إلا وهو أن يرضى بموقف مبهم غامض حول الأشياء والأحداث التي تحيط به حول طبيعتها ومعناها ...

لكن الانسان يثير هذه المشكلة فيسأل نفسه : من أنا ؟ ما هو مكاني أو مبرر وجودي في هذا الكون ؟ ماذا يجب أن أصنع اليوم أو غداً ؟ « أو ماذا يجب أن أكون ... ؟ »

« الانسان هو المخلوق الوحيد ، الذي يحس عفوياً بأن هناك في الطبيعة أكثر مما تراه العين ، هذه المجابهة للمجهول بالإضافة الى وعيه للموت أضافت الى وجوده بعداً « مثيراً » جعله يتجاوز القبول الحيواني الساكن الأبله للتاريخ ويحاول دائماً أن يعطي الحياة معنى مستقراً « ثابتاً » .

* * *

هذه المشكلة ... مشكلة معرفة الوجود الذاتي وصلته بالكون العجيب ومعرفة ، مبدئه ومنتهاه ، وإدراك غاية الوجود الكلي للكون والانسان والحياة .. هذه المشكلة وما يتفرع عنها ويتصل بها من موضوعات كانت ولا تزال معضلة البحث الانساني وسبباً « أصيلا » في لقاء الإنسان مع الحقيقة أو ضياعه عنها .

لمعالجة المشكلة الانسانية اسلوبان بشري ورباني

ولقد تصدى الانسان لمعالجة هذه المشكلة ... تصدى لها وحيداً «منفصلا» عن الحقيقة الكبرى عارياً من تصور عميق سليم .. وتصدي لها بفيض إلهي دفاق وبقبسات ربانية خالدة .. فلا غرو بعد ذلك أن نرى التصدي الأعزل عاجزاً عن استئصال الأزمة .. وحل المشكلة ، بينما التصدي الآخر ، يطلق للروح أشواقها فترى ، بأصالة ووضوح ، عمق الارتباط بين مختلف أجزاء الكون العجيب .

ان التصدي لمعالجة المشكلة جزءاً لا يتجزأ من الانسان بل هي حركة

دائبة متصلة بوجوده ، فاذا التوت ـ هذه الحركة ـ في خطوط متكسرة أو منحنية خوفاً من المجابهة الواضحة البينة تكسر الانسان في أعماقه والتوى في سيره نحو المعرفة الكبرى ، وإذا تصاعدت في خط مستقيم تصاعد الانسان بعبقه الروحي وبكينونته الفطريـــة نحو شاطىء الأمان حيث الاطمئنان والاستقرار . . كذلك إذا خمدت هـــذه الحركة خمد الانسان وتلاشى عن الوجود الحياتي المعروف .

فالتصدي ، إذن ، قيمة كبرى . . لذلك كان على الانسان أن يقف طويلاً يراجع رصيده وزاده قبل أن ينطلق في حركة المجابهة والتفتيش .

ومن خلال العرض السابق نجد أن أمام الانسان تصورين لا ثالث لهما :

ـ فاما أن يتبنى التصور الإيماني للكون والانسان والحياة .

ـ واما أن يتبنى مشكلة الوجود الكوني بمفرده بناء لتصوّره الخاص عن معضلات هذا الوجود .

وبمعنى آخر هنـاك تصور رباني وآخر بشري أو تصور اسلامي وآخر جاهلي[1] ولا بد من الاختيار بينهما قبل الانطلاق نحو الهدف المنشود .

* * *

التصور البشري واحد وان اختلفت أشكاله :

ولقد انتقل التصور البشري عبر مراحل عديدة وكان لكل مرحلة شكل وموضوع حتى ملئت جعبة الفكر الانساني بمذاهب عديدة وبمنطلقات مختلفة وكاد الباحث يقول بتصورات « بشرية » لا « بتصور » واحـد وبنظرات « انسانية » لا بنظرة واحدة . .

والحقيقة ان مجابهة المشكلة الوجودية للانسان والحياة ـ من لدن الانسان ـ

(١) راجع فصل « المجابهة » من هذا الكتاب .

كانت عبر الزمن ، مجابهة واحدة ، نظرة واحدة ، فلسفة واحدة ، تصوراً واحداً وان اختلفت أشكال المجابهة والنظرة والفلسفة والتصور .

فالتصور البشري اغريقياً كان أو كنسياً منحرفاً ، أو عقلياً ، أوحسياً طبيعياً أو مادياً ، أو مادياً جدلياً أو وجودياً دراونياً أو فرويدياً ليبرلياً أو اشتراكياً أممياً أو قومياً أو ... أي شيء آخر تصور واحد يهدف الى شد الانسان نحو الارض وقطع كل صلة بينه وبين الحقيقة الأزلية الكبرى : الله ... تصور واحد يعمل لبتر الارتباط الروحي بالكون والانسان والحياة ويسعى لطمس معالم الفطرة النظيفة في أعماق النفس الانسانيـــة السوية . . تصور واحد يحاول ـ بقصد أو عن غير قصد ـ تشويه غاية الوجود الانساني في هذه الدنيا ومسخ دور الانسان على هذه الأرض . .

التصور البشري . . تصور واحد . . ولو اعتمد ، في سبيل الوصول الى أهدافه أساليب مختلفة . . فتأليه عقل الانسان او الطبيعة او المادة او الحرية اللاواعية او الجنس او الاقتصاد . . الخ . . كل ذلك أساليب مختلفة تخـدم غاية واحدة وتدفع هذا الكائن المعذب التائه « الانسان » نحو هوة سحيقة ليس لها قرار . . نحو قلق محتوم واضطراب مخيف وهم قتال . .

نحن إذ نقرر هـذه النتيجة الخطيرة لجهد الانسان « الفرد الأعزل » في مجابهة ومواجهة مشكلة الوجود والارتباط الكوني ، لا ننسى أن نقـدر في هذا الجهد ، القدرة المبدعة والقوة الخلاقة التي فيها وصل الى هذا التعدد في أساليب الفلسفة وطرق المعرفة . . وهما ـ أي القدرة والقوة ـ سر مـن أسرار هذا الانسان المعجز . ان هذه الأساليب والأشكال بقطع النظر عن غايتها المسيخة وهدفها الملوث ، ـ بقصد أو عن غير قصد ـ دليل أكيد على حاجـة الإنسان لتفهم وجوده وصلته بالكون والحياة . . وهي فضلاً عن ذلك ذخيرة فكرية كبرى تُعينُ « شكلاً » ، على تعميق فهـم الوجود وإدراك البعد الإنساني في هذا الكون الفسيح . .

من أشكال التصور البشري :

العقلية :

ومن أصحاب هذا التصور مفكرو المدرسة العقلية ، فهؤلاء جعلوا العقل أساس المعرفة الصحيحة ومنحوه حق الإشراف على كل اتجاهات الحياة وما فيها من سياسة وقانون ودين « وسموا عصرهم هذا ـ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ـ بعصر « التنوير » أو بعصر الـ (Deism) أي عصر الإيمان الفلسفي بإله ليس له وحي وغير خالق للعالم .

الحسية:

ومنهم الحسيون الوضعيون الذين جاؤوا ـ في فجر القرن التاسع عشر ـ بنقيضٍ للمعرفة الكنسية والمثالية العقلية وأعلنوا عن « معرفة يقينية حقة » ألا وهي الطبيعة . . فالطبيعة تنطق عن نفسها ويجب على الانسان أن يعتمد منطقها إذا أراد أن يعيش فيها ، ومنطقها وحده لا منطق المؤلهين ولا منطق العقليين ولا أي منطق آخر . . هو الذي يخط الطريق المستقيم ويحدد أهداف الانسان الكبرى في الحياة . .[1]

الماركسية :

والماركسيون ـ الماديون الجدليون ، حطموا القيم الذاتية وأولوا المادة ثقتهم الكبرى وجعلوها مصدر كل شيء حتى الإدراك والعقل فهو نتيجة المادة أو هو « مادة عالية التنظيم » وأما الذي يتحكم في سير التاريخ فهو تنازع الاضداد والطبقات ، فالعامل الاقتصادي هو أهم عوامل الحياة وهو الذي يسود الوجود الإنساني وبه تتحقق سعادة الفرد في ظل الجماعة . .

(١) يراجع الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار للدكتور محمد البهي .

الوجودية :

أما الوجوديون فقد جعلو « الشعور » موجوداً لذاته أي أنه موجود ليحقق نفسه لا ليحقق ماهية خارجة عنه ـ كالأشياء المادية ـ . والموجود بالذات أي « الشعور » متغير ، قوامه النزوع المستمر نحو المستقبل والتنصل المستمر من الماضي ، فهو موجود له في كل لحظة حالة غير اللحظة السابقة على خلاف الأشياء المادية ذوات الذاتية الثابتة . . ومن هنا كانت حرية الانسان صميم وجوده الشعوري القلق ، فهو حر لأنه يخلق نفسه بنفسه كل لحظة والقول : « إن الإنسان حر » مرادف للقول : « إن الله غير موجود »[1] ولِمَ لا أكون حراً . . ما دمت حذفت كل جوهر من فوقي ومن خلفي فأنا غير مرتبط ولا مربوط بمثل ناموسية . .[2] الخ .

وبعد هذا الاستعراض السريع نجد صواب ما ذهبنا اليه وهو ان التصور البشري تصور واحد يهدف لغاية واحدة وهي إبعاد الانسان عن الحقيقة الكبرى وطمس معالم دوره الأصيل في الكون . . تصور واحد ولو تعددت المذاهب . . وجميعها ـ كما تلمسنا ـ تضع هذا الكائن المسكين « الانسان » ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ في حلبة صاخبة من الصراع المؤدي الى قلق وحيرة وارتباك . .

* * *

أما التصور الإيماني فهو تصور بسيط قريب من الفطرة الانسانية وملاصق للطبيعة البشرية وملتحم مع الكون بأسره . .

(١) الموسوعة العربية الميسرة ـ مادة جان بول سارتر صفحة ٩٤٢ .

(٢) كتاب من الجوهر الى الوجود لكمال الحاج .

التصور الايماني يخاطب الكينونة الانسانية ويردها الى الله :

التصور الإيماني تصور فعال لا تعقيد فيــه ولا غموض ، يواجه المشكلة الإنسانية والكونيــة بسهولة ويسر . . يبسطها حتى تراها بوضوح ثم يعيد تركيبها لتراها بعد ذلك بوضوح أكثر ... وأهم ما فيــه أنه يمنح الانسان عندما يريد التصدي للمشكلة الوجوديــة ، قوة التصدي الإلهي ، فيغدو صاحبها ، كبيراً عظيماً سيد الموقف ، يوجه المشكلة وآثارها بلين وأناة .

هذا التصور .. يخاطب الكينونة الانسانية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها ويردها الى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة واحدة تطلب عندها كل شيء وتتوجه إليها بكل شيء ..

كذلك يرد الكينونة الانسانية الى مصدر واحــد تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها وشرائعها وقوانينها وتجد عنــده إجابة على كل سؤال يجيش فيها وهي تواجه الكون والحياة والانسان ، بكل ما يثيره كل منها من علامات الاستفهام ..[1]

ولنا بعد ذلك أن نسأل التصور الاسلامي عن الانسان ومشكلته وصلته بالوجود ؟ من هو كيف وجد ولماذا ؟ ما ارتباطه بالأكوان والعالم وما علاقته بنفسه وبالآخرين ؟ ما هي قدراته وامكاناته ؟ كيف يعيش ولماذا يعيش وما هو مصيره ومصير العالم ؟..

وتبعاً لمنهج التصور الاسلامي في تبسيط المشكلة ثم إعادة تركيبها لنراها بوضوح أكثر فاننا نحدد أبعاد المشكلة بالانسان والكون والحياة[2] .

ففي الانسان : يرفض الاسلام نظرية التجزئة التي تنادي بالعقل أو بالحس

---

(١) مقومات التصور الاسلامي وخصائصه ـ سيد قطب صفحة ١٢٦ .

(٢) خوفاً من الخروج عن نطاق البحث والاستطراد الكلي مــع التوسع الموضوعي في هذا البحث الخطير فاننا سنضطر للايجاز آملين من الله ان يوفقنا لتوسيعه فى كتاب مستقل .

أو بالقلب أو بالشعور كمصدر أساسي للمعرفة الصحيحة ، ويقول بكلية الانسان الشاملة ، بكينونته المطلقة ، بروحه التي هي من الله .

ولا يعني هذا تحديداً لماهية الروح : فالروح من أمر الله وما أوتينا من العلم إلا قليلا ، انما ندرسهنا خاصة من خواص الروح فنرى ، من خلال هذه الومضة الإلهية ، كل شيء في الوجود . ننظر بهــا الى أنفسنا الى الناس الى الكون الى الحياة . . فلا يكل النظر ولا يرجــع حسير ولا تضطرب معه المعرفة لأننا نظرنا بكلية شاملة لا تعرف التجزئة بكلية لا تعرف نقائض العقل والحس والقلب والشعور ، أو أي شيء آخر ..

الروح أداة المعرفة الكبرى

والوعي خاصة من خواصها :

هذا التجميع لوسائل المعرفة يوجد الوحدة في أعماق الذات الانسانية فلا يدعها بعد ذلك فريسة للتجزئــة أو للخطأ أو للظن ، أو لمحدودية العقل والحس والشعور . ان الروح الالهية التي حلت بالانسان الأول بالنفخة الربانية المباركة (ونفخنا فيه من روحنا) هي التي أوجــدت في الانسان « القدرة الخاصة » المميزة له عن كل خلق الله ، عن الملائكة وعن الحيوان وعن الجماد. هي التي أوجدت فيه « الوعي » وعي الذات ووعي الكون والحيــاة وهي التي منحته « الادراك » وكل ما يتصل به من خصائص ومقومات ..

لقد نشأ الوعي في الانسان ونشأ الادراك ، لحظة إيداع جسد الانسان روحاً من الله فاستحالت عندها مادة هذا الجسد الى ذات عاقلة مفكرة مدركة مميزة واعية تملك « القدرة » على معرفة ذاتها ومعرفة ما حولها وتملك « القدرة » على انشاء رابطة بينها وبين ما ترى، وعلى « التمييز » بين هــذه الأشياء بدقة وعمق ! هــذه القدرة هي روح منحها الله سبحانه لهذا الانسان . وكأنها من علم الله الذي خص منه ما شاء لهذا الكائن العجيب تكريماً له وتشريفاً وتأهيلاً للقيام بالدور المقدس الذي رسمــه له (وإذ قال ربك

للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)[1] . (ولقد كرمنا بني آدم ...)[2] .

فآدم ، الإنسان الاول ، منذ الوهلة الأولى من حياته استطاع أن يسمي الأشياء بأسمائها أي أن يعيها بعـــد أن « تعرف » عليها وبمعنى آخر ان « يميزها » بعد ان « عرف » صفاتها وخصائصها .

ولا ريب إن هذا « الوعي » أو « الادراك » أو بمعنى شامل « المعرفة » ترتقي كلما تأصلت العلاقه بين الانسان وبين ما يحيط به : فكلما أحسن الصلة بما حوله من الوجود وأقام الارتباط المتين كلما تعمقت « معرفته » وتأصلت ، لا تخشى دركاً ولا حدا .

ومن هنا كان الوعي « خاصة » من خواص الروح لا كما تقول الماركسية (خاصة مادة عالية التنظيم) ـ [3] وتأكيداً على هـــذا المعنى يتلقى وعي الانسان ، وبصورة دائمة إمدادات خفية تنير له الدرب وتشع أمامه ما ظلم من جوانب الوجود فإذا هو يرى بنور الله .

جاء في الحديث : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)
وجاء في الحديث القدسي : (ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافـل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ...) .

---

(١) الآيات ٣٠ ـ ٣٤ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٧٠ من سورة الاسراء .
(٣) انجلز .

النبوة ارتقاء في وسيلة المعرفة :

وللإنسان قـــدرة على الارتقاء أكثر فأكثر وعلى تلقي « المعرفـة » من مصدرها الأول .. لكنها « قدرة » مرتبطة بحالة فريدة لا تتكرر ولا تعمم ، حالة اختص بهـا صنف من الناس ، هم بشر ، لكن ارتقت أرواحهم وتفتحَ « وعيهم » وتوسع « إدراكهم » بإرادة الله ليتلقوا عنه مباشرة أو بواسطة وحي أو من وراء حجاب[1] أسلوباً في المعرفـــة ومنهجاً في الحياة .. أولئك هم الأنبياء ..

الكون مسبِّح لله مسخَّر للانسان :

أما الكون .. الكون العجيب .. ففيه من الآيات مـا يدعو الى الدهشة والاستسلام .. فهذه الأكوان الفسيحة الهائلة .. هذه العوالم المتمادية المتصلة .. هذه السماوات والنجوم والشمس والأقمار .. هذه الأرض .. والجبال والبحار والأشجار .. هذا النسيم والهواء والريح .. هذه الغيوم والثلوج والأمطار .. وهذه الدنيا بما فيها من معطيات .. هذه وتلك تدعوك برفق وإيمان الى إصاخة السمع لتعي عمق تسبيحها وتمجيدها للخالق المبدع ولتحرك في مكامن روحك ومضات التناغم والتجاوب فتتناغى مع الاكوان في تسبيح وتنزيه من خلَق (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قيامـــاً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار..)[2] (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنَّ ، وإن مـــن شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً)[3]

---

(١) يقول الله سبحانه في سورة الشورى (آية) ٥٢ : (ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أومن وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء انه عليم حكيم) .
(٢) الآيات ١٩٠ ـ ١٩٢ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٤٤ من سورة الاسراء .

ثم ان لهذا الكون رسالة غير التسبيح الذي هو أصـل وجوده — رسالة تحققها الأكوان بعفوية ونظام دون تعقيد ودون معارضة (وأذنت لربهـا وحقت)[1] تحققها بكليتها .. بكينونتها المفطورة عليهـا .. فلا تشعر — وأنت تتبع آثار هذا التطبيق — بأي اختلال أو إنحراف .

فما انقطعت الشمس عن أنوارها ولا الغيوم عن أمطارها ولا الشجر عن ثمارها ولا الأرض عن دورانها .. بل كل في تأدية رسالته .. في خـدمة هذا الانسان ..

فالأكوان مسخرة لهذا الانسان مذللة له .. قائمة على تلبية حاجـاته ومتطلباته (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)[2] .

فمن العجيب ان يتعبده الانسان !

إن إرتباط الأكوان بالانسان ارتباط مصيري محتوم فلا معنى للأكوان دون الإنسان فاذا ما زال الانسان من الوجود زالت الأكوان بصورة تلقائية حتمية .. فخالقها قد أودعها وضمنها من الخصائص والقدرات والوظائف مـا لا تتحمله دون هذا الكائن البشري فهي له بكل ما فيها وبكل أعماقهـا ..

والعجيب أن الإنسان ، الذي سخرت له هذه الأكوان ، حين يتصدى لفهمها يضـل ويفتن ويتخبط في دياجير مظلمة من أفكار وفلسفات .. فهو مرة يتعبدها ومرة أخرى يعتبرها مصدراً « أصيلا » في « معرفة » وجوده ومرة ثالثة يجعلها مادة يصدر عنها هو بالذات ومرة رابعة .. وخامسة. الخ.

أما التصور الإسلامي فانه يقيم الارتباط بين الكون والانسان على أساس

(١) الآية ٢ من سورة الانشقاق.
(٢) الآية ١٣ من سورة الجاثية.

السيادة .. السيادة المطلقة للإنسان على الكون وما فيه .. فهو ليس عبداً للكون وللمادة بل هو سيد يتصرف بالكون تصرف السيد ذي الارادة باذن الله .. وهكذا يجعل الانسان فوق الدنيا يسوسها لمصلحته وفق مـا تقتضيه حاجاته .. فهي — أي الدنيـا — ليست مصدراً للمعرفة ولا مصدراً للوجود.. وليست في ذاتها إلا حاجة يقضي الانسان العبد وطره منها ويدعها ليسمو فوقها وليصل بعد ذلك مع جوهر خلقهـا إلى تسبيح عميق للواحد الأحد ..

* * *

أما الحياة .. فهي قبس من نور الله .. يضفي إليها البهاء والجمال ويوحي بالخير والأمان . ولكم أظلمت الحياة وهي في عُهْدَةِ هذا الإنسان ؟؟..

لقد تجاوز الإنسان غاية الوجود فرتع في حبور وظن أنه لن يحور فالحياة عند كثير من الناس ، فلاسفة وعاديين ، متعة وشهوة ، لذة وبهجة كالحيوان، أكل وشرب ونوم ونكاح ، واذا مـا اخترع الانسان واكتشف فلتحقيق أسلوب أفضل في حياة المعدة والجنس وفي حياة الترف واللهو ..

صراع الافكار في الحياة !

ولقد ازدحمت الفلسفات والأفكار حول معنى الحياة.. وراحت كل واحدة منها تدلي بدلوها وتقدم زبدة ما عندها .. وهي بجهدها هذا تحاول صبغ الحياة بصباغها وتحاول ان يفهم الانسان الحياة فهماً « ذاتياً » كما تريد ..

واصطرعت الأفكار .. وكلها تبغي ظاهراً معالجة أسلوب الحيـاة خدمة لهذا الانسان وحتى يحيا حياة طيبة يسعد فيها ويهنأ .. فكانت المادية اللبرالية والماركسية والاشتراكية والاممية والقومية والوجودية والفرودية وحتى الفوضوية ..

ولكن جميع هذه الأفكار بقيت في إطار لم تتعداه بقيت في بحث واحد لم تتجاوزه: في الكسب والمعيشة والجنس والشهوة والفرد والأمة.. بقيت في هذا الحد المحدود البسيط الذي لا يشكل إلا جزءاً يسيراً وربما تافهاً من حياة الانسان ..

ودائماً تهربت هذه الفلسفات والتصورات المادية الجاهلة تهربت عن قصد أو عن غير قصد من معالجة جوهر الوجود غاية الوجود لماذا وجد هذا الانسان وما معنى الحياة ؟ من أجل الصراع .. صراع الذات مع الطبيعة أو مع المادة أو مع نفسها ؟ أم أجل تحقيق ذاته في وجود مبهم غائم ؟؟ .. أم من أجل طعام وشهوة ؟ أم من أجل رياسة وجاه ؟ أم من أجل ماذا ؟.

اسئلة تلح بذاتها وتفرض نفسها بداهة على فكر وادراك هذا الانسان تشتد عليه وتطالبه برجاء وقوة أن يمنحها الجواب الشافي ؟؟.

ويعجز التصور الجاهلي أن يجيب على أي من هذه الأسئلة ويتهرب من الجواب ويحور في الكلام ويتشبث بألفاظ وبمشتقات الألفاظ حتى تسأم النفس البشرية من الحل فتتهاوى في الضياع واللامبالاة أو ترتد بقوة وارتفاع نحو التصور الايماني التصور الاسلامي .

الانسان في الحياة : خليفة مستناب فعليه أن يعي دوره ويلتزم بحدود الاستنابة :

فالاسلام يعطي للحياة معنى تشعر – وأنت تتلقاه – بتجاوب الكينونة البشرية معه، بتجاوب الأعماق الانسانية بالتحامها معه في كل فقرة من فقراته وبكل جزء من جزئياته ..

والاسلام يعلن بوضوح تام أن الانسان وجد في هذه الحياة نيابة عن الله سبحانه فدوره في الحياة دور خليفة مستناب في تصريف الأمور والشؤون .

فالخلافة نظرية أصيلة في التصور الاسلامي ، وعلى ضوئها يفسر الاسلام

دور الانسان في الوجود ، دوره في الحياة ، دوره في التفاعل والابداع .. من أجل هذا سخرت له الأكوان وذللت له الأفلاك وسعى الوجود لخدمة من كرّمهُ الله فاستنيب في الحياة ..

« إذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود ، زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الابداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحوير والتبديل وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات وتسخير هذا كله – بإذن الله – في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه [(١)] .

وإذن ليس هناك في الوجود أسمى وأرقى من هذا الدور الخلاق .. دور الخلافة في الأرض .. وليس هناك من تفسير كلي للحياة أبلغ وأصوب من هذا التفسير العميق الدقيق .. الذي زوى بين طرفيه كل القيم الذاتية والمبادىء السليمة من أجل حياة أفضل .

ولا بد لهذا الانسان المستناب ، أن يعي دوره العميق هذا وان يقوم بمستلزمات الخلافة ولا يمكن أن يوفق في هذا إلا إذا اتبع منهج الله الذي استخلفه .. منهجه في الحياة وفي الوجود ، في صغائر الأمور وكبائرها ، وفي مختلف الشؤون والفنون : في الدولة والحكم ، في الاقتصاد والسياسة ، في التشريع والتنظيم في التصور والتفكير ، وفي كل شيء ..

وغاية الخلافة غاية رفيعة مقدسة تتهاوى إزاءها كل الغايات وتتضاءل .. غايتها أن يعرف هذا المستناب من أنابه .. فيرتد الى الأرض ليعيش فيها وليحقق ، إرادته بصدق وفق ما أراده المستخلِف وأمانة وإخلاص ..

(١) في ظلال القرآن – للأستاذ سيد قطب الجزء الأول صفحة ٦٥ الطبعة المصرية –

غاية الخلافة ، تحقيق عبودية الانسان لله في كل مجالات الحياة :

غاية الخلافة أن تتوحد الأرض والسماء ، والانسان والأكوان ، والحياة والممات بحركة واحدة لا تعارض فيها ، وبنغم واحد لا نشاز فيه . فكل ما في الوجود من انسان وأكوان وحياة يعبد الله .. يمجد الله .. كل ما في الوجود، في ذاته وفي جوهره وفي واقعه، يعلن العبودية الكاملة لله.. فان تحركت الأكوان ففي عبودية الله وان تحرك الانسان ففي عبودية الله وان استمرت الحياة ففي عبودية الله .

وفي هذا يقول الله سبحانه (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) « فالتعبد لله أي العبودية المطلقة له هو غاية الوجود وهو الوظيفة الكبرى الأساسية المكلف بها الانسان الحي الواعي – فعندما يمارس وظيفته هذه ، عند ذلك وعند ذلك فقط يدرك غاية الوجود ويحس انه موجود حقيقة في هذه الدنيا .. موجود لغاية سامية متناغمة مع غايات الأكوان المحيطة به ، منسجمة مع وجود العوالم حوله، فكلها تسير بدائرة العبودية لله، كلها تتعبد الله ، تسبحه من أعماقها وتقدسه بحركاتها وتمجده بكليتها . وبهذا العمق الايماني يستحيل الجماد الميت الى حي له وجود وله غاية يشارك الوجود الانساني غايته ويسيران معاً بانسجام وتناغم نحو الله (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعمَ الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) .

« هذه الحقيقة الكونية الهائلة هي التي تنير الدرب للانسان التائه وهي التي تقوده الى شاطىء الأمان والاستقرار (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور) روى ابن كثير في تفسيره (يقول الله تعالى إبنَ آدم : خلقتُك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب فاطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء ..) أما اذا

اراد هذا التائه أن يستكبر في الأرض ويتفلت من عبودية الله فيكون قد تعبد هواه ودخل عالم الظلام والنسيان والضياع .. (الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات) [١] .

العبودية مظهر الوعي الانساني ودليل على الوجود

ويؤكد التصور الاسلامي على العبودية ويسعى لتعميقها في مختلف جوانب الوجود .. فكل حركة وسكون من قبل هذا الخليفة المستناب ، يجب أن تفسر على ضوء العبودية وكأن هذا التصور أراد أن يربط وبصورة نهائية بين الحس الوجودي عند الانسان وبين العبودية .. فكلما تعمق الانسان في فهم العبودية وتطبيقها على مظاهر وجوده كلها كلما أحس بوجوده وبارتباطه بالكون، وكلما بَعُدَ عنها بروحه وبوعيه وبفعله كلما ارتكس في هبوط بشع مفزع الى دون الانسانية الرفيعة بل الى دون الحيوانية .. وبهذا يصور القرآن الذين كفروا بأنهم كالأنعام بل هم أضل ..

* * *

وبعد أن بسطنا المشكلة وعالجناها مجزأة في الكون والانسان والحياة .. كان لا بد – اذا أعدنا تركيبها لنراها بصورة إجمالية وفقاً لما أعلناه عن منهج التصور – ان ندقق بوجة عام في هذه الأجزاء الهامة .

مشكلة الانسان مشكلة التعرف الى الله :

فقد رأينا بوضوح كيف تناسقت الأجزاء في عقد فريد وفي التحام شديد لخدمة الغاية الكبرى وهي معرفة الله سبحانه .. ومن هنا نرى أن

---

(١) من مقال للمؤلف بعنوان « أنا عبد ... لله اذن أنا موجود » منشور في مجلة حضارة الاسلام المجلد السابع العدد الثامن الصفحة ٢١

المشكلة الانسانية تتلخص في معرفة الله أو عدم معرفته .. وهو الصراع الاصيل في الانسان . فالانسان ، منذ مطلع التاريخ يعاني هذا الصراع فيمر بأزمة ايمان وأزمة روح تليها أزمة أخلاق وأزمة وجود حتى يقيض الله له نبياً أو نبياً رسولاً يهديه سواء السبيل ويعرفه بالله العلي القدير ويضع بين يديه منهج الحياة السليمة السوية .

فالمشكلة إذن ليست مشكلة مادة أو جنس أو إقتصاد أو حكم .. إنما هي مشكلة التعرف الى الله.. وهي بذلك بسيطة جداً معقدة جداً حين نواجهها بحاجة الى أن نواجهها بتصور سليم، بتصور إيماني عميق ومعقدة حين نجابهها فرادى عزلا ، بعقول قاصرة قطعت صلتها بالحقيقة الخالدة الكبرى : الله.

« أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم » .

الحضارة والنظام

يكاد « مدلول » لفظ الحضارة ينحصر في التقدم العلمي والرقي في وسائل الانتاج وفي مختلف أنواع الصناعات ..

وهذا المفهوم « الالي » للحضارة ، بمعنى الارتباط المصيري بين « التكنولوجيا » والحضارة مفهوم خاطىء بحاجة الى تصحيح وتقويم . « فالتكنولوجيا » ظل الحضارة وليست ذاتها ، فاذا انحسر الظل يوماً فلا يعني نفيها كما أن وجود « ظل » لا يحتم وجودها . فقد تكون أمة من الأمم متحضرة ، أو تملك مقومات الحضارة السليمة ، ومع هذا فهي ليست متقدمة علمياً والعكس هو الصحيح أي أن أمة من الأمم قد تملك العلم امتلاكاً ، وقديخرج من مختبراتها اختراعاً واكتشافاً إلا أن المنطق السليم يحظر علينا أن ننعتها « بالحضارة » .

فالعلم ، أو التقدم العلمي ، أو التكنولوجيا نتيجة لفهم الانسان لما حوله من موجودات الأرض والسماء وكنوز التراب والجبال . فالعلم إذن إكتشاف العلاقة مع ماديات الأرض وطريقة استخدامها ، فهو بالتالي ، وسيلة لغاية هي إسعاد الانسان وتحقيق ذاته « الانسانية » في الوجود ، وتلك هي الحضارة .

إن الانسان الغربي اليوم على عكس هذا المستوى الكريم. فهو عبد للعلم ، ولثمرات العلم ، يدور حيثما دار العلم، ويعطيه بدفع جنوني كل ما يملك قلبه وروحه وأعصابه وهو يصطرخ : هذه هي الحضارة ..

ولا يسعنا هنا إلا أن نورد دليلاً من الغرب على فظـاظة هـذا الموقف الخطير .. وهذا الدليل نسوقه من كتاب (الانسان ذلك المجهول) لمؤلفـه الطبيب الكسيس كاريل حيث يقول :

حضارة العصر صدرت عن جهل بطبيعة الانسان :

« ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب . لأنها لا تلائمنا . لقد انشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، اذ انهـا تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهـامهم ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنهـا غير صـالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا [1] .

ويقول في موضوع تأثير الحضارة الصناعية على « الانسان الغربي » :

لقد أهمـل تأثير المصنع على الحـالة الفسيولوجية والعقلية للعمال ، إهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية. إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ الحد الأقصى من الانتاج بأقل قدر من التكاليف حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال .. وقد اتسع نظامها دون أي تفكير في طبيعة البشر الذين يديرون الآلات ودون أي اعتبـار للتأثيرات التي تحدثها طريقة الحياة الصناعية التي يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم [2] .

* * *

(١) صفحة ٣٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٠ .

لا ندعو الى اهمال العلم ونتاجه انما الى تحديد مكانه من الانسان والحياة :

وما أثبتناه ، لا يشكل دعوة الى التخلي عن العـلم وثمراته ، أو الى التوقف عن الاكتشاف والاختراع ، أو الى إهمـال تحسين التكنولوجيا والتقدم العلمي، والى الجمود على حد من الابداع في الانتاج المادي، فهذا كله غير وارد في منهج التصور الاسلامي .. اذ أن الانتاج المادي ، وما فيه من ابداع وفاه، ضرورة ملحة لحياة هذا الانسان ولاستمرار نموه، ودليل سريع على قيام هذا الانسان المُستخلف . بواجبات الخلافة .. انما الذي عنينـاه أن يكون هذا الابداع بكل مدلولاته في خـدمة الانسان ، فتلك هي إرادة الخالق الذي سخر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منـه .. ومن بديهية الخدمة ان تنَمي خصائصَ الانسان بأن لا تناقضها أو تحتقرها فكيف يجعل دور الانسان في هذه الأرض دوراً ثانوياً أو تابعاً للابداع المادي كما هو الحال في حضارة القرن العشرين .!!

ولو ان الانسان الغربي فهم هذا المعنى لما سمعنا من أبنائه من يتكلم بحرقة عن مصيره في ظل هذه الحضارة المادية وعن مصيرها هي ذاتها .

الانهيار في الحضارة المادية أوحى الى المفكرين ضرورة ايجاد فكرة أخرى للتقدم قائمة على سيادة الانسان :

فقد ذكر الدكتور كاريل في مقدمة كتابه [1] انه كتب هـذا المؤلف لأولئك الذين يجدون شجاعة كافية ليدركوا — ليس فقط ضرورة إحداث تغيرات عقلية وسياسية واجتماعية — بل أيضاً ، ضرورة قلب الحضـارة الصناعية وظهور فكرة أقرب للتقدم البشري .

وينعي الكاتب الروماني الشهير قسطنطين جور جيبو في قصته (الساعة الخامسة والعشرون) المدنية الغربية : الاوربية والأميركية والروسية ويعلن

(١) الانسان ذلك المجهول ص ١٢ .

إفلاس هذه الحضارة الآلية في تقويم الحياة الانسانية بعد أن فقدت كل مقومات الحياة ويرنو ببصره ، من بعد الى أمة ذات أصالة تتفهم الواقع البشري وتتقدم لانقاذ البشرية بفكرة أقرب للتقدم كما قال كاريل – تنقذ بها الانسان الحضارة الصناعية من وهدة الشقاء ومن حظيرة العبودية لآلة صماء نكداء ، وهو في تطلعه هذا يحدد ابعاد الفكرة الجديدة التي ستنبثق منها حضارة جديدة فيؤكد قيامها على سيادة الانسان في الأرض وتحرره من ربقة الآلة وكل منجزات الحضارة الغربية واستخدامه لها بكونها وسيلة لغاية سامية وهي – كما أسلفنا – تحقيق ذاتية انسانية عليا .

ولندع كونستانتان جورجيو يقول (ان هذا الانهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شك من آسيا ولكن ليس من روسيا. إن الروس قد انحنو خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي فلن يعيشوا ليروا الاشراق . سيكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي وسيستعمل النور الكهربائي لانارة الشوارع والبيوت ولكن لن يبلغ به مرتبة الرقيق ولن يرفع له معابد وصوامع كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع الآلي الغربي انه لن يضيء بنور (النيون) خطوط القلب والفكر . ان رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي[١] .

إذن ، لا إهمال للانتاج المادي ولا للتكنولوجيا ، ولا للتقدم الصناعي إنما فقط ، ربط هذا الانتاج بمركزية فكرية سليمة بتصور سليم ، بمعطيات سليمة .

المنهج الرباني يدعو الى استخدام الكون
والى ربط العلم بنظام للحياة هابط من الله :

ان المنهج الرباني ، لا ينكر استخدام الكون بما فيه من طاقات بل يطلبه

(١) حضارة الاسلام المجلد صفحة

ويوجبه فهذه سنة مؤكدة لا مناص منها ولا مهرب ، إنما يرفع الاسلام النكير عندما تعطي قلبك لهذا الانتاج وعندما تجعل التقدم الصناعي في قلبك لا في يدك أو كما قال جورجيو ان ترفع له المعابد والصوامع وتضيء القلب والفكر بخطوط (النيون) والذرة .. و ... الخ .

هذا المعنى الدقيق العميق في الفهم الحضاري هو ما أشار إليه القرآن وهو يحكي مواجهة نبي الله هود لحضارة (عاد) المادية الصناعية الهائلة فقال « أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم[١] »

فهود ، في مواجهته لتضخم التقدم العلمي ، لم يرفع المعول ليهدم هذا الصرح الشامخ من الصناعات والعلوم ، ولم يدعُ الى الانفصال عما وصلوا إليه ، كسبيل للإنقاذ ، بل راح يدعو الى ربط هذا التقدم العلمي واستخدام خيرات الأرض بالغاية الصحيحة التي خُلِقَ من أجلها هذا الانسان والى «ضبط» هذا الربط ليكفل عدم الجنوح والخروج ، وعدم المعاودة الى التصور الجاهلي القديم (فاتقوا الله وأطيعون) وإلا فالمصير أسود مخيف ... عذاب يوم عظيم ..

هذه المجابهة بكل أبعادها ومعالمها وبكل مقوماتها وأسسها ، هي التي نحتاجها اليوم ، اذا ما أردنا تلافي تدمير البشرية وتحقيق حفظ التقدم العلمي وحفظ السيادة الانسانية ولا يكون ذلك إلا في « ربط » الابداع المادي الغربي بالتصور الاسلامي السليم عن الكون والانسان والحياة «وضبط» هذا «الربط» بنظام للحياة لكل معالم الحياة ؛ للاقتصاد

(٢) الآيات ١٢٧ – ١٣٥ من سورة الشعراء .

والسياسة والحكم والاجتماع، مستقى من مصدر هذا التصور، من الله سبحانه..
هذا « الربط » هو الذي يحقق لنـا وللوجود البشري ، مرة ، أخرى ، حضـارة صحيحة تستحق عن جدارة لفظ حضارة .

على النظام مسؤولية كبرى في ضبط الربط :

ان عملية ضبط الحياة في نظام منسق متفق مع عمق التصور ومنسجم مع خصائص الانسان هو أدق من الربط نفسه ، فالنظام مسؤول عن استمرار الربط ومنع الانحراف ومسؤول عن بقاء النـاس في الخط المستقيم ، وعن تأصيل ابعاد التصور فيهم وفي أجيالهم الصاعدة ، وأيضاً هـو مسؤول عن نشر هذا التصور في العالم حتى يستقيم الناس جميعاً على أمر واحد وعلى نهج واحد وعلى حضارة واحدة .

إذن للنظـام خطر كبير ، فهـو صورة الفكر ، وهو الواقع التطبيقي للنظرية ، ولا حيـاة للتصور دون تطبيق ولا جـدوى منه دون تنفيذ . والنظام . بقدر ما يكون عميقاً في الواقع بقدر ما تظهر أثار التصور واضحة جلية ، وأي انحراف في النظام أو في نهجه أو في تطبيقـه يصيب مقتلاً من التصور ويحجب اشعاعه من الوجود ..

ولا يمكن أن تستقيم حياة مجموعة من الناس إلا عندمـا تكون أنظمتهم في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع، في الاسرة والحي والدولة، نابعة من تصورهم للكون والانسان والحياة .. ولا يمكن أن يوجد الانسجام بين الناس وبين أنظمتهم إلا عند وجود صلة روحية بين الاثنين : تعـارف يضرب بجذوره الى الأعماق .

ان الإنسان السوي ليرفض التجزئة بين حياتيه الفكرية والواقعية فهو لا يقبل ، أو ليس من مصلحته أن يقبل، خضوعه لاتجاهات عديدة . فاتجاه يحكم قلبه وآخر عقله وثالث حياته الاجتماعية ورابع حياته السياسية وخامس

حياته الاقتصادية وسادس وسابـع الخ .. فذلك يخلق التمزق في أعمـاقه وحياته ، التمزق الذي لن ينتج عنه إلا القلق والاضطراب والفوضى وبالتالي الانهيار الكامل ..

ماركس يبرر انفصاله عن الدين :

لقد كتب ماركس في تبريره الانعزال والانفصال عن الدين انه أي الدين يسبب التمزع في الشخصية الانسانية والدليـل على ذلك أن الدين أي (المسيحية) – أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله – فأصبح الحكم السياسي والأنظمة الأخرى بيد الانسان يضعها حسب ما يريد ويشاء في حـين بقي هذا الانسان خاضعاً في حياته الشخصية والخلقية للقيم الدينية . . فمثـلاً الانسان في حالة الاعتداء عليه يكون في حالة متناقضة فالقيم الدينية تأمره بالغفران والتذلل (من لطمك على خـدك الأيمن فحول له الأيسر) والقوانين البشرية تخوله الاقتصاص والتعويض فبأي الاتجاهين يأخذ ؟ ان استجاب لهاتف الدين ضاعت حقوقه وكتبت الذلة عليه وان استجاب لنداء فطرته في دفع الأذى والاقتصاص حسب القانون يكون قد خـالف الدين وهكذا يقع هذا الانسان فريسة للتمزع !!!

هذا التبرير وان أصاب به ماركس بالنسبة للدين المسيحي المنفصل عن الحياة العامة ، إلا أنه لا يصدق إزاء الاسـلام العظيم .. فالاسلام قد حاول دون وجود التمزع أصلاً بانبثاق نظام كامل للحياة عن تصـوره السليم . وبالنسبة للمثل المضروب فالآية التالية ترينا كيف عالج الاسلام هـذا الإشكال ببساطة وهدوء (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلهـا فمن عفـا وأصلح فأجرُه على الله) [1] . فمن أراد مبـادلة السيئة بأخرى فهاكه نظـام

(١) الآية (٤٠) من سورة الشورى .

يضمن الحقوق ويكفل التنفيذ [1] . ومن أراد الصفح والعفو فهذا شأنه وله ذلك ، ما لم يمس النظام العام .

النظام وليد الفكرة :

فالنظام ينبع من فكرة الأمة من مبادئها في الكون والحياة .. فكما انه لا يمكن تطبيق نظام الحكم الشيوعي مثلاً في أمريكا أو نظام الحكم الأميركي في روسيا .. كذلك يستحيل ـ دون تصادم ودون صراع وألم ـ تطبيق أي نظام في أرض لا تمده بأسباب الحياة .. لا يمكن مثلاً أن نقول بنظام ديمقراطي غربي أو شرقي أو نظام اقتصادي شيوعي أو رأسمالي، وان ننادي بالوقت نفسه بالتمسك بالقيم الدينية الاسلامية .. فهذا تناقض فاضح مرفوض شكلاً وموضوعاً كرفضنا تطبيق الرأسمالية في روسيا والشيوعية في اميركا .

الأنظمة تنبع من الفكرة .. فهي التي توجد الأنظمة وتنسقها وتفرضها . وليس العكس بصحيح بمعنى أن النظام لا يخلق الفكرة ، النظام يحافظ على الفكرة ، يدافع عنها ، لكنه لا يوجدها

* * *

(١) ذكر الدكتور سعيد رمضان في مقال له في مجلة المسلمون ـ المجلد الخامس ـ العدد السادس سنة ٩٥٦ صفحة ٥٢٩ أنه لما كان في اميركا حدثه استاذ كبير في علم الاجتماع بعد محاضرة ألقاها هناك وتحدث فيها عن العدالة الاجتماعية في الاسلام فقال له : « اذا صح ان الذي ذكرته الليلة موجود في الاسلام فانك تكون قد ساهمت اسهاماً كبيراً في معالجة عقدة عميقة في نفسي » قلت له : كيف ! فقال : « ان الذي وصلت اليه بعد كل دراساتي في الاجتماع جعلني أؤمن ان الجنس البشري ضعيف لا يؤتمن على نفسه محدود تجعله حدوده يتعثر ويتغير ويهدم ما بناه ، ومقتضى العدالة الالهية اذا كان لهذا الكون اله ان يتدخل ليضع للذين خلقهم حدوداً تهديهم أمام شهواتهم العارمة وجهلهم المركب وقد أصبحت أعتقد أن هذا التدخل ضرورة يفرضها العدل والرحمة بهذا الانسان الضعيف !» فلما أطلعته في لقاء آخر على ترجمات لبعض آيات قرآنية وأحاديث فغر فاه في دهشة بالغة وأحسست بزلزال عجيب في نفسه فتأمل !!!

الانسان مشكلة الحضارة الكبرى :

ان عناصر « الحضارة كما يقول الاستاذ مالك بن نبي [1] أو مشكلتها تنحل الى ثلاث مشكلات أولية : مشكلة الانسان ، ومشكلة التراب ومشكلة الوقت ، فلكي تقوم حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وانما بأن تحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها .

ولا ريب ان الانسان العنصرُ الأهم، إذ هو الذي يستطيع توجيه الوقت وتوجيه التراب أو هو الذي يملك الاستفادة من الكون في زمن محدود أو حد معلوم .

فمشكلة الانسان هي المشكلة الكبرى في الحضارة فاذا أدركنا توجيهه نكون قد وجهنا كل شيء وجهنا الوقت والتراب وبالتالي صنعنا الحضارة .

ولقد تحدثنا في الفصل السابق عن جوانب من المشكلة الانسانية .. وهنا في هذاالفصل . وانسجاماً مع مضمونه العام لا بد من تبسيط جوانب أخرى من المشكلة .

الانسان ـ على الزمن ـ واحد لم يتغير فهو بحاجة الى تصور ثابت :

الانسان منذ وجوده الأول وحتى نهايته واحد ذو خصائص واحدة ومقومات واحدة . فلا يختلف أي انسان عن أي انسان آخر في أي زمان ومكان .. الانسان هو الانسان ، سواء كان أبيض أو أسود وسواء كان هنا أو هناك وسواء كان في لحظة الوجود الأولى أو في القرن العشرين .. هو الانسان بالحس والشعور ، بالطبائع والروح ، بالأشواق والضرورات بالآمال والآلام ولا عبرة بعد ذلك ولا قيمة لشكل الثياب أو المسكن أو المركب فلو أن هذا الكائن سكن الخيمة أو القصر ، البادية أو المدينة ،

(٢) كتاب شروط النهضة ومشكلات الحضارة صفحة ٤٨ ـ ٤٩

البحر أو الجبل أو لبس من ألوان الثياب ما لبس أو ركب – كدابة له – جملاً أو قطاراً أو طائرة أو أي شيء آخر فإنه سيبقى انساناً بخصائصه وأعماقه . فقيمة الانسان في جوهره لا في مظهره ومهما كان للمظهر ، من أشكال الحياة من أثر فانها لا تتجاوز دائرة ضيقة تبقى بعدها الخصائص الانسانية ثابتة لا تتغير .

واذا استقرأنا التاريخ [1] ودرسنا الانسان في كل عصر من العصور لوجدناه كما ذكرنا ثابتاً في الخصائص والمقومات .

ان هذا الثبات في الكينونة البشرية للانسان بحاجة الى ثبات في المنهج أو الى حضارة تضرب بجذورها الى معطيات ثابتة الى تصور ثابت لا يعرف الجمود أو كما قيل تصور له حركة ضمن إطار ومحور ثابت» .

ان الاسلام وحده من بين جميع الأفكار القديمة والحديثة يملك معطيات البناء الحضاري في هذا الوجود ، فهو قد منح المؤمنين به فكرة كلية عن الكون والانسان والحياة متسقة دون تصادم ، عميقة دون تعقد ، واضحة دون أي لبس أو غشاوة . وهكذا غدت معالم الحياة الذات الانسانية والكون العجيب مكشوفة جلية .

ولم يكتف الاسلام بهذا الوضوح الأيدلوجي .. فأمد انسان هذه الحياة ، بأنظمة تكفلت ثبات تصوره من جهة وتجسيد فكره العالي بواقع حياتي سليم ، ومن أجل ذلك كانت الأنظمة الاسلامية في كل ما دق من الحياة وما عظم ..

انظمة الاسلام صدرت عن معرفة أصيلة بالانسان فهي ثابتة متطورة :

ان أنظمة الاسلام الحياتية شاملة لكافة نشاطات الانسان .. فيكاد لا يوجد أو الأصح لا يوجد مرفق من المرافق الحياتية إلا وللإسلام فيه رأي

(1) قصص الأنبياء مع أقوامهم أصدق تفسير في هذا الصدد .

وتوجيه أو ضبط وتنظيم ، فمن الغرائز الانسانية الى الأسرة الى المجتمع الى الدولة الى الحكم ، والاقتصاد ، والقضاء ، الى الحرب والسلم ، الى كل شيء .
(ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) .

وهذه الانظمة وضعت بناء لمعرفة أصيلة بحاجات الإنسان وامكانية تطور هذه الحاجات عبر الزمن . فهي لم تهمل عنصر المرونة في خصائصها ومقوماتها بل جعلتها قاعدة انطلقت منها فوافقت بذلك « حاجة التكيف » وفق مقتضيات الزمن .

إلا ان هذا لا يعني ان أنظمة الاسلام متطورة فتتكيف مع الواقع أياً كان دونما اعتبار لأصل ثابت فيها . إذ ان هذا يعني ان الواقع يفرض ذاته على الاسلام فيطوره . وهذا ما لا يقبله الاسلام بل نرى الاسلام يعمل بكل ما فيه من تصور ونظام لتطوير الواقع حسب منهجه وأبعاده .

ان الانسان ، كما ذكرنا ، ثابت من حيث الجوهر ثابت في الكينونة . في الخصائص والمقومات . فالذي يتطور ، فيه وفي حياته ، الأشكال ، الصور ، المظهر ، أي جزئيات في التركيب العام ، ومن هنا فهو بحاجة – كما أسلفنا – الى منهج ثابت في الخصائص والمقومات لكنه مرن ، يتطور مع الشكل يتحرك في الصورة ، أما المضمون ، أما الجوهر فهو ثابت راسخ أي جامد .

ان الأنظمة الاسلامية ، بوجه عام ، جامدة ، تضمن الأسس التي لا حيدة عنها ولا خروج ولا تعديل ولا تبديل ، إلا انها أيضاً مرنة فيما تبقى في القضايا القابلة للتطور والتغيير في الأشكال المفروض فيها أن تتكيف في واقع أو ظرف معين .

وبهذا تكون الأنظمة الاسلامية – وحدها خلافاً لسائر أنظمة الأرض – قد جمعت الثبات في الأسس والمرونة في التكيف ، أي انها جاءت منسجمة

مع التركيب الانساني ، ثبات في الجوهر وتغير سلبي في المظهر وبذلك غدت ـ بلا ريب ـ أقدر النظم على حمل أعباء الحياة الانسانية .

ان الانسان ـ في أي زمان ومكان ـ يستطيع بسهولة الاعتماد على الانظمة الاسلامية الحياتية أو بعبارة أصح ان يسلم لها فتمده هذه وبصورة دائمة بأسباب النجاة وبمعطيات الاطمئنان .

والانظمة الاسلامية موحدة للتوجيه والتشريع :

وليس من قبيل الصدفة ، وقد ربط الاسلام أنظمته بفكرته الشاملة عن الكون والحياة والانسان وبوظيفة هذا الانسان في الوجود ، أن يأتي القرآن بقواعد التشريع وبمبادىء أنظمة الحكم والاقتصاد والاجتماع في طيات آيات التوجيه وكأن ذلك اشارة ربانية خالدة الى ضرورة إحكام الصلة بين التوجيه والتشريع . ولعل آية الشورى خير مثل في هذا الصدد ، فالآية تقول : (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون)[1] فقاعدة الحكم الأساسية ، نظام الشورى كله ، قد جاء بوضوح تام ، مرتبطاً بالتوجيه ، أو ان التوجيه قد جاء متلاحماً مع التشريع الشوري .

ان هذا المعنى الدقيق ليؤكد حقيقة طالما غفل عنها الناس وهي الوحدة العميقة بين التوجيه والتشريع وعدم الفصام بينهما ، ومما لا شك فيه ان الفصام النكد الذي جرى بين هذين المعلمين الكبيرين في دنيا الناس كان نتيجة لظروف سيئة مرت بها الانسانية المعذبة ولا تزال .

ان تلاحم الانظمة بالفكرة المطلقة عن الكون والانسان والحياة يوجد

(١) الآيات (٣٨ - ٣٩) من سورة الشورى .

الانسجام المطلق بين الانسان والحياة ويدفع هذا الانسان ، بقوة وعمق وبصيرة ، للقيام بدوره الخلاق المبدع في خلافة الله . عند ذلك يكون التفجير الحضاري تعبيراً عن عمق الارتباط بين الانسان والحياة . ويتعاظم هذا الارتباط ويشتد كلما أدرك الانسان مبتغاه حيث السعادة والاطمئنان .

الحضارة وحي هابط :

وهنا نستطيع أن نقرر باطمئنان ان (الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجاً أو هي ـ على الأقل ـ تقوم اسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي فكأنما قدر للانسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره الى ما وراء حياته الأرضية ، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها)[1].

والاسلام هو الحضارة والشرود عنه تخلف :

ونستطيع أن نقرر بوضوح أكثر ان (الاسلام هو الحضارة) لأن الاسلام وحده استطاع أن يعرف الانسان بحقيقته وأن يمنحه بعد ذلك كافة أسباب التقدم ، وان يربط هذا التصور بأنظمة تكفل الاستمرار بخط تصاعدي بناء. « من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والاتجاهات والضمانات الاسلامية هي اللائقة بالانسان ، ويكون الاسلام هو الحضارة ويكون المجتمع الاسلامي هو المجتمع المتحضر »[2] .

ونقرر أيضاً ، بصورة عكسية ، ان الحضارات عبر الزمن ، التي لم تتخذ من التصور الايماني تصوراً لها في كل شؤون حياتها والتي لم تتعرف على

(١) مالك بن نبي ـ كتاب شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ٥٥ - ٥٧ .

(٢) سيد قطب ـ معالم في الطريق ص ١٥٣ .

حاكمية الله في كل امور دنياها والتي لم تربط انتاجها المادي العلمي بفكرة الخلافة في الأرض ولم تضبط هذا الربط بأنظمة تنبثق عن الوحي الهابط كما يسميه مالك بن نبي فانها لا تستحق لفظ حضارة ولن تكون مجتمعاتها – مهما بلغت من تكديس أو ابداع الانتاج المادي – مجتمعات متحضرة بل هي بمؤسساتها ودولها متخلفة عن الوعي والتقدم الصحيحين .

شهادة من عاش الشرود عن منهج الله قديماً وحديثاً :

ان الانسانية متى شردت عن منهج الله وشرعه لن تكون بأي حال متحضرة لأنها في أعماقها شقية بائسة قلقة تتخبط ولا تهتدي الى السبيل . يقول « ول ويورانت » الكاتب الاميركي في كتابه مباهج الفلسفة[1] :

« وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطرة ، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأرض ، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الايمان الديني وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا . ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب اننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بآل سقراط ، نعني : كيف نهتدي الى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلمية التي بطل أثرها في سلوك الناس ؟ اننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة وبهذا الجنون الثوري من جهة أخرى حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات ، اننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقي بأنفسنا في هذا الانتحار الاجتماعي للحرب . وعندنا مئة ألف سياسي ، وليس عندنا « رجل حكم » واحد ، اننا نطوف حول الارض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف أين نذهب ولم نفكر في ذلك أو هل نجد هناك

(١) كتاب مباهج الفلسفة ترجمة مؤسسة فرانكلين الجزء الأول صفحة ٦ – ٧ .

السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة ، اننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة ولن ننجو منها بغير الحكمة » .

هذه شهادة من « غربي » يعيش وطأة الشرود عن منهج الله ، ويرسم لنا بصدق حال الحضارة الغربية السائدة في الارض ويرينا القلق والحيرة لفقدان التصور السليم ولانعدام الربط بين الفكرة وبين النظام ، (ليس عندنا رجل حكم واحد) وان الانسانية – الشاردة عن الحضارة الحقة – تقذف بنفسها الى الانتحار !

وليس ببعيد عن هذا المعنى ما تكشفه لنا قصيدة في نهاية العهد البابلي فترينا أيضاً تخبط الانسانية – في ذلك الزمن – عندما فقدت مقومات الحياة وشردت عن منهج الله .

ومن خلال القصيدة نرى الشاعر يرسم لنا صورة عن الضياع والتشتت أو البؤس والقلق ، فهو يبتغي السعادة إلا انه لا يجدها في المرأة ، ولا في الثراء ، ولا في التعبد لإله عاجز ناقص ، ولا في الاستبداد ؛ فاذا ما تضخم عنده الضياع وجد سبيلا لحسم الحياة : القتل والانتحار[1] .

(١) الألف الثاني قبل الميلاد – وهذه القصيدة نقلناها من كتاب الانسان والحضارة تأليف يوسف الحوراني ، وقد أثبتها مجزءة في الصفحات ٢٣٧ – ٢٣٨ – ٢٤٠ – ٢٤٢ بعد ان قدم لها بقوله : (ولعل أصدق من عبر بعمق عن هذه الحالة ، حالة الضياع والقلق الانسانيين ، كان كاتباً بابلياً مجهولاً نقلت الينا نصوصه ألواح الطين . التي تعود الى فترة النزع البابلي قبل ان تتسلم الحضارة الأصيلة أيدي الآشوريين القساة ، هو حوار بين عبد وسيده ، ينطبق على حالة كل مجتمع بلغ شيخوخته ، وهو حالة أثرياء المدنية الغربية في يومنا هذا) وقد أشار الاستاذ حوراني انه نقل القصيدة من كتاب (ما قبل الفلسفة) الذى بدوره نقلها عن (لاتفدن) أو « الحكمة البابلية » وهذه هي : =

= قال السيد لعبده :

وافق معي أيها العبد :

نعم يا سيدي نعم « أجاب العبد »

السيد : سأحب امرأة

العبد : أحب يا سيدي أحب « فالرجل الذي يحب امرأة ينسى العوز والبؤس »

السيد : لا أيها العبد سوف لا أحب امرأة

العبد : لا تحب يا سيدي لا تحب فالمرأة مصيدة وفخ وشبكة ، المرأة سيف حديدي حاد ، مسلط ، معد لقطع رقبة الشباب.

وافق معي أيها العبد وافق :

العبد : نعم يا سيدي نعم

السيد : احضر لي حالاً ماء ليدي ، احضره الى هنا فسأقدم فريضة لالهي .

العبد : قدم يا سيدي قدم ، فالرجل الذي يقــدم قريضة لالهه يطمئن قلبه ويزيد ذخراً على ذخر .

السيد : لا أيها العبد سوف لا أقدم فريضة لالهي

العبد : لا تقدم يا سيدي لا تقدم، عود الاله أن يجري خلفك كالكلب ولما يسأل أين خدمتي ؟ أجبه انك لم تطلب ، وافعل شيئاً آخر

وافق معي أيها العبد وافق

العبد : نعم يا سيدي نعم

السيد : سأقدم هبات للمزارعين في ارضي

العبد : افعل ذلك يا سيدي افعل ، فالرجل الذي يقدم هبات لمزارعيه تكون هباته وكأنها وضعت في كف الاله مردوخ نفسه

السيد : لا أيها العبد ، سوف لا أعطي هبات لمزارعي

العبد : لا تعط يا سيدي فاصعد فوق خرائب المدن القديمة وتجول حولهـــا تأمل في جماجم المتقدمين والمتأخرين فمن هو صانع الخير منهم ؟ ومن هو صانع الشر ؟

وافق معي ايها العبد :

العبد : نعم يا سيدي نعم

السيد : والآن ما هو الصالح ؟ ان أدق عنقك وأدق عنقي بعدك وتسقط في النهر ، ذاك هو الصالح

العبد : من تراه طال حتى وصل السماء ، ومن بلغت ضخامته حتى يحتضن الأرض

السيد : لا أيها العبد ، سأقتلك أنت فقط واجعلك تسبقني

العبد : وهل يريد سيدي أن يعيش لثلاثة أيام بعدي ؟

هذه هي قصة الحضارات الزائفة وهى قصة واحدة لا تختلف فصولهـا ولا أحداثها لأن الانسان فيها انسان واحد على الزمن ، فقد المنهج فارتكس في ضياع قتال . وبالحقيقة هي قصة تخلف واحد لأنها حجبت انسان الحياة عن أي نور يتطلع به الى خالقه ونفسة وكونه والهته باندفاع جنوني مخيف نحو عربدة علمية يُضيعُ فيها ذاته .

إلا اننا في نهايـة هذا الفصل نحب أن نؤكد حقيقة ـ أسلفناها سابقاً ـ ان هذا الانهيار الآلي سيعقبه اعتراف بالموهبات الانسانية كما يقول جورجيو : (لأن الناس لا يستطيعون ان يتبعوا الحضارة العصريـة في مجراها الحالي ، لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط ، لقد فتنهم جمـال علوم الجماد انهم لم يدركوا ان احساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية ـ وهي قوانين أكثر غموضاً وان كانت تتساوى في الصلابة مـع القوانين الدينية ـ كذلك فهم لم يدركوا انهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هـــذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم . ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوي ولأترابهم أبناء آدم ولذاتهم الداخلية ، وتلك التي تتصل بأنسجتهم وعقولهم . فان الانسان يعلو كل شيء في الدنيا فاذا انحط وتدهور فان جمـال الحضارة بل حتى عظمة الدنيا المادية لم تلبث أن تزول وتتلاشى)[١] .

ان طريق الانقاذ ، طريق واحد واضح جلي أعني : ربط الانتاج المادي بتصور سليم متين عن الكون والانسان والحياة ، وضبط هذا الربط بأنظمة مستمدة من مصدر هذا التصور وجعل هـــذه الأنظمة بيد (رجال حكم) لا هواة سياسة . أو بمعنى آخر إقامـــة حكم الإسلام من جديد أي العودة الصحيحة الى طريق الله .

---

(١) الكسيس كاريل ص ١٠ - ١١ .

الفصل الثالث

مفهوم الدولة في الإسلام

ان غاية الانظمة الاسلامية كما ذكرنا « ضبط الارتباط » بالله سبحـــانه بحيث تغدو الحياة بكل صورها ومعالمها ومؤسساتهـــا ، منصبغة بالصبغة الربانية (ومن أحسن من الله صبغة) سالكة أهـدى السبل (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) ومحققة في الوجود أعظم أمة (كنتم خير أمة أخرجت للناس) .

انبثقت الدولة من ضمير الشرع

لضبط تصرفـات الناس في الاتجاه الذي ارتضوه لأنفسهم :

ومن هذه الغاية الكبرى للأنظمة ، ينبثق مفهوم الاسلام للدولة ، فهي ليست أداة للقهر والاكراه ، وليست وسيلة لتحقيق نفود طبقة على أخرى ، كما أنها لا تخضع للعوامل والمؤثرات المادية : من أدوات انتاج الى انتاج ومن ارادة فرد أو أفراد ، انما هي لضبط تصرفات الناس في الاتجـاه الذي ارتضوه لأنفسهم فهم قد ارتضوا الاسلام ديناً وشرعة ومنهاجاً فلا بد نتيجة لذلك من ضابط يشرف على هذا الرضى ، ويسعى جـــاهداً لتنفيذ عقده ، بكل دقة واخلاص . وذلك الضابط هو الدولة ، فالدولة إذن اداة لتجسيد رغبات الناس المؤمنين ، كل الناس ، ووسيلة لزيادة النمو والتقدم في مختلف جوانب حياتهم .

ولا بد من الاشارة [١] هنا الى أن هذا الضابط أي الدولة وهـو في طريقه لتجسيد الرغبات لا يهتم من حيث المبـدأ بارادات فردية أو حتى جماعية ان خالفت المصدر الذي أوجده .. فهو أي الضـابط ، غير مدين في وجوده الى طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات أو عصبية من العصبيات أو الى انتاج ووسائل انتاج ! فهو قد انبثق من صميم هذا الشرع الذي آمن به : المصلي في محرابه والزوج في بيته ، والفرد في مجتمعه .. وليس لأحـد من هؤلاء فضل يد في إيجاد هذا الضابط بل قد جاء هو متفضلاً عليهم في ضبط تصرفاتهم وتنمية قدراتهم والسير بها الى الله . ومن هنا ليس لأي كان ، أي حق تجاه الدولة ، يراه لنفسه ، إلا ما أوجبه الشرع وما أقره وليس للدولة أية سلطة أو أي حق، تجاه الأفراد، ومن هنا ليس بين الفرد وبين الدولة عقد مباشر كما ذهب اليهروسو وكثير من المفكرين إنما العقد بين الفرد وبين الله .. فالانسان، بدخوله في الاسلام وبإيمانه بعقيدة لا اله إلا الله، وقد ارتبط بعقد له شروط وموجبات ومواصفات .. وله أيضاً بدل تكفل الله به في الدنيا وفي الآخرة ، فمن شروط العقد وموجباته أن يأتي الله مؤمناً من أعماقه معترفاً بالوهيته وحاكميته خاضعاً لكل أمر أو نهي يصدر عنه ، وبدلُ هذا العقـد الذي تعهد به الله سبحانه ، فمن هنا ليس بـين الفرد أن يمنح هـذا الانسان المستسلم لمشيئته، منهج حياة يضيء له الطريق في الدنيا ويوصله بطمئنينة وهناء الى الآخرة .

ليس بين الفرد والدولة عقد مبـاشر
انمـا العقد بين الله والفرد والدولة شخص ثالث :

وقد تم هذا التعاقد فعلاً بين الله والانسان في فترات من التاريخ، ثم جدد بقوة وحزم في عهد النبوة الأخيرة فتجلى اعطـاء الله سبحانه واضحاً بهياً

(١) ونرجىء التفصيل الى القسم الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله .

ناصعاً في شريعة الاسلام ، تصوراً للانسان والكون والحياة، ومنهجاً سليماً في الواقع والسلوك ..

وجاء أمر الله موجباً ، وجود ضابط للاشراف على هذا العقد ، للمساعدة على تنفيذه ، ولتنميته على الزمن ، فكانت الدولة .

فالدولة إذن ، شخص ثالث يختلف عن الله تبارك وتعالى وعن الانسان، وليس بينها وبين الانسان أي عقد مباشر .

من أجل هذا قلنا ليس للدولة أو للأفراد أن يطالبوا بحقوق لم يوجبهـا الشرع .

وبناء على هذا الوصف نقول ليس للفرد الذي دخـل الاسلام أو داره أن يرفض ولاية أو سلطة الدولة وليس له أيضاً أن ينفصل عنها ويقبل بسلطة أخرى . وليس للدولة أيضاً أن تسقط رعايتها أو ضبطهـا لفرد من الأفراد أو تتخـلى عن موجباتها إزاءهم طالمـا أن هؤلاء متمسكون بعقودهم وهي قائمة على شرعة الله.

الدولة في اوروبا :

ان فكرة العقد المتبادل بين الفرد والدولة أو بين الشعب والدولة فكرة قد نشأت في أوروبا في ظروف وملابسات معينة وهي على هذا الأساس لم يعرفها الاسلام ، ولا يقرها على كل حال . (وسنعرض لهذا الأمر تفصيلاً في القسم الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله).

فمن مقتضيات فكرة التعاقد المباشر (ومنها المذاهب السياسية في الحكم وخاصة الديمقراطية) ان تساير الدولة إرادة هذا الشعب وإرادة أغلبيته فهي مدينة بوجودها لهم ، وهم قد تعاقدوا معها لتسيير شؤون حياتهم وفق مـا

يملون عليها ، لذلك فليس لها الحق أن ترفض ما يريدون أو يريد أغلبيتهم أو ما يريد البعض الذي يُسَيِّر الآخرين .

ان هذه المسايرة كما نرى في مجتمعات الدنيــا تخلق جــواً من النفعية والأنانية وربما الاستبداد وتُخضِــعُ أداة الضبط الى فئة من المستغلين النفعيين مما يجعل هذه الاداة ، كما يزعم الكثير أداة للقهــر والاكراه ، الأمر الذي يفسح المجال للماركسية اللينينية، ان تقول ان الدولة مظهر من مظاهر تنازع الطبقات ووجودها دليل على وجود الطبقات المتصــارعة .

الدولة في الاسلام تخضع للشرع لا للشعب :

ان المفهوم الاسلامي للدولة يحررهــا من الخضوع لإرادات البشر فهي لم تنبثق عنهم ولا بوحيهم، وبالتالي لا تسير على أهوائهم ومنوالهم، ووفق كثرتهم او إجماعهم وإنما تخضع الدولة بكل مفاهيمها وقيمها ونظراتها الى المنهج الذي أوجدها والشرعة التي ختمتها .

وعندما يتأصــل هذا الفهم في نفوس النــاس من أن الدولة ليست من عندهم إنما هي من عند الله تنتهي عندهم قصة الأكثرية والأقلية ، ويشعرون من أعماقهم بقيمة هذا الضابط في تصريف شؤونهم والسير بهــم نحو الله ، ويدركون بكينونتهم ، وبكل ما فيهم ، ضرورة تذليل كل صعب أمامه ، والمحافظة على وجوده . فهو لهم وليس عليهم ، معهم وليس ضدهم ، يعمــل لمصلحتهم ويعينهم لتنفيذ العقد مع الله ولا يصال البدل من الله .

وهكذا تحتل الدولة دور الوسيط بين الله والناس .. ومن أجــل هذا كانت الدولة لله وللناس . فالله سبحانه لا يعطي البدل إلا عــبر الدولة . والناس لا يستطيعون تنفيذ العقد إلا من خلال الدولة . ومن هنا تغدو الدولة في الاسلام ضرورة كبرى وحتمية لا مفر منها ولا تستقيم الحياة بدونها .

* * *

وفي سبيل القيام بهذا الدور الخطير تملك الدولة من الأنظمة والشرائع ما يحقق لها غرضها بكل بساطة ويسر .. ولعل أهم ما تملكه في هذا الصدد ، التصور السليم عند الناس : تصورهم عن الانسان والكون والحياة وتصورهم عنها وعن غايتها وعن دورها في الوجود ، وبوحي هذا التصور تلمس الدولة عند الناس إيجابية في الطاعة والانضبــاط ، فتسوسهم بسياسة الله وتحقق فيهم وبهم الخلافة في الأرض بكل معناها ومبناها .

سلطة الدولة تنقذ المنحرفين :

ان شعور المسلمين نحو الدولة ، بأنظمتها وتشاريعها ، شعور بناء مهيب منتج . فليست الأنظمة للاستبداد والطغيان وليست لظــلم طبقة لحساب أخرى وإنما هي وسائل الضبط التي يملكهــا الضابط بإذن الله . فالسوط الذي ترفعه الدولة أزاء المنحرف عن منهج الله مجرماً كان أو عــاصياً أو محتكراً هو البلسم الشافي . يتقبله المنحرفون بضمير مبكت مؤنب . وأكثر من ذلك فان هذا السوط ، ليغدو عند هؤلاء الذين سقطوا في لحظــة من لحظــات الضعف البشري أحب إليهم من التستر والنجاة والحياة ، فتراهم يسرعون يعلنون عن انحرافهم طالبين إنزال العقوبة بهم ملتمسين بذلك سبيل العودة الى المنهج الذي فرطوا فيه !

اننا لا نملك ازاء الحوادث العــديدة [١] التي وقعت في صدر الاسلام إلا تفسيراً واحداً هو سلامة وعمق التصور عند هذه الطليعة المباركة ، التصور لكل مجالات الوجود : للانسان والكون والحياة، وللدولة والنظام ، وللحاكم والعقــاب ..

---

(١) عن بريدة رضي الله عنه قال : جاء ماعز بن مالك الى النبي صلي الله عليه وسلم فقال ؛ يا رسول الله طهرني ، فقال ؛ ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه . قال فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني فقال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك. حتى اذا كانت الرابعة قال=

ومما هو جدير بالاعتبار ان هذه الوثبة لم تكن من صنع السياسيين ولا العلماء الفطاحل بل كانت بين أناس يتسمون بالبساطة ورجال لا يزالون في بداوتهم ، غير أن أنظارهم توجهت في تلك اللحظات الى ما وراء أفق الأرض فتجلت لهم آيات في أنفسهم وتراءت لهم أنوارها في الآفاق .

نعم انه لمن الغريب ان يتحول هؤلاء البسطاء ذوو الحياة الراكدة عندما مستهم شرارة الروح الى دعاة اسلاميين تتمثل فيهم خلافة الحضارة الجديدة

= رسول الله: مم أطهرك ؟ قال: من الزنا . فسأل رسول الله: ابه جنون فأخبر بأنه ليس بمجنون فقال : أشرب خمراً ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر ، فقال : أزنيت ؟ قال نعم فأمر به فرجم .. ثم جاءته امرأة حامل من الأزد فقالت : يا رسول الله طهرني . فقال : ويحك ! ارجعي فاستغفري الله وتوبي اليه فقالت: أتريد ان تردني كما رددت ماعز بن مالك انها حبلى من الزنا . فقال : انت ؟ قالت نعم قال لها : حتى تضعي ما في بطنك، وفي رواية أخرى فقال لها : اذهبي حتى تلدي . فلما ولدت قال اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه فلما فطمته اتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجموها ..) مسلم والنسائي. وقصة الثلاثة الذين خلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ولم يخرجوا معه الى الجهاد بل بقوا في المدينة عن قصد وعمد تنبئنا بالمعنى الدقيق الذي أشرنا اليه ونراه بوضوح في حديث كعب ابن مالك ، أحد المخلفين من رواية الامام احمد إذ قال : (فلما بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضر بثي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل لي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه .. فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهراً ؟ فقلت يا رسول الله اني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت ان أخرج من سخطه بعذر . لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله ان يسخطك علي ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه اني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط افرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.) . ويبدأ العقاب بنهي المسلمين عن محادثة ومكالمة الثلاثه المتخلفين مما اضطرهم الى الاعتزال ثم أمر الثلاثة بأن يجتنبوا زواجاتهم ويستمر ذلك خمسين يوماً فتأمل ..

وان يندفعوا بروحها وثبة واحدة الى تلك القمة الخلقية الرفيعة ثم ما لبثت ان انتشرت في حياة فكرية واسعة متجددة[١] ..

* * *

اقليم وشعب الدولة !!

ولا بد أن تتجسد الدولة في اقليم معين ، ومجموعة من البشر .. إلا أن هذا لا يفرض علينا نوعاً من الأرض وصنفاً من البشر ذلك ان الاسلام في نظرته الكلية ، يسقط من حيث المبدأ[٢] اعتبارات درج الناس عليها في دراستهم لنشوء الدولة وعناصرها .. فليس من شرط الاسلام في الدولة ان تكون في اقليم بذاته فقد تكون هنا أو هناك في بلدنا أو في بلد سوانا، في أرض العرب أو أرض العجم، فالأرض أرض واحدة، هي لله يورثها عباده الذين اصطفى.

وحيثما ذكر اسم الله في بلد   عددت أرجاءه من لب أوطاني

وما يقال عن الأرض يقال أيضاً عن الناس .. فليس شرطاً أن يكونوا من جنس واحد فكلهم بشر ، ويمكن أن يتعايشوا فيما بينهم ، في ظل العقيدة والنظام ، وضمن التصور والانضباط ، فلا فضل لجنس على آخر إلا بانصهاره في بوتقة الاسلام ، فالعربي مسلم ، والعجمي مسلم .. وكلهم عند الله سواء ..

إذن ، فالاعتبارات المادية في بناء الدولة ليس لها قيمة بذاتها إذ يمكن تجاوزها الى سواها .. أو هي بالأحرى اعتبارات شكلية يسهل معها التغيير والتبديل بل ربما الاسقاط الكلي أو الجزئي ..

(١) مالك بن نبي شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ٥٧ — ٥٨

(٢) تفصيل ذلك والتعليق عليه في فصل الوحدة من القسم الثاني من هذا الكتاب .

ان العقيدة هي المحور الاساسي في دولة الاسلام هي العنصر الأهم أو هي الأصل .. وما دونها ثانوي يذوي أمام تماسك الفكرة وإصالتها في أعماق أهل هذه الدولة .

من أجل هذا قسم الفقهاء العالم الى دارين لا ثالث لهما دار الاسلام ودار الجاهلية [١] ففي الأولى تظهر شريعة الاسلام خفاقة عالية وفي الثانية يبرز الانحراف والبعد عن منهج الله في الحياة ... [٢]

* * *

عقوبة الانحراف تعطيل لدور الدولة في تجسيد عطاء الله :

ولله في كلا الدارين سنة لا تتخلف ولن تجد لها تبديلاً ... فقد وعد الذين آمنوا بالنصر والتمكين في الأرض والبقاء والامتداد ما داموا على المنهج الذي رسم لهم ... (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)[٣] .

اما إذا انحرفوا فتجري عليهم سنة القرى (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً) [٤] .

ان عقوبة الانحراف عن منهج الله عقوبة كبرى ، قد تتجاوز عقوبة أولئك الذين لم يتفيأوا ظلال العقيدة الكبرى ... فالذين عرفوا ثم كفروا ، الذين استضاءت قلوبهم بالنور ثم أظلموها بالطاغوت ، هؤلاء شر مكاناً وأظلم

---

(١) الأصل دار الاسلام ودار الحرب ونفضل استخدام الجاهلية بدل الحرب فهي أعمق في الدلالة .

(٢) انظر تفصيل هذا البحث في القسم الثاني من هذا الكتاب الذي سيصدر بعد هذا القسم ان شاء الله .

(٣) الآية (٤٠) من سورة الحج .

(٤) الآية (٥٩) من الاسراء .

الناس دون جدال فهم قد نكثوا العهد الذي قطعوه لله... ونكلوا عن العقد الذي أبرموه مع الله وعطلوا في أنفسهم ووجودهم ودنياهم خلافة الله ... فليس عجيباً بعد ذلك ان تتعطل دور الدولة في الوساطة وتتوقف حركتها عن العطاء مما وعد الله ...

وكلما أمعن الناس في انحرافهم عن المنهج كلما تلاشى دور الدولة في العطاء حتى يجدب الناس ولعل هذا أبلغ عقاب من الله لهذه الأمة ... فكأن الثواب والعقاب في طرفي خط يسير متوازياً أبداً مع منهج الله ... فإذا ما تمثل الاسلام في واقع الحياة عقيدة وسلوكاً وتشريعاً أدرك الناس الثواب في نهاية الخط المتعالي وإذا ما تخلوا عن شريعة الله هبطوا هبوطاً بشعاً فأصابهم العقاب : الطرف الثاني من الخط الأبدي ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ليس الانحراف أو الهرم جزءاً من حياة الدولة:

وليس الانحراف والضعف أو الهرم حتماً مقضياً في الأمة ، أو جزءاً لا يتجزأ من حياتها كما ذهب الى ذلك كثير من المفكرين ومنهم ابن خلدون (في العصر الطبيعي للدولة) ومالك بن نبي (في الدورة الخالدة) والماركسية اللينينية في (تنازع الطبقات) .

فابن خلدون جعل للدولة عمراً طبيعياً كعمر الأفراد وحدده بثلاثة أجيال تقارب المائة والعشرين ولها أطوار خمسة تتدرج من القوة الى الضعف فالقنوع والتبذير فالذبول [١] .

وأما مالك بن نبي فقد كتب تحت عنوان (الدورة الخالدة) مردداً مع

---

(١) واجع مقدمة معركة ابن خلدون ص ١٤٦ الفصل السابع عشر (أطوار الدولة) .

نتشه قوله (انه من السنن الأزلية أن يعيد التاريخ نفسه كما تعيد الشمس دورتها من نقطة الانقلاب). كتب يقول[1] :

«من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دوراً وتسلسلا فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة ومفاخر كريمة وهو تارة أخرى يلقي عليها دثارها ليسلمها الى نومها العميق» ثم يضرب المثل على ذلك بالحضارة الاسلامية التي بدأت من غار حراء بومضة روحية هائلة ثم توسعت وانتشرت فوق سطح الأرض مستفيدة من جاذبية الروح و « العقل » ، حتى اذا ما تخلت عنها وجدناها تخلد الى الارض مغلبة جاذبية الارض عليها [2] .

أما الماركسية اللينينية فقد ذهبت في تفسيرها الاقتصادي الى قريب من هذه المعاني ، من وجهة نظرها ، فكلما تقدم الانتاج وتطورت أدواته تعاظم الصراع الطبقي بين الطبقتين الموجودتين في عصر من العصور فتغلب الطبقة المضطهدة الطبقة الأخرى ثم تنشأ بحكم التطور وتطور أدوات الانتاج ، طبقة ثالثة تختلف عن الطبقتين الأولتين فتقاوم فتغلب وهكذا ... حتى تصل الى ديكتاتورية البروليتاريا التي هي طبقة أخيرة — في سلم الطبقات عبر الزمن — فتنتزع هذه الطبقة — الدولة — أداة القسر والاكراه، من أيدي الرأسماليين لتتركها بعد ذلك تتحطم وتزول [3] .

ان هذا التحتم المطلق في عمر طبيعي أو دورة خالدة أو تنازع الطبقات ولو ارتدى حلة تاريخية [4] ، الا أنه يظهر أمام التحليل الاسلامي للدولة عارياً من أية حجة منطقية معقولة !!

---

(١) مالك بن نبي شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ٥١ .

(٢) المرجع السابق الصفحات ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ .

(٣) راجع بحث الدولة للينين .

(٤) لا بد لنا - هنا من الاشارة الى ان التحليل الماركسي لتصارع الطبقات هو تحليل سطحي ولم ينظر الى المشكلة من جميع نواحيها الاقتصادية والسياسية والفكرية بل اقتصر على العامل الاقتصادي فقط وعلاوة على ذلك فان تاريخ الصراع هذا على افتراض صحته هو تاريخ اوروبا وليس تاريخنا ولا يصدق في قليل او كثير على بلادنا ذات التاريخ الخاص ...

الدولة في الاسلام نمو وتصاعد :

إن الدولة — في الاسلام — تنمو وتنمو أبداً ، تتصاعد في خط واحد نحو العلاء متجاوزة كل الصعاب ، كل المحن والمشكلات .. مجددة دوماً قواها بحيث لا ترى عليها امارات ضعف أو هوان .

الدولة — من حيث المبدأ — لا تعرف التلكؤ فالجمود فالتأخر .. بل هي دائماً منطلقة الى الله لتحقق في الارض الرسالة التي انتدب إليها الانسان « الخلافة الكبرى » ..

هذه الحتمية هي الأصل في بناء الدولة ومن أجل ذلك جاء الاسلام بشرائعه ونظمه.. فهو لم يأت لزمن قصير مائة سنة أو أكثر أو أقل — كما حدث فعلاً في التاريخ إنما جاء ليحكم البشرية كلها حتى تستقيم على أمر الله دائماً في كل زمان ومكان .

فاذا ما تخلى المسلمون في عصر من العصور عن وظيفتهم الكبرى في الوجود فتوقفت الدولة عن النمو والعطاء وأسلمتهم الى ضعفهم البشري فيكون هذا انحرافاً عن الأصل ويبقى انحرافاً ، ولا يمكن أن ينقلب الى أصل والى حتمية ، مهما تكرر في التاريخ ومهما تأكد على الزمن .

ان الانحراف أمر طارىء على الدولة وعلى تصاعدها ، وهو بهذا المعنى شذوذ وظلم .. فاذا ما وقع فلا بد من دفع الثمن ، مهما غلا وعظم ، فقد يكون في التلاشي والانحطاط وقد يكون في تدمير الانسانية.. فهي سنة .. وهي حتمية .. ولكن سنة انحراف وحتمية ثمن .

دعوة القرآن الى دراسة شأن الأمم الغابرة القرآن يحدد سنة لا تبديل فيها :

من أجل هذا دعا القرآن الناس للتفكر في سنن الله في الأمم والشعوب

دعاهم الى تدبير ما أصابهم وما طرأ على حياتهم كيف نشأوا وكيف تطوروا ثم كيف ظلموا وكيف دمروا ؟

« ذلك من أنباء القرى نقصّه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد »[١] .

ان هذه الدعوى القرآنية دعوة هادفة أصيلة لتلمس أسباب الانحراف ثم لاجتثاثها من الجذور كلما بدت في أفق الحياة الجديدة .. ولو أن الأولين ممن انحرفوا عن دولة الاسلام اعتبروا بسنن القرى لبقيت دولتهم خفاقة تنضح الناس بخيرات الارض والسماء .

وبيّن القرآن سنن الله في الدولة سننه في استقامتها وسننه في انحرافها ببيان معجز جلي فيقول :

« وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون. ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون. ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمِن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون. أو أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ان لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ».

« تلك القرى نقص عليك من انبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما

(١) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة هود .

كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين »[١] .

ما أروع القرآن (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) فبكل وضوح وتأكيد وحتمية (لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض) بركات في كل شيء : في أنفسهم ، في وجودهم، في دولتهم، في حضارتهم، في انتاجهم، بركات لا تنقطع .. ولا تنغلق .. بل دائماً في فيض .. وفي استمرار .. وفي عطاء .. مفتوحة على مصراعيها تعطي دون حساب وتمد الناس بأسباب الحياة .. وتطلقهم بفطرتهم في خط الحضارة التصاعدي .

شرط التصاعد عدم الانحراف :

ان الشرط الوحيد لكل تلك المعطيات الدفاقة استمرار المجتمع على نهج الله ، في إيمان سليم في أعماق القلوب، وفي تقوى أصيلة في أعماق الحياة.

الشرط هو الاستمرار وعدم الانحراف .. الامتناع عن سبل الذين ظلموا انفسهم والوجود .. فاذا ما تخلف الشرط هوت الأمة في ضريبة الحساب ووقعت في مخلب السنن (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

فالأصل ، إذن ، تصاعد الدولة بخط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا تكسر ولا انحناء وأن أي انحراف في الخط يحدث على الزمن انفراجاً هائلاً يؤدي في النهاية الى التدمير (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً)[٢].

(١) الآيات من ٩٣ الى ١٠١ من سورة الاعراف .

(٢) الآية (٥) من سورة الأسراء قال المفسرون في قوله تعالى (أمرنا مترفيها) أمرناهم بالطاعات ففسقوا !

وكأني بابن خلدون ومالك بن نبي قد لحظــا – بصورة مضطربة غير واضحة – هذه الحتمية الأصيلة لتصاعد الدولة فقد أشار الاول الى ضرورة (حمل الكافة أي كافة الناس) على شريعة الله اذا ما أردنـا ان نتجنب مساوىء الملك الطبيعي والسياسي . أن الصبغة الدينية تذهب بالتنـافس والتحاسد الذي في أصل العصبية وتقرر الوجهة الى الحق فاذا حصـل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحـدة والمطلوب منـا ومنهم وهم مستميتون عليه[1] .

أما مالك بن نبي فقد قـال تعقيباً على منحنى السقوط في الحضـارة الاسلامية وهو الخط الـذي تلاخـطَ العقل ، الخط الأفقي المتصـل بخط التصاعد الروحي « ذاك هو منحنى السقوط الذي تخلقه عوامل نفسية أحط من مستوى الروح والعقل ، وطالما أن الانسان في حالة يتقبل فيها توجيهات الروح والعقل ، المؤدية الى الحضارة ونموها ، فان هذه العوامـل النفسية تخترق بطريقة ما ، فيما وراء الشعور ، وفي الحالة التي تنكمش فيها تأثيرات الروح والعقل تنطلق غرائـز الدنيا من عقالهـا لكي تعود بالانسان الى مستوى الحياة البدائية »[2].

يجب ان ندرس الانحراف على أنه انحراف :

وهنا لا بد لي من تأكيد الحقيقة التالية :

ان دراسة حالات الانحراف في الأمم والشعوب – على أنهـا حالات حتمية أو لا يمكن ان تكون دولة دون ان تمر بأطوار معينـة أو بدورة

(١) المقدمة ١٣٢ .
(٢) شروط النهضة ص ٥٩ .

ميتة [1] !! او بتصـارع الطبقـة – دراسة مخيفة لهـا معقبات سيئة في التصـور والواقع .

ان الانحراف لا يدرس إلا بعد دراسة الاستقـامة كما ان المرض لا يعرف إلا بعد معرفة الصحة .. وكل منهج غير هذا منهج منحرف يعـالج الانحراف بالانحراف .. والانحراف لن يكون في كل حال إلا انحرافاً ..

علينا ألا نستحضر « الواقع ، المنحرف لنستمد منه التصور والسنن .. إذ أن هذا الاستحضار يُرَسِّب في أعماقنا فساداً في التصور يوردنا موارد التهلكة ويجعلنا نخبط في التيه بلا دليل على حـد تعبير سيد قطب إنما علينا ان نواجـه « الحقيقة » مواجهة تلقٍ وتطلع وعندئذ نستطيع ان نرى بوضوح تام خط الانحراف الآخذ من الخط الصاعد وغير تلك المواجهة تعطل علينا الرؤيا إذ أنها تجعلنا في صميم الانحراف كالذي يسير وهو مغمض العينين لا يرى سواء السبيل !!

ان دراسة الدولة بدايةً ونهـاية ، حضارة وأثراً ، يجب أن تنبثق من المفهوم الصحيح للدولة وللحضارة .. وبعدها تُدرس حـالات الانحراف ، على أنهـا انحراف لا على أنهـا مظهر حتمي للدولة او حالة عادية كانت وستكون ولن تتخلف أبداً ..!!

(١) نعتقد ان لفظ « ميتة » أصدق في الدلالة من لفظ «خالدة » فالخلود في الأصل الصعود الذي لا دورة فيه أمـا اذا كان من انحـراف في الخـط لانشاء دورة فهـذا انحراف مميت ... لا خلود فيه ...

الفصل الرابع

كَيْفَ أقَامَ الإسْلامُ دَوْلته ؟

أدركنا من الفصول السابقة، من طبيعة التصور الاسلامي للكون والانسان والحياة، ومن ضرورة «الضبط» لكافة شؤون الحياة وتسييرها «بأنظمة» هادفة الى الله سبحانه، ومن مفهوم الدولة في الاسلام.. ان وجود «الدولة» حتمية إسلامية لا مفر منها ويعني هذا ان الاسلام جاء، من أول يوم عرفته الدنيا يحمل في طيات «إقرأ»[1]، نواة، مجتمع وملامح دولة، وخطة عمل.

لماذا لم يطلب الاسلام الدولة من أول يوم ؟

والسؤال الآن: لماذا لم يفصح الاسلام عن أهدافه من أول يوم ؟ او لماذا لم يُنزَل القرآن دفعةً واحدة فيدعو الى عقيدة ودولة، الى توحيد وتنظيم، الى منهج واسلوب ؟؟ خاصة وان الاسلام واجه بيئة ضائعة، لا تنظيم فيها ولا سيادة ولا عقيدة ولا سلطة، إلهها هواها ومنهاجها فوضى وأصدق وصف فيها ما قاله أحد أبنائها أمام النجاشي ملك الحبشة جعفر بن ابي طالب (أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف..)[2]

(١) (اقرأ باسم ربك الذي خلق) سورة العلق الآية ٢ .

(٢) ابن هشام - سيرة النبي مجلد واحد - ص ١٥٣ - طبعة بيروت دار الريحاني .

فلو أن القرآن كان جملة واحدة بنظامه وتشريعه وعقيدته ومنهجه لأدركت تلك البيئة «الضائعة» وجودها ولا نقادت إليه بسهولة ويسر دون مقاومة ولا عناد.. او لتمكن الرسول ﷺ من قبول عرض «المشركين» في تتويجه ملكاً وسيداً فحكم بما أراه الله بالتشريع الاسلامي وبالتنظيم الرباني ولقامت دولة الاسلام في أيام معدودات ؟؟

ولأول وهلة يُخيل أن مسحة من الحجة تصبغ ظاهر هذه الأسئلة بيد أننا اذا ما دققنا فيها وعرضناها على حقيقة هذا الدين وجدنا فيها من الجهل ما فيها.. ولم نجد جواباً عليها بدقة وإيجاز إلا جواب رسول الله ﷺ على من عرض عليه الملك والسلطة والسيادة.

روى ابن هشام في سيرته (أن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه ان أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم فجاءهم رسول الله سريعاً، وهو يظن ان قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له:

يا محمد، إنّا قد بعثنا إليك لنكلمك انا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الاباء، وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، او كما قالوا له فان كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منا مالاً وان كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا..

فقال رسول الله ﷺ:

ما بي ما تقولون.. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم

ولا الملك عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً وأمرني ان أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم .

فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة . وان تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » (١)

فهؤلاء لم يعرفوا بعد حقيقة هذا الدين ، وما عرضوا ما عرضوا جادين.. وانما للخصام والتضليل . ثم ان غاية الاسلام ليست في الشرف والملك بل في الخضوع والاستسلام لله.. فعندما تتحقق الغاية تظهر الدولة كمنحة من الله .. وهذا لن يكون ، إلا في تجمع اسلامي كامل .. وفي مكة لم يكن الخاضعون المستسلمون لمشيئة الله إلا نفراً قليلا معدوداً ، تجمعاً بسيطاً لم يتكامل بعد .. وأيضاً « ان هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح .. وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » لم ينزل هذا القرآن جملة ، انما نزل وفق الحاجات المتجددة ووفق النمو المطرد في الأفكار والنمو المطرد في المجتمع والحياة .. وفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية .. (٣)

« انه ليس ، نظرية ، تتعامل مع ، الفروض .. انه منهج يتعامل مع الواقع . (٤)

« لم يشأ الله ان ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام الدولة .» (٥)

---

(١) ابن هشام – ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٢) الاسراء ١٠٦ .

(٣)(٤)(٥) من كتاب معالم في الطريق – سيد قطب . الصفحات ١٩ – ٤٣ – ٤٤ .

من أجل هذا .. ما ان انقلب التجمع الحركي البسيط الى تجمع كامل وأعطى هذا التجمع العقد لله في إلتزام شرعه ونهجه ، حتى انبثقت الدولة من أعماقه بصورة بدل من الله وراحت الأنظمة والشرائع تتالى بنسق بديع فريد ..

ومما تقدم نرى ان للإسلام نهجاً خاصاً واسلوباً ذاتياً في إقامة دولته ، قد يختلف عن كل أساليب الارض او هو مختلف عنها حتماً .. فلا بد، ونحن في صدد محاولة جديدة لاستئناف الحياة الاسلامية ، من دراسة النهج والاسلوب ، دراسة عميقة عسى أن نصير إليهما في نهاية المطاف بإذن الله ..

* * *

أسلوب التجمع :

بدأ الرسول ﷺ دعوته عندما جاءه الأمر من الله (يا أيها المدثر قم فانذر وربك فكبر .) ومما يروى انه قال لزوجه خديجة او كما قال (يا خديجة من أدعو ومن ذا يستجيب ؟) لكن الأمر الجديد قد ملك عليه نفسه دفعه بقوة ومضاء الى الاتصال والتحرك فآمنت زوجته خديجة ثم مولاه زيد بن حارثة .. ثم ابن عمه علي بن ابي طالب .. ثم صديقه ابو بكر بن ابي قحافة ثم عثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وسعد بن ابي وقاص ، وطلحة ابن عبد الله . ثم ابو عبيدة بن الجراح وابو مسلمة والأرقم وعثمان بن مظعون وأخواه ، وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة اخت عمر بن الخطاب واسماء بنت ابي بكر واختها عائشة وخباب بن الارت ، وعمار بن ياسر وصهيب الرومي (١).

---

(١) ابن هشام ص ١١١ – ١١٢ .

وهكذا بدأ التجمع العضوي في الظهور ، عناصر شتى من بطون وأفخاذ وقبائل مختلفة . نساء ورجال صغار وكبار . فقراء وأغنياء أرقاء وأحرار وهذا أمر يخالف أبسط قواعد التجمع عند العرب . نما هذا التجمع .. وتكاثر العدد حتى أضحى مجتمعاً ذاتياً يمكن ان تطلق عليه اسم التجمع الحركي البسيط الذي سرعان ما تحول – في الهجرة الكبرى – الى تجمع حركي كامل ، اي مجتمع إسلامي ذي سلطان ودولة .

ان هذا التجمع في أطواره الثلاثة : العضوي ، والحركي ، والكامل ، هو محور العمل الاسلامي الصحيح . وهو المنهج الذي اختطه الله سبحانه لتجسيد شرعته ، ولأول مرة في الوجود فهو ، إذن ، تجمع حركي ، تجمع فاعل ، تجمع هادف .

ومن الناحية التاريخية : بدأ التجمع العضوي بدعوة الرسول ﷺ زوجته خديجة ، والتجمع البسيط بدخول أعضاء التجمع الاول دار الأرقم ابن أبي الأرقم وبخروجهم منها في اعلان عام وإنباء عن تجمعهم الجديد . وأما التجمع الكامل فبهجرة المسلمين الى المدينة حيث التقوا مع التجمع الحركي البسيط الذى نشأ هناك بعد التجمع العضوي . فتأمل التجمعان في تجمع واحد في مجتمع واحد .

ومن الناحية الموضوعية .. فان التجمع العضوي هو التجمع الأهم والقاعدة التي يرتفع عليها التجمع البسيط والتجمع الكامل .. فالكامل في القمة يتضمن الحركي والعضوي أي أن العضوي يعد دائماً الحركي بعناصر فاعلة « نظفت » نفسها واستسلمت للمشيئة المطلقة فيوصلها هذا أي التجمع الحركي – بعد التجربة والاختبار – الى التجمع الكامل حيث تنعم بالطمأنينة والاستقرار .

في التجمع العضوي
وعي الذات وبدء التحول والانقلاب :

ان أهم صفة في التجمع العضوي انه تجمع فردي، أفراده انخلعوا من ربقة الجاهلية ، من البيئة التي يعيشون فيها ، فالتقوا فيما بينهم سراً ، أي دون ان يعرف بلقائهم أحد فهم أشبه بالتجمع السري ، ينشط في الخفاء ويعمل بعيداً عن مراقبة « الآخرين » .

والحركة بهذا المعنى ، جزء لا يتجزأ من العمل العام ، لذلك فان التجمع العضوي يبقى مع التجمعين الحركى والكامل ، وان اتخذ شكلاً آخر واسلوباً آخر . أي ان الاحتكاك الفردي الذي يسعى الى الإقناع ، بالمناقشة والحجاج ، بهدم « الماضي » الملوث وبناء « الجديد » الطاهر ، هو منهج التجمع ولا يصح تجمع دونه ... ولا بد في هذا التجمع من « وعي الذات » بمعنى أن يعي كل عضو ذاته يعي وجوده ، ويقدر الخطوة التي يخطوها إذ أنه مدعو الى تغيير حركة التاريخ ولا بد من دفع الثمن .

وعندما يتكامل هذا التجمع العضوي يدرك ضرورة انقلابه الى تجمع حركي ينبثق في قلب المجتمع الجاهلي ويعمل في حركة علنية ، لاشعار المجتمع الجاهلي بوجوده وعندما يتم هذا الانقلاب فلا بد ، عندئذ ، من دفع الثمن ، ضريبة الاختبار والتجربة ، وهي بذاتها قوة خاصة دافعة لتكامل التجمع البسيط وتحوله الى تجمع كامل الى مجتمع اسلامي .

التجمع العضوي في مكة :

وهذا ما كان في مكة، وينطبق أيضاً الى حد بعيد على عهد المدينة. ففي مكة بدأ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاحتكاك الفردي بالحركة العضوية بالعمل السري ، فاستجاب له من استجاب ممن ذكرنا .

وما ان توافرت لرسول الله ﷺ هذه العناصر الواعية، حتى قرر «التجمع» في دار الأرقم بن ابي الأرقم ليقوم بأخطر عمل داخلي، بتربية وتكوين جماعيين. فهؤلاء الذين هداهم الله به مؤمنون جدد، حديثوا العهد بالاسلام وقريبو الصلة بالجاهلية، هؤلاء وهم يواجهون محنة مشتركة وبلاء واحداً بحاجة ماسة الى ترابط تحت سقف واحد يجتمعون فيتباحثون، يلتقون فيرتشفون من نبع النبوة البكر الايمان العميق والأدب الرصين واسلوب الدعوة الصحيح.

وعكف رسول الله ﷺ في دار الأرقم على تربية وتكوين الطليعة المؤمنة واستمر عدد هذه الطليعة في ازدياد حتى بلغ تسعاً وثلاثين.. عندها شعر رسول الله بدنو نهاية مرحلة التخفي، وأدرك ضرورة الاعلان ومواجهة الناس.. إلا أنه كان ينتظر رجلاً أنيط بإسلامه توقيت مرحلة العلنية (التجمع البسيط) رجلاً يعز به الاسلام فتنتهي مرحلة الاستخفاء.

من أجل هذا.. دعا رسول الله ﷺ، وسأل ربه فيما رواه الترمذي ان يعز الاسلام بأحب الرجلين إلية: بأبي جهل او بعمر بن الخطاب. وكذلك كان.. فأسلم ابن الخطاب عند اخته وانتقل الى دار الأرقم فجهر بإسلامه، أمام من ينتظره، أمام رسول الله.

اعلان التجمع الحركي:

« وكان اللقاء الأول ...

« وكان ان قال عمر: يا رسول الله ألسنا على الحق ان متنا وان حيينا». فقال ﷺ: بلى والذي نفسي بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم

« قال عمر: ففيم الاختفاء.. والذي بعثك بالحق لتخرجن.»[١] في هذه اللحظة الحاسمة، ولد التجمع البسيط، العلني، وأخذ الصراع مع المجتمع الجاهلي شكلاً جديداً شكل التحدي، وشكل الثبات.

ومع ان الاحتكاك التجمعي كان قاسياً وشديداً فان التجمع البسيط حاول ان يوجد تجمعات مماثلة هنا وهناك. فكانت الهجرة الى الحبشة، والاتصال بالطائف، وبالقبائل، وبالوافدين الى مكة.

وفي المدينة أيضاً تجمع عضوي فحركي فكامل:

وحملت هذه المحاولات عوامل النجاح. فاستجاب نفر من المدينة لا يتجاوز الستة عادوا ليبدأوا التحرك من البدء من التجمع العضوي من السرية، حتى إذا بلغوا سبعين رجلاً او أكثر انقلبوا الى تجمع علني. وأتوا رسول الله في مكة معاهدين مبايعين.

وكان لا بد، وقد تكامل التجمع البسيط في كل من مكة والمدينة، من تلاحمهما واتصالهما. وبدأت الهجرة، وتحول التجمع المعلن الى تجمع كامل وأعلن رسول الله ﷺ ميلاد التجمع المسلم، فخاطب مسلمي مكة أعضاء التنظيم التجمعي (ان الله عز وجل قد جعل لكم اخواناً وداراً تأمنون بها.)[٢]

* * *

(١) من مقال للمؤلف نشر في مجلة المجتمع اللبنانية العدد العاشر السنة الرابعة سنة ١٩٦٥. ولقد جاء في حاشية السيرة لابن هشام «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن ابي الأرقم مستخفياً من قريش بمكة يدعو الناس فيها الى الاسلام في أول الاسلام حتى خرج عنها وكانت دار الأرقم بمكة على الصفا فاسلم فيها جماعة كثيرة وكان رسول الله في الدار حتى تكاملوا اربعين رجلاً مسلماً وكان اخرهم اسلاماً عمر بن الخطاب فلما تكاملوا أربعين رجلاً خرجوا وجاء في سير اخرى (ان خروجه صلى الله عليه وسلم كان في صفين عمر في احدهما وحمزة في الآخر).

(٢) ابن هشام مجلد واحد ـ دار الريحاني ص ٢٣٦

شروط ومواصفات التجمع :

ولكل من هذه التجمعات شروط ومواصفات وخصائص تضفي على كل تجمع قيمة حركية فاعله مختلفة عن الأخرى . ولو ان كلاً منهـا حلقة في سلسلة البناء .

فشرط الانتساب للتجمع العضوي الانسلاخ العقيدي عن المجتمع الجاهلي وعن كل أفكاره وتصوراته .

ومواصفات الاندماج في التجمع العلني البسيط التحدي ومواجهة المجتمع الجاهلي بالتصور الاسلامي الجديد .

وخصائص الحياة في المجتمع الكامل ، في المجتمع الاسلامي ، الخضوع المطلق لكافة أحكامه وأنظمته وتشريعه .

* * *

التحول الخطر :

ولا ريب أن أصعب مرحلة هي مرحلة التجمع العضوي ، فهو التحول الخطر في حياة الانسان ، وليس يسيراً ـ على الانسان ـ من حيث المبدأ ـ ان يتحول عن عادات وتقاليد وأفكار وتصورات الى عقيدة جديدة ومنهج جديد . دون ان يعمق النظر ويدرك الأبعاد ويراجع رصيده مراراً ويدقق في حساباته تكراراً .

وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : (ما دعوت أحداً الى الاسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من ابي بكر بن ابي قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه [1].

(١) سيرة ابن هشام مجلد واحد ص ١١١ والكبوة ـ هنا تخلف وتردد.

حتى علي بن ابي طالب وهو الصبي الصغير والمكفول من قبل النبي ﷺ استمهل في قبول الدعوة الجديدة . فقد دخل علي فجأة على النبي وخديجة ـ وكانا يصليان ـ فوقف .. دهشاً حتى أتما صلاتهما ثم سأل: لمن تسجدان؟ فأجابه محمد ﷺ، أو كما قال : إنما نسجد لله الذي بعثني نبياً وأمرني ان أدعو الناس إليه . ودعا محمد ابن عمه الى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، والى دينه الذي بعثه به نبياً والى إنكار الأصنام من أمثال اللات والعزى .

« وتلا محمد ما تيسر من القرآن ، فأخذ علي عن نفسه، وسحره جمال الآيات واعجازها ، واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه .

« ثم قضى ليلته مضطرباً حتى اذا أصبح أعلن إليهما أنه أتبعهما من غير حاجة لرأي ابي طالب .

«وقال : لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب ، فما حاجتي انا الى مشاورته لأعبد الله [2].

ظلال لا اله الا الله عند انسان الجاهلية :

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقدر صعوبة هذه المرحلة من أول يوم جاءه الأمر ببدء الدعوة فقد قال أو كما قال : (انقضى يا خديجة عهد النوم والراحة فقد أمرني جبريل ان أنذر الناس وأن أدعوهم الى الله وان أدعوهم الى عبادته فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب لي ؟) [2]

وهذا الأمر جد طبيعي .. فلفظة (لا اله إلا الله) التي يطلبها النبي ﷺ من انسان الجاهلية .. تعني قبل كل شيء انقلاباً جذرياً في أعماقه ،

(١) حياة محمد ـ محمد حسنين هيكل ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .
(٢) حياة محمد ـ ص ١٣٦ .

فهي ثورة في مفهوم العبودية والخضوع .. وهي انسلاخ كامل عن قيم المجتمع الذي عاش فيه ، وهي عزلة عقيدية شاملة عن التصورات القديمة مع ما تخلفه من عادات وأساليب وهي — بعد ذلك كله — نقلة حاسمة الى آفاق جديدة والى تطورات جديدة .

وقد أدرك « انسان الجاهلية » هذه الظلال جميعاً عندما كان يطالب بالتلفظ بلا اله إلا الله .. كشرط للانتساب الى التجمع العضوي الجديد ، لذلك فقد تردد لكن تردد تفكير وتفاعل .. حتى اذا ما أعلنها ، التزم بها التزاماً كلياً حسب منطوقها ومدلولها ووفق ظلالها وإيحاءاتها .

فها هو يرفض بقوة وإصرار المجتمع الجاهلي كله بكل ما فيه من قيم وتصورات ، وها هو يخضع بكل أعماقه وقواه الى التجمع العضوي الجديد ينهل منه منهجاً جديداً يحكمه في كل شؤونه ويلتزم به في كل أموره .

العزلة الشعورية عند المسلم الجديد :

« لقد كان الرجل حين يدخل في الاسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية . كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها الى الاسلام انه يبدأ عهداً جديداً منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف الذي يحس ان كل هذا رجس لا يصلح للاسلام وبهذا الاحساس كان يتلقى هدى الاسلام الجديد .

« كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في اسلامه نشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية فهو قد انفصل نهائياً عن بيئة الجاهلية واتصل نهائياً ببيئته الاسلامية.

وحتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

« وكان هناك انخلاع من البيئة الجاهلية وعرفها وتصورها وعاداتها وروابطها ينشأ عن الانخلاع من عقيدة الشرك الى عقيدة التوحيد ومن تصور الجاهلية الى تصور الاسلام عن الحياة والوجود . وينشأ من الانضمام الى التجمع الاسلامي الجديد بقيامته الجديدة ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعيته »[١].

ويأتي بعد التجمع العضوي السري الأولي، التجمعُ العلني الحركي البسيط ، الذي لم يستكمل بعد أركان التجمع الكامل ، المجتمع الاسلامي .

وقلنا هذا التجمع الناشىء عن التجمع العضوي والمنبثق في قلب المجتمع الجاهلي لا بد له من التحرك في محاولة مزدوجة : إزالة المجتمع الجاهلي ، وتكامله هو لينقلب الى مجتمع إسلامي كامل .

التجمع الحركي يكشف الهوية
في مجابهة مكشوفة مع المجتمع الجاهلي :

والحقيقة ان لهذا التحرك العلني — بمعنى الاحتكاك الفعلي مع المجتمع الجاهلي — غاية أخرى ضمنية أي داخلية، وهي تعميق تربية وتكوين أعضاء التجمع، فالعضو الذي استوفى شرطه وأعلن لا اله إلا الله من أعماقه وانسلخ عن المجتمع الجاهلي واعتزل شعورياً ووجدانياً .. لا بد له من تجربة عملية بعد اعلان هذه العزلة . وهذه التجربة تتحدد بالتحدي وبالمواجهة الفعلية ، باعلان تصوراته الجديدة وتقويمه الجديد للكون والانسان والحياة وللحوادث والأفعال ولكل شيء في الوجود ، وبمعنى شامل ، كشف هويته الاسلامية الجديدة .

(١) معالم في الطريق . سيد قطب ص ٢٠ - ٣١ .

هاتان الغاياتان: اعلان التجمع في محاولة الهدم والبناء ، وتعميق التكوين لعضو التجمع ، يمكن جمعها في لفظة المجابهة ، مجابهة المجتمع الجاهلي بحركة جماعية تعتمد المجابهة الفردية أساساً .

المجابهة بين التجمع الحركي والمجتمع الجاهلي :

وحركة المجابهة هذه مرحلة خطيرة في حياة التجمع والأفراد .. فالمجتمع الجاهلي ، بعملية الدفاع عن وجوده ، سيقوم بحركة مجابهة عكسية معتمداً على سلطانه ومستخدماً كافة الأساليب : القتل والتشريد .. التعذيب والتضييق .. الاستهزاء والتنديد .. وأيضاً الاغراء والترغيب . من أجل هذا كانت المجابهة عملية خطيرة تستدعي كثيراً من الدقة والحذر ومزيداً من الوعي والملاحظة بيد أن الذي يضمن نجاحها، خاصة بالنسبة لثبات الأفراد ، توافر شرط الانتساب للتجمع بكل مدلوله وعمقه .

ولقد ملىء العهد المكي – بعد المرحلة الأولى – بصور جلية واضحة لحركة المجابهة هذه .. فهؤلاء أعضاء التجمع العضوي يخرجون من دار الأرقم ابن الأرقم صفين اثنين على رأس أحدهما عمر بن الخطاب وعلى الثاني حمزة ابن عبد المطلب ويقصدون الكعبة لتأدية الصلاة .

وكان هذا الخروج أول مظهر عملي إعلاني لقيام تجمع حركي في قلب المجتمع الجاهلي. وأراد ابن الخطاب – وهو صاحب فكرة إنهاء التخفي واعلان التجمع العضوي ومصداقاً لقوله تعالى واصدع [1] بما تؤمر وأعرض عن المشركين – ان يقوم فور اسلامه بعملية تحدٍ فردية .

فقال (لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أيّ أهل مكة أشد لرسول الله عداوة حتى آتيه فأخبرَه أني قد أسلمت . قلت : ابو جهل .. قال : فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه قال : فخرج أي أبو جهل .

(١) في تفسير القرطبي : اصدع بمعنى أظهر دينك .

فقال : مرحباً وأهلاً بابن اختي ما جاء بك ؟

قلت : جئت لأخبرك اني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به ، قال فضرب الباب في وجهي وقال « قبحك الله وقبح ما جئت به »[1].

« فت إسلام عمر في عضد قريش ان دخل في دين الله بالحَمِيَّة التي كان يحاربه من قبل بها ولم يُخفِ اسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رؤوس الملأ ويقاتلهم في سبيله .. وأيقنت قريش ان ما تنال به محمداً وأصحابه من الأذى لن يحول دون اقبال الناس على دين الله ليحتموا من بعد ذلك بعمر وحمزة او بالحبشة او بمن يقدر على حمايتهم فائتمرت من جديد ماذا تصنع واتفقوا فيما بينهم وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب مقاطعة تامة فلا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، وعلقوا صحيفة هذا العقد في جوف الكعبة توكيداً او تسجيلا .

« وكان أكبر ظنهم ان هذه السياسة السلبية سياسة التجويع والمقاطعة ستكون أفعل الأثر من سياسة الأذى والاعنات وان لم ينقطعوا عن الاعنات ولا عن الأذى واقامت قريش على حصار المسلمين وحصار بني هاشم وبني عبد المطلب سنتين او ثلاثاً ترجو خلالها أن تصل من محمد الى اعتزال قومه إياه فيعود وحيداً ولا يبقى له ولا لدعوته من خطر . فأما محمد فلم يزده ذلك إلا اعتصاماً بحبل الله ولم يزد أهله والذين آمنوا به إلا زوداً عنه وعن دين الله »[2].

وكان رسول الله ﷺ يعطي أصحابه – أعضاء التنظيم – القدوة الصالحة في مجابهة المجتمع الجاهلي لكل قيمه وأفكاره وتصوراته في تحمل النتائج التي تترتب على هذه المجابهة الصريحة .. (حدثني يحيى بن عروة بن الزبير قال :

(١) ابن هشام – ص ١٦٢ .
(٢) حياة محمد – ص ١٦٨ – ١٦٩ .

حضرتهم – أي قريش – وقد اجتمعت أشرافهم يومـــاً في الحجر فذكروا رسول الله فقالوا : ما رأينا مثل مـــا صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سفه أحلامنا وشتم أباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا .. فبينا هم في ذلك طلع رسول الله فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون : انت الذي تقول كذا و كذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم .

فيقول رسول الله : « نعم أنا الذي أقول ذلك » .

قال فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه ، قال فقام ابو بكر عنه دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا ان يقول ربي الله [١].

وانطلق أعضاء التجمع يجابهون مجتمع الجـــاهلية ويتحدونه في كثير من الأمور حتى وقعت أحداث كبار أضفت على تاريخ الحركة مهابة وجلالا[٢].

* * *

القرآن يجابه الجاهلية فيقضي على تصورها ويقرر قواعد التصور الجديد :

ولقد واكب القرآن حركة المجابهة – طيلة فترتها – وجـابه هو بدوره الجاهلية فهدم وبنى وأجتث جذور الجاهلية من نفوس أعضاء التجمع وأصّل فيها العقيدة صافية شامخة .

لقد كان القرآن في مجابهته للجاهلية يسعى لإظهار زيفها وباطلها وسخفها ودجلها.. يدحض ادعاءاتها ويهدم تصوراتها ثم يقرر النظرة الجديدة، العقيدة الجديدة، الموقف الجديد .. والقرآن – بهذا المعنى – كان ينشىء عند أعضاء التجمع وعياً خاصاً للحياه ومنهجاً خاصاً للوجود وتصوراً خاصاً للقيم والانسان.

(١) سيرة ابن هشام – ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(٢) لولا مخافة الخروج عن موضوعية البحث والتطويل لأثبتنـــا كثيراً من هذه الأحداث ويمكن مراجعة السير للوقوف على المزيد .

ولا يقبل القرآن ان ينازعه أحد في هذا الانشاء ، او ان يحاكمه الى مقررات سابقة ، فهذه المقررات جميعهـــا مقررات جاهلية يجب ان تقتلع من النفوس والعقول ولا يجوز بالتالي ان يحاكم إليها تنزيل رب العالمين (ذلك بان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل وان الله هو العلي الكبير)[١].

وهكذا كان القرآن يفيد من العزلة الشعورية للمسلم الجديد فيثبت عنده مـــا يريد من منهج الحياة .. من أجل هذا كان للقواعد العقيدية والمسلكية ومواقف القرآن المختلفة شأن كبير ودور خطير في انتصار التجمع العلني على المجتمع الجاهلي وفي إيجاد المجتمع المسلم ذي السلطان والدولة . إذن كل هذه « القواعد » كانت تشير دوماً الى ضرورة الانتقال للتجمع الكامـــل حيث الحاكمية المطلقة لله . فهي إذن قواعد مقررة مدربة مهيئة منبئة .. وهي ، في الوقت نفسه ، قواعد ذات شأن كبير في الحياة على امتدادها.

ففي ميداني العقيدة والحركة أنشأ القرآن تصوراً إيمانياً رفيعـــاً بعد أن دحض مزاعم المشركين خلال مناقشته لتصوراتهم الفـــاسدة

١ – في العقيدة :

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء مـــاء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها أإله مع الله بـــل هم قوم يعدلون أمّن جعل الارض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لهـــا رواسي وجعـــل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بـــل أكثرهم لا يعلمون، أمّنْ يجيب المضطر اذا دعـــاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا مـــا تذكّرون »[٢].

(١) سورة لقمان الآية ٣١.

(٢) من سورة النمل – الآيات ٥٩ – ٦٤ .

وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم والية ترجعون
قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة مَن إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ».

« قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تصبرون » القصص ٧٢ .

٢ ـ الرسول بشر :

وحرص القرآن ان ينبه الناس كل الناس ، الى أبعـــاد شخصية الرسول وان يؤكد على بشريته والى انه رسول وكفى !!

«قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحـد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » الكهف ١١٠.

«قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون » الأنبياء ١٠٨
« قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » الحج ٤٩ .
« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » الفرقان ١

٣ ـ الجاهليون حُمُرٌ مستنفرة :

ويصف القرآن الجاهليين الذين رفضوا الايمان والاسلام ويشبههم (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسوره) ويقول :

« قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ».

« أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنمـــا يتذكر أولو الألباب » الرعد ـ ١٨ ـ ١٩ .

« والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » .

« ويل لكل أفاك اثيم يسمع. آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم

يسمعها فبشره بعذاب أليم. واذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً اولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم» . الجاثية ٦ ـ ١٠

٤ ـ المؤمنون مفلحون :

ويصف المؤمنين ، الذين استجابوا لله وللرسول ، أعضاء التجمع بقوله :
« قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خـاشعون والذين هم عن اللغـــو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون» . المؤمنون ١ ـ ٤ .

« والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوهـــا وأنابوا الى الله ، لهم البشرى فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هـداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » الزمر ١٧ ـ ١٨ .

٥ ـ المقابلة بين التجمعين :

ويقابل القرآن بين أعضاء التجمع وبين أصحاب مجتمع الجاهلية فيقول:
« أفمن يمشي مكباً على وجهـــه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم » الملك ٢٢ .

« أم يحسب الذين اجترحـوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنو وعمـلوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون». الجاثية ٢٠

« وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون » المؤمن ٥٨ .

« أمن هو قانت أناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » الزمر٩

٦ ـ الصراع بين التجمعين :

ويثبت القرآن مشهداً للصراع بين التجمعين .. فيظهر من خـــلال هذا

المشهد استبداد الجاهلين وقوتهم وعنفوانهم وصبر المؤمنين وعنادهم وثباتهم:
« ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين ، واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يعملون » المطففين ٢٩ — ٣٥.

٧ – قواعد للسلوك تمهد لمجتمع مسلم :

وعنى القرآن بتربية أعضاء التجمع ، وهم في قلب الصراع ، على مجموعة من القواعد الخلقية والاجتماعية والمسلكية والتنظيمية وكأن هذه القواعد — كما ذكرنا — منبئة بمجتمع مسلم كامل تمارس فيه هذه القواعد وسواها حيث لا تكون الحاكمية فيه إلا لله سبحانه .. فهذه القواعد التي احتفل بها القرآن المكي لم تأت عبثاً إنما جاءت — كما سنرى — لتثبت هذا المعنى أي لتهيء النفوس للأنتقال الى المجتمع المسلم .. مجتمع الله .

● ففي العائلة :

« وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك بي علم فلا تطعمها وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ». لقمان ١٥

« وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما او كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً » الأسراء ٢٣

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خِطْئاً كبيراً » الأسراء ٣١

« والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون ». المؤمنون ٥–٧

● وفي القواعو المسلكية والاجتماعية :

« ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا »

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً ».

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفو بالعهد إن العهد كان مسؤولاً » .

« وأفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا » .

« ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ».

« ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولاً » .

« كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروهاً . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة » سورة الاسراء الآيات ٣٢ – ٣٩ .

● وفي النظرة الى الدنيا والانفاق :

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » الأسراء ١٨.

« وآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً » الاسراء ١٢.

« وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » الذاريات ١٩ .

« فآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل. ذلك خير للذين يريدون

وجه الله وأولئك هم المفلحون وما أتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ومـــا آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون » الروم ٣٨ ـ ٤٠ .

● وفي قواعد التنظيم العامة :

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » الشورى ٢٨.

« ومـــا اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب » الشورى ١١ .

« إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » .

« وأوفوا بالعهد اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون » النحل ٩٠ ـ ٩١ .

وكلمة أخيرة في هذا الصدد نأخذها من التفسير الحديث للاستاذ محمد عزة دروزة أثبتها تعليقاً على وصايا سورة الاسراء المشار إليها أعلاه فقال :

« من الجـــدير بالذكر ان الأوامر والوصـــايا جاءت بأسلوب الترغيب والتحذير والترهيب دون التشريع لأن هذا إنما كان في العهد المدني الذي صار للمسلمين فيه دولة برئاسة النبي ﷺ وعلى ذلك فمعظم ما نزل فيه تشريع مدني من المحذورات والمحظورات والواجبـــات والتكاليف قد ذكر بأسلوب الترغيب والتحذير في القرآن المكي حيث ينطوي في هذا أن أسس الرسالة الإسلامية ومحكماتها أصلية وطيدة منذ البدء »[1].

٨ ـ الوعي السياسي :

وأفاد القرآن من الظروف الدولية لتعميق الوعي السياسي في أعضـــاء

(١) التفسير الحديث الجزء الثالث ص ٣٣٢ .

التجمع ولزجهم في تحديات سياسية مع المجتمع الجـــاهلي رغبة في تصور سليم للأحداث والوقائع وتهيئة لهم في دخول معترك السياسة على صعيـد دولة .

لما نزلت « آلم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » . سورة الروم ـ كانت فارس ـ فيما رواه الإمام الترمذي. قـاهرين الروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وفي ذلك قوله تعالى : « يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ». وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث فلمـــا أنزل الله هذه الآيات خرج ابو بكر يصيح في نواحي مكة : (آلم غلبت الروم في أدني الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فقال ناس من قريش لأبي بكر فذاك بيننا وبينكم. زعَمَ صاحبُكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ـ وذلك قبل تحريم الرهان ـ فارتهن أبو بكر والمشركون وتواصفوا الرهـــان وقالوا لأبي بكر نجعل البضع ثلاث سنين الى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه قالوا فسموا بينهم ست سنين .

قال فمضت ست سنين قبـل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما وصلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس .

قال فعـــاب المسلمون على ابي بكر تسميته ست سنين قال لأن الله يقول بضع سنين قال فأسلم عند ذلك ناس كثير [1].

٩ ـ التجمع على العقيدة لا على العصبية :

وكلمة أخيرة في التجمع الحركي .

(١) من حديث للترمذي ذكره ابن كثير في تفسيره الجزء الثالث ص ٤٢٣ .

ان اسلوب التجمع الذي اتبعه الرسول عليه الصلاة والسلام كان اسلوباً جديداً مرفوضاً بحد ذاته من العرب فهؤلاء قد اعتادوا على اسلوب التجمع العصبي في تجمع عصبي في قبيلة أو فخذ أو بطن .. فللنسب شرف ، وللثراء قدر ، وللجاه نفوذ ولا يجوز على أي حال أن يلتقي ، في مساواة ، عبد وسيد ، فقير وغني . فعندما دعا النبي عليه الصلاة والسلام بدعوته جاعلاً التفاضل بالإيمان لا بالعصبية وبالتقوى لا بالمال كان بذلك يُرسي قواعد للتجمع جديدة أساسَ المجتمع الاسلامي المنشود .

ولقد واجه التجمع الجديد انتقادات لاذعة من أشراف قريش والقبائل إلا أنه تخطاها بثبات وعناد .. فكان هذا التجاوز تجربة حية ناجحة في تجمع كامل يقوم على صعيد العقيدة، فأعضاء التجمع في مكة شعروا فيما بينهم على اختلاف ما هم فيه من نسب وثراء وشرف ، بوحدة عقيدية قوية أضفت على ترابطهم قوة هي أقوى من أي رباط قديم .

وكان هذا الشعور منبت لكثير من التعاطف والمودة والتضحية فيما بينهم حتى غدوا جسداً واحداً اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

هذه التجربة أخصبت نفوس العرب وأكدت لهم أن التجمع الحق لن يقوم إلا على العقيدة . فغدا هذا التجمع ، بهذا المعنى أيضاً، ضرورة تمهيدية كبرى لا بد منها قبل إقامة التجمع الكبير .

على التجمع درس ظروف المكان والزمان والافادة منها:

أشرنا سابقاً الى ان التجمع الحركي يحاول ، وهو في قلب الصراع مع المجتمع الجاهلي ايجاد تجمعات مماثلة في أماكن متعددة. من أجل هذا كانت الهجرة الى الحبشة ، والاتصال بالقبائل والانتقال الى الطائف وملاقاة الوافدين الى مكة ..

والتحرك ـ على هذا المستوى ـ ضرورة لا مفر منها . بيد أن ظروف

المنطقة في ذلك الحين ـ ساعدت عليه . فمن حيث المبدأ ، لا تأثير لقبيلة على أخرى ولا لمدينة على أخرى ، فكل مستقل بذاته، يقرر ما يراه مناسباً . هذا الظرف فاد منه التجمع الحركى للمدى البعيد . ولا بد لكل تجمع ان يفيد من ظروف زمانه ومكانه في تخطيط حركته ضمن الدوائر التي يرسمها ويهدف لتحقيقها .

وكان ان التقى الرسول عليه الصلاة والسلام بنفر من يثرب جاؤوا فى موسم الحج الى مكة فقال لهم « من انتم » ؟ قالوا : نفر من الخزرج ؟ قال امِن موالي يهود قالوا نعم قال « أفلا تجلسون اكلمكم قالوا : بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن ... فاسلموا .. وقالوا له « انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم الى امرك ونعرض عليهم الذي اجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك » ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا [1].

وانتظر الرسول عليه الصلاة والسلام رد فعل الستة في يثرب ، كاختبار حقيقي لها.. فاذا العام القابل يحمل معه اثني عشر رجلاً، من اوس وخزرج، يبايعونه على الاسلام ، عند ذلك أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام قابلية البيئة لترعرع العقيدة .. فكان لا بد من تركيز و« تنظيم » التجمع الجديد فارسل موفداً من أعضاء تجمعه في مكة ، مصعب بن عمير (يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين) [2] ثم كان لقاء العقبة الكبرى.. مع اثنين وسبعين رجلاً وامرأتين من أهل يثرب من الاوس والخزرج فتأكد عند الرسول ، أمر لا يقبل الشك : ان التجمع في المدينة قد قام، فها هي العقيدة قد الفت بين الاعداء وصهرتهم في بوتقة تجمعية واحدة تسوسهم فكرة واحدة وترعاهم قيادة واحدة ..

(١) ابن هشام ٢١٨ مجلد واحد دار الريحاني .
(٢) المرجع السابق ص . ٢٢٠.

في هذه اللحظة اختمر مبدأ التلاحم بين التجمعين تجمع مكة وتجمع يثرب في قلب يثرب. وعبّر عن هذه الفكرة العباس عمُّ الرسول، فقال مخاطباً تجمع يثرب (ان محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وانه قد أبى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه وما نعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده).

واكد الرسول عليه الصلاة والسلام حديث العباس وأشار الى انتقاله الى يثرب وطلب الالتزام بالعهد والموثق (أبايعكم على أن مما تمنعون تمنعوني منه نساءكم وأبناءكم)(١) .

« قال ابن اسحاق : فلما أذن الله تعالى له في الحرب وتابعه هذا الحي من الأنصار على الاسلام والنصر له ولمن تبعه ، أمر الرسول أتباعه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج الى المدينة والهجرة اليها واللحوق باخوانهم من الأنصار وقال : (ان الله عز وجل قد جعل لكم أخواناً وداراً تأمنون بها ، فخرجوا ارسالاً وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة الى المدينة »(٢) .

والتقى التجمعان في يثرب ، لكنهما بقيا تجمعين ولم يتحولا الى مجتمع مسلم لأن القيادة لا تزال غائبة ، وبوجودها يتم التكامل في التجمعين ويعلن ميلاد المجتمع المسلم ، إذ إن التكامل يعني سلطة وقيادة دولة وسيادة ...

وانتقل الرسول فولد المجتمع المسلم بكل خصائصه ومميزاته ، بكل مواصفاته ومقوماته . وبادر القائد لاتخاذ التدابير الكفيلة برعرعة هذا المجتمع

---

(١) ابن هشام ٢٢١ - ٢٢٨ .
(٢) ابن هشام ٢٣٦ .

الوليد وتطويره وتنسيقه وفق الأهداف الكبرى التي ارتسمت بالعقيدة من أول يوم ...

فأول ما قام به حلّ التجمعين ، وهذه هي أبعاد الإخاء الذي حققه بين أعضاء التجمعين المهاجرين والأنصار ...

ثم أسس دار السيادة فابتنى المسجد للصلاة والحكم معاً ، وبعد ان أخذ العهد والموثق لله من الجميع مسلمين ويهود(١) ، أعلن ميلاد الدولة التي تسوس الجميع باسم الله ، كبدل من الله للناس .

« هذا هو المجتمع المسلم، المجتمع الذي تتمثل فيه العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم كما تتمثل في شعائرهم وعباداتهم كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم(٢) ...

« ان هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده ، وانها لا تدين بالعبودية لغير الله . . لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر . . ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع . . ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة . . تنقي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله — معه أو من دونه — وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله — معه أو دونه — وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله — معه أو من دونه » (٣) وقد وجدت هذه الجماعة من الناس . . فقام المجتمع المسلم .

التشريع : ضبط الارتباط بالله :

ان المجتمع — ذا السيادة والسلطان — وهو يواجه « حاجات » مستجدة

---

(١) سنتكلم عن هذا العهد بعد قليل .
(٢) معالم في الطريق ص ١١٦ .
(٣) المعالم ١١٧ .

لا بد له من تشريع وأحكام وتنسيق وتنظيم . . أو بمعنى آخر . . لا بد من « ضبط » الارتباط بالله ذلك الضبط الذي نشأ في أعماق هذا التجمع الكامل وعمل على تنميته وتطويره والمحافظة عليه . . فلا بد إذن من تبيان الحقوق والواجبات والاهداف والغـــايات ولا بد من أوامر ونواه وحدود وقصاص وأنظمة وقوانين في مختلف المرافق والميادين .

وهكذا جاء دور التشريع القرآني أي تقرير قواعد الزامية ، بعد أن جاءت بصيغة خلقية ايمانية . وهذا الدور ـ بحد ذاته ـ من أهم الأدوار في تأصيل مفهوم الدولة في وعي المجتمع والناس . . فالله سبحانه الذي يتوجه اليه المجتمع بالعبادة والشعائر توجه هو الى هذا المجتمع بنظام ومنهج حياة .

وبدأ المجتمع المسلم الناشىء يتلقى عن الله سبحانه أصول التنظيم والحكم فيحيلها مباشرة الى واقع تنفيذي ، دون تردد أو نظر . . وهكذا . . ومـــا ان مرت سنوات عشر حتى أتم الله دينه وشرعه وارتضى الاسلام للناس منهج حياة وتمت كلمة ربك حقاً وعدلاً .

* * *

وجدت دولة « الاسلام » بوجود المجتمع المسلم . . وهذه حقيقة لا يمارى فيها . . بيد أن الاعلان عنها كدولة تمارس وجودها الفعلي في السيادة ، لم يكن دفعة واحدة بل مر في أطوار ثلاثة :

الطور الاول : وهو طور الاعلان الداخلي .

والطور الثاني : طور الاعلان الاقليمي .

والطور الثالث : طور الاعلان العام او الدولي .

١ – الاعلان الداخلي موثق المدينة :

ان الاعلان الداخلي لوجود الدولة كان بتقرير الارتباط بقيادة تتبع منهج الله . وهذا التقرير صدر عن جميع ابناء المجتمع بشكل موثق وعهد ..

ولقد كان هذا الاعلان ، من اهم مـــا سعى اليه الرسول عليه الصلاة والسلام فور دخوله المدينة ، فكتب بين المهاجرين والانصـــار من جهة ، واليهود الآخرين من جهة أخرى كتاباً يعد أخطر وثيقة في اعلان الدولة بين أبناء مجتمع واحد [١].

* * *

---

(١) لأهمية هذه الوثيقة أردنا اثباتها هنا بعد ان وزعناها على أبواب تبعاً لموضوعاتهـــا وقد جاءت في كتب السير (سيرة ابن هشام) على غير هذا الترتيب :

الباب الأول : في المبادىء العامة

١ – وحدة الأمة :

ـ هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ـ بين المؤمنين والمسلمين، من قريش ويثرب، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم امة واحدة من دون الناس ،

وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وان يهود بني عوف . . (ايضاً بقية اليهود كما سنرى) امة مع المؤمنين .

٢ – السيادة والحاكمية :

وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عـز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم وان ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ – الانتظام التام :

وان ذمة الله واحدة .

وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وان البر دون الاثم .

وان النصر للمظلوم .

وان الله أصدق ما في هذه الصحيفة وابره .

وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وان الله على ابر هذا .

=

=

الباب الثاني : مبادىء في النظام الداخلي العام

١ – الحريات :

● حرية الاعتقاد .

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وانفسهم الا من ظلم او اثم فـانه لا يوقع (يهلك) الا نفسه وأهل بيته .

● حرية الاقامة والتنقل .

وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم او اثم .

٢ – حفظ الامن :

وان لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهـم او ابتغى دسيعة (العظيمة) ظلم او اثم او عدوان او فساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

وانه لا يحل لمؤمن اقر بمـــا في الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً ولا يؤذيه وانه من نصره او أواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وان بينهم (المؤمنين واليهود) النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وان بينهم النصر على من دهم يثرب .

وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد صلى الله عليه وسلم .

الباب الثالث : في بعض الانظمة والتشاريع

١ – في الجريمة والعقاب وحرمة النفس :

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

وانه من اعتبط (قتله بلا جنـاية منه توجب قتله) مؤمنـاً قتلاً عن بينة فـانه قـود (اي فدية)به إلا ان يرضى ولي المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه .

المها جرون من قريش على ربعتهم (الحال التي جاء الاسلام وهم عليها) يتعاقلون ...

٢ – في العدل والمساواة والشورى :

وان المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس .

وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

٢ – الاعلان الاقليمي : غزوة بدر

امـــا الطور الثاني في اعلان دولة الاسلام – وهو الاعلان الاقليمي أي الاعلان الذي يشعر اهل المنطقة بوجود قوة متماسكة ذات سيادة تمـــارس وجودها الفعلي وتقيم العلاقات والارتباطات – فقد أتى سريعاً بعد الهجرة بأشهر أي في رمضان من العام الثاني للهجرة . فقد دخل التجمع الاسلامي معركة مصير مع قريش خرج منهـا منتصراً مظفراً أشعر العرب قـــاطبة بوجوده وبتحركه وبقوته وسيادته وانه لن يسكت على من يظلم حتى يأخذ منه حقوقه كاملة غير منقوصة ..

=

وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم .

وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم .

٣ – في الاقتصاد والتكافل :

المهاجرون من قريش .. يفدون عانيهم (الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وان المؤمنين لا يتركون مغرماً (معسراً) بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء او عقل .

وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

٤ – في العلاقات الخارجية : السلم والحرب

وان سلم المومنين واحدة لا يسالم دون مومن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم.

واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه .

وانه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

وانه لا يجاز قريش ولا من نصرها .

وان بينهم النصر على من دهم يثرب .

أسماء من اشترك في توقيع الصحيفة

أ – المسلمون : قريش – بنو عوف – بنو ساعدة – بنو الحارث – بنو جشم – بنو النجار – بنو عمر وبن عوف – بنو النبيت – بنو الاوس .

ب – اليهود : بنو عوف – بنو النجـار – بنو ساعدة – بنو جشم بنو الاوس – بنو ثعلبة – بنو المشيطبة .

لقد كانت غزوة بدر – في حقيقتها – اعلاناً هاماً لوجود دولة الاسلام.. فهذه قريش خرجت بخيلائها وجندها ورجالها ورفضت ان تعود – مع علمها بنجـاة القافلة – قبل ان ترد بدراً فتقيم فيه ثلاثة ايام تنحر الابل وتعزف القيان وتشرب الخمر فتسمع بها العرب فلا يزالون يهابونها [١] . وهذا التجمع المسلم بجياعه وعراته وحفاته يدعو ربه (اللهم ان تَهْلِكَ هذه العِصابةَ اليوم لا تعبد ..)[٢] . وتدور المعركة وينتصر التجمع .. ويحدث هذا الانتصار الضخم دوياً هائلاً تسمع به العرب فتتعرف من خلاله الى ميلاد هذا التجمع الجديد .. ميلاد الدولة التي تعرف كيف تتحرك ..

* * *

٣ – الاعلان العام مراسلة وجهاد :

ويأتي الطور الثالث . وهو تعريف العالم بوجود الدولة ، قوياً نابعاً من أعمـاق العقيدة والمبدأ . فدولة الاسلام قد انبثقت من لدن الله – في قلب جزيرة العرب – لتفيض على الانسان في كل مكان تصوراً وضبطاً وارتباطاً.. ولتخرج الناس (من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الأرض الى سعتها.. ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ..[٣])

بدأ هذا الاعلان – في السنة السابعة للهجرة – عندما ارسل عليه الصلاة والسلام كتباً الى امراء وملوك واباطرة ذلك الزمان يدعوهم فيها الى الاسلام.. ولعمري انه لإعلان دولي عن وجود دولة الاسلام الفتية ، ما بعده اعلان ولا اعلام ..

قال عليه الصلاة والسلام في كتـابه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى .

(١) من كلام لأبي جهل في غزوة بدر. يراجع ابن هشام مجلد واحد ص٣٤٧ طباعة الريحاني.
(٢) من دعاء الرسول يوم بدر . المرجع السابق ص ٣٥٤ .
(٣) من كلمات ربعي بن عامر الى رستم ملك الفرس .

أما بعد :

فاني ادعوك بدعـاية الاسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين [١].

« يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فـان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

ولقـد علق الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد على ذلك بقوله [٢] :

« كان هرقل وكسرى يومئذ على رأس دولتي الروم والفرس أقوى دول العصر وصاحبتي الاملاء في سياسة العالم وفي مصاير امم جميعاً ... ومن اليسير عليك اذ تذكر مكانة الدولتين ان تقدر ما يبعثه اسماها من الرهبة الى النفوس ومن الهيبة الى القلوب حتى لا تفكر دولة في التعرض لهما ولا يدور بخلد أحد ان يفكر في غير خطبة ودهما .. أما وذلك شأن دول العالم المعروفة يومئذ جميعاً فقد .. كان عجيباً ان يفكر محمد عليه الصلاة والسلام يومئذ في ان يرسل رسله الى الملكين العظيمين والى غسان واليمن ومصر والحبشة (وعمان واليمامة) يدعوهم الى دينه دون خشية – لما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجر على بلاد العرب كلها الخضوع لنير فارس او بيزنطية..

« لكن محمداً لم يتردد في دعوة هؤلاء الملوك جميعاً الى دين الحق بـل خرج يوماً على أصحابه فقال (أيها الناس ان الله قد بعثني رحمة للناس كافة.. ثم ذكر لهم انه مرسل الى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغساني ملك الحيرة والحارث الحميري ملك اليمن والى نجـاشي الحبشة يدعوهم الى الاسلام.

(١) يريد انه مسؤول عن اثم رعيته ؟ لمنعه اياها عن الدين الجديد ؟
(٢) (٣) حياة محمد ص ٣٨٢ – ٣٨٣ .

واجابه أصحابه الى ما أراد فصنعوا له خاتماً من فضة نقش عليه (محمد رسول الله) ..

ويترتب على هذا الاعلان أثره .. وتتحرك الدول للقضاء على دولة الاسلام فيهب التجمع الاسلامي معلناً بدء مرحلة جديدة في حياته : تحرير الناس ، كل الناس ، من عبودية غير الله وتخليص الأرض كل الأرض من كل طاغوت واخلاصها لله وحده ..

« ومن ثم لم يكن بدأ للإسلام ان ينطلق في الأرض لازالة الواقع المخالف لذلك الاعلان العام .. بالبيان والحركة مجتمعين. وان يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله . أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه — والتي تحول بينهم وبين الاستماع الى « البيان » واعتناق « العقيدة » بحرية لا يتعرض لها السلطان ، ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي — بعد ازالة القوة المسيطرة . »[1].

ان دولة الاسلام قد انبثقت في قلوب المسلمين من اول يوم خلعوا فيه ربقة الجاهلية ومن اللحظة التي انعزلوا فيها شعورياً عن كل قيم المجتمع الجاهلي ..

ولقد نشأت بعد ذلك وترعرت في كل تجمع حركي .. وعندما ادرك التجمع انه يستطيع التحول الى مجتمع مسلم كامل ، تجسدت الدولة في واقع هذا المجتمع حية نابضة فاعلة موجهة ضابطة ... ولم تأل جهداً بعد ذلك في اعلان نفسها داخلياً بين ابنائها ورعاياها ، ومحلياً بين الجوار الذين يحيطون بها ، ودولياً في الأمم والشعوب ..

هذه الدولة هي عطاء من الله.. وهي الدولة «الطبيعة» لانسان هذه الحياة — الذي عرف ربه ونفسه ووجوده وكونه — وهي التي استظل بظلها الأوائل السابقون وهي التي حرمت ، من نعيمها ، الانسانية المعذبة طيلة قرون .. فهل تشرق شمسها من جديد ؟؟.

---

(١) معالم في الطريق ـ فصل الجهاد في سبيل الله ص ٨٦ .

الفصل الخامس

كيف دالت دولة الإسلام

لم تقم دولة الاسلام لتدول .. انمــا قامت لتبقى وارفة الظلال ، يتفيأ تحتها ، كل انسان في كل زمان وفي كل مكان ..

هذه حقيقة — أثبتناها في فصل مفهوم الدولة — لكنهـا حقيقة مبدئية عاكسها التاريخ وتفلتت منها دولة « المسلمين » ..

لقد نشأت دولة الاسلام — كما رأينا في الفصل السابق — على عين القرآن وبيد رسول الله ﷺ وانبثقت من أعمـاق التجمع فكرية رخية قوية مهيبة وتحركت بالتجمع فأزالت الطاغوت من الأرض ونشرت ظلال الحق والعدل في الوجود ..

وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه قوة الروح والاخلاق ، والدين والعـلم ، والأدوات المــادية في تنشئة الانسان الكامل وفي ظهور المدنية الصالحة .

كانت حكومة من أكبر حكومات العالم وقوة سياسية مـادية تفوق كل قوة في عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الاخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجـارة والصناعة ، ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقل الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة الى مساحة المملكة وعدد سكانهـا ، رغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد والفرد بالجمـاعة وعلاقة الجماعة بالفرد .

« ان هذا الرعيل من أتباع محمد ﷺ كان خليقاً بأن يسعد النوع الانساني

في ظله وتحت حكمه وان يسير بقيادته سديد الخطى رشيد الغاية مستقيم السير فانهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها .. يعدون هذا العالم مملكة الله استخلفهم فيها — أولاً : من حيث أصـل الانسان الذي جعله خليفة في الأرض .. وثانياً : من حيث انه انسان اسلم لأمر الله وانقاد ، فاستخلفه في الارض واسترعاه أهلهـــا ... وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها وسيرتها وأخلاقها ورغباتها يرشدون الضـــال ويردون الغاوي ويصلحون الفاسد ويقيمون الأود ويرأبون الصدع ويأخذون للضعيف من القوي ، وينتصفون للمظلوم من الظـــالم ويقيمون في الأرض القسط ويبسطون على العالم جناح الأمن « كنتم خير أمة أخرجت للنـــاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكرون ، وتؤمنون بالله » « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله »(١).

الخلافة الراشدة هي الوجود الحق وليست استثناءً مثالياً :

ما تقدم هو الأصـل في دولة الاسلام .. أي .. ان الخـــلافة الراشدة — التي سبق وصفها — هي صورة عن القرآن والاسلام عكست « بدلاً » من الله لمن أعطى العهد بالخضوع له والاستسلام لمشيئته. بمعنى ان الخلافة الراشدة هي الوجود الحق المطابق لفطرة الانسان . فعندما استقام الانسان على النهج السليم السديد وعاشه وتفاعل معهأضحى صورة عنه وكأن المنهج قدتجسد فيه وفي هذه الحاله فقط يكون الانسان قد أدرك نفسه وعرف ربه ووجوده .. أي ان الانسان قدغدا طبيعياً دون تعقيد سوياً دون انحراف وبالتالي فان الدولة التي تظلله لا يمكنها ان تكون إلا طبيعية ، وأصيلة سوية، لا انحراف فيها..

فاذا قام من يصف الخلافة الراشده بأنها « فترة استثنائية » مثالية بعـد

(١) ماذا خسر العـــالم بانحطاط المسلمين للسيد ابي الحسن علي الحسني الندوي ـ الهند ـ ص ١٢٢ - ١٢٣ - ١١٤ .

ان ردد مع ابن طباطبا قوله « لم تكن على طراز دول الدنيا وهي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . والحق في هذا أن زيها قد كان زي الأنبياء ، وهديها هدى الأنبياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار » . واذا ما قرر بعد ذلك ، ان المسلمين الاوائل كانوا يتوقعون (لهذه الفترة الاستثنائية المثالية أفولا سريعاً)[1] يكون — مع تقديرنا لعمله وفهمه — قد جانب الحق والصواب .

فصحيح ان الخلافة الراشدة — على ما وصفها السيد الندوي او ابن طباطبا — كان زيها زي الأنبياء ولا تشبه أياً من دول الدنيا .. إلا أن هذا لا يجعل منها مرحلة مثالية استثنائية في حياة الانسان .. وظني ان المشكلة — في هذا الصدد — ترتد الى تفهم الاسلام من حيث هو دين ومنهج حياة .. فاذا اعتبرنا ان الاسلام بأحكامه وشرائعه مثالياً أي فوق قدرة الانسان أي « غير واقعي » في منهجه وأخلاقه وتصوراته .. جاز لنا ان ننعت الفترة التي طبق فيها الاسلام بالمثالية الاستثنائية فالانسان في هذه الفترة ارتفع — وفقاً لهذا المفهوم — الى « أعلى » من قدرته فصادف ، في علوه هذا ، منهجاً اسلامياً فطبقه .. فلما عاد هذا الانسان الى انسانيته تخلى عن الاسلام بإعتبار ان الارتفاع استثناء وليس أصلاً .

ويترتب على هذا :

ان الاسلام استثناء في مناهج الحياة والأديان أي أنه يحمل في طياته سبب رفضه وجرثومة فنائه .. فالانسان (الطبيعي) — بمعنى العادي — لا يمكنه ان يتعامل مع الاسلام او ان يحتكم الى الاسلام في تصوراته وشؤون حياته لأن هذه فوق مستواه .. فطبيعي — والحالة كما وصفنا — أن تأفل فترة التطبيق المثالي — الخلافة الراشدة — (أفولاً سريعاً !!!) وينقلب الوضع الحياتي الى ما انقلب اليه في التاريخ أي أن ينحرف « المسلمون » عن

(١) النظم الاسلامية لفضيلة الدكتور صبحي الصالح ص ٢٧٨ .

تطبيق اسلامهم ويتخلوا عن منهج ربهم فهذا هو الطبيعي وبالتالي المنطقي فالاسلام مثالي وتطبيقه مثالي فهو اذن شاذ ولو كان شذوذاً في المثالية والخيال !!

ويعقب هذا التصور أمران :

أولهما : تبرير « فلسفي » لانحراف المسلمين عن الاسلام اذ لا يمكن ان يبقى الاسلام مطبقاً في الوجود باعتباره يتطلب انساناً مثالياً .

ثانيهما : الايحاء باستحالة « تطبيقية » مجدداً في واقع الحياة لصعوبة ايجاد الانسان المثالي اولاً ولعدم الجدوى من التطبيق ثانياً — وعلى افتراض تحققه فان مرحلته لن تكون أطول من الخلافة الراشدة حيث الصحابة والتابعون .. وستأفل أفولاً سريعاً لأنها شاذة ولو شذوذاً مثالياً .

ونعتقد ان هذا المفهوم مفهوم استشراقي ، تأثر به كثير من مفكرينا وكتابنا الاسلاميين — بقصد أو بدون قصد — ونقلوه ، منتبهين او غير منتبهين الى ما يجره من ذيول منكرة ، تعمل على « تلويث » التصور الاسلامي عن الدولة والانسان تلويثاً فتاكاً ..

ومن هؤلاء .. الدكتور عبد الكريم الخطيب صاحب كتاب (الخلافة والامامة ديانة وسياسة) الذي يقول [1] :

« والحق ان الخلافة التي عرفها المسلمون لأول عهدهم بعد النبي قد استوفت حظها من الحياة ، وانها ماتت ميتة طبيعية .. وما كان لها ان تصحب الناس أكثر من هذه المرحلة القصيرة التي صحبتهم فيها ، ثم تسلمهم بعدها الى الحياة .. الحياة كما يحياها الناس .. الحياة التي يختلط فيها الخير بالشر ، ويتصارع فيها الحق والباطل ويتغالب فيها الدين والدنيا ..

« ففترة الخلافة الراشدة ليست محسوبة من حياة الناس ، على الوجه الذي قدر لهم ان يصحبوها عليه وإنما هي فترة استثنائية أشبه بفترة النبوة ..

(١) الطبعة الاولى ١٩٦٣ صادرة عن دار الفكر العربي بالقاهرة — ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

فكما ان فترة النبي لن تعيش في الناس ، ولن يعيش فيها الناس إلا مرة واحدة ، وإلا زمناً محدوداً ينتهي بوفاة النبي ، كذلك الفترة التي تعقب النبي .. لا تعيش في الناس ، ولا يعيش فيها الناس الا مرة واحدة ، لا تتجاوز بحال ابداً ما كان لفترة النبي من عمر !! وربما كان لك ان تضع هنا معادلة زمنية بين رحلة الشمس من مشرقها الى مغربها ، وبين هذه الفترة التي تعقب غروب الشمس وانسدال الظلام .

« فترة الخلافة الراشدة » اذن كانت فترة « استثنائية » لا ينبغي ان نخضعها لمفهوم الحياة الممتدة في أجيال الناس ، كما لا ينبغي ان ننتظر قيامها مرة أخرى على الوضع الذي قامت عليه من أول أمرها ، الا اذا قامت في الحياة نبوة كنبوة محمد ، ذلك أمر قدر له ألا يقع !

« وانا اذا نظرنا الى « الخلافة الراشدة » هذه النظرة، وعلى هذا التقدير ارحنا انفسنا من هذه البلبلة وهذا الاضطراب في أمر « الخلافة » وأزحنا من صدورنا هذا القلق وهذا الهم الثقيل الذي نعالجه ونحن نطالع هذه الأحداث ، ونستقبل وجه تلك الفتن التي نبتت في مغارس الخلافة ... فاننا نجد لكل هذا منصرفاً ينصرف اليه ، اذا نحن لم نجعل للخلافة هذا المقام الذي كانت عليه بعد النبوة ، واذا نحن لم نتشبث بوضعها فيه .. واذا نحن سلمنا بانها في تلك الفترة لم تكن الا عارية مؤداة ولن تكون من أشياء الحياة التي نضم عليها أيدينا ، ويتوارثها الابناء عن الآباء .. جيلاً بعد جيل .

وليس بعيداً عن هذا المعنى ما كتبه طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى حين تساءل :

« فهل كانت هذه السيرة التي سارها النبي واجتهد صاحباه أبو بكر وعمر في أن يسيراها ما استطاعا الى ذلك سبيلاً ملائمة لما فطر عليه الناس من الأثرة والطمع والحرص على المنافع العاجلة .

« وهل كانت هذه السيرة قادرة على أن تبقى حتى تغير من طباع الناس فترقى بهم الى المثل العليا التي دعا اليها النبي وصاحباه ؟ » [١]

ويجيب :

« وأكاد أعتقد ان الخلافة كما فهمها أبو بكر وعمر كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ولكنها لم تنته الى غايتها لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجرى فيه . . . » [٢]

* * *

المفهوم الصحيح للخلافة الراشدة :

ان الفهم الاسلامي الصحيح للخلافة الراشدة هو أنها أصدق مرحلة في تطبيق الاسلام تطبيقاً سوياً – وهي لم تشابه دول الدنيا – على حد تعبير ابن طباطبا لأنها غير دول الدنيا في المنشأ والتصور والهدف .

ان الانسان « الجاهلي » – العربي والأعجمي – كان ضائعاً في خضم ركام من تصورات بشرية مخرفة فلا هو يعرف نفسه ولا غاية وجوده ولا معطيات حياته ولا هو يعرف منهجاً سليماً للحياة فقد كان منحرفاً عن «السوية البشرية» ساقطاً عن حدود الانسان المكرم من الله ، خليفة الله ، فجاءه الاسلام ليُعْرفه بنفسه وبكونه وبحياته وقبل كل شيء بربه، وليهبه بعد ذلك «بدل» العهد الذي أخذ منه ، ليمنحه منهج حياة ودولة تشرف على التطبيق والتنفيذ . وبذلك يكون الاسلام قد رفع الانسان فعلاً ، لكنها رفعة من الضياع الى درجة الانسان الصحيح السوي .. هذه الدرجة التي هي «الأصل» في الانسان .. بل هي الانسان بالذات .. ودونها يفقد « الانسان » معنى انسانيته فيهوي في أوهاد الضلال ، والتيه ، والضياع .

---

(١) الفتنة الكبرى ص ٢١
(٢) المرجع السابق ص ٥

ان الاسلام جاء لبشر لهم طبيعة البشر وليتعامل معهم على أنهم بشر فلا يفترض في الناس الملائكية (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) الاسراء ٩٤ (كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون) (والله لو لم تخطئوا فتستغفروا فيغفر الله لكم لأتى بقوم يخطئون فيستغفرون فيغفر الله لهم) . او كما قال ﷺ.

ولقد جاءت أحكام الاسلام المختلفة في الحكم والاقتصاد والمال والاجتماع بناء لمعرفة أصيلة بكينونة هذا الانسان وقدرته وطاقته واستعداده.. وبكل شيء فيه .. ويتحصل من ذلك أن تطبيق الاسلام في العهد الراشدي – وفي المستقبل ان شاء الله – لن يعتبر مثالياً استثنائياً بل طبيعياً واقعياً وان الانقلاب الذي حدث في التاريخ بعد الخلافة الراشدة كان انحرافاً عن الطبيعة السوية » للإنسان وليس عودة بالانسان الى درجته الطبيعية بعد فترة « المثالية الاستثنائية » .

الانحراف عن منهج الله

اول الاسباب في غياب الخلافة الراشدة :

ومن هذه المناقشة يتضح لنا سبب هام بل أهم الأسباب بلا جدال ، لذوال دولة الاسلام ، وهو تخلي المسلمين عن منهج الله السديد السليم . هذا الانحراف .. هو الذي عطل دولة الاسلام عن العطاء وأوقف دور الوساطة بين الله والناس في بركات من السماء والأرض (ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) سورة الاعراف .

وكأن .. لا بد من عقوبة على هذا الانحراف وقد كانت .. « ان عقوبة الانحراف عن منهج الله عقوبة كبرى قد تتجاوز عقوبة اولئك الذين لم يتفيأوا بظلال العقيدة الكبرى فالذين عرفوا ثم كفروا .. الذين استضاءت قلوبهم بالنور ثم أظلموها بالطاغوت هؤلاء شر مكانا وأظلم الناس بدون جدال ..

فهم قد نكثوا العهد الذي قطعوه لله ، ونكلوا عن العهد الذى أبرموه مع الله وعطلوا في أنفسهم ووجودهم ودنياهم خلافة الله .. فليس عجيباً بعد ذلك ان يتعطل دور الدولة في الوساطة وتتوقف حركتها عن العطاء مما وعد الله .. وكلما أمعن الناس في انحرافهم عن المنهج كلما تلاشى دور الدولة في العطاء حتى يجدب الناس ولعل هذا أبلغ عقاب من الله لهذه الأمة وكأن الثواب والعقاب في طرفي خط يسير متوازياً أبداً مع خط منهج الله .. فاذا ما تمثل الاسلام في واقع الحياة عقيدة وسلوكا وتشريعا أدرك الناس الثواب نهاية الخط المتعالي ، واذا ما تخلوا عن شرعة الله هبطوا هبوطاً بشعاً فأصابهم العقاب الطرف الآخر من الخط الأبدي ، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا [1] .

والانحراف – كما أسلفنا – لا يظهر دفعة واحدة . فهو كالخط الذي نشكل به زاوية مع خط آخر ينفرج قليلاً ثم لا يلتقيان .. وهكذا يتحول الانحراف مع الزمن ديناً آخر يختلف عن الدين الأول مظهراً وجوهراً .

ولقد بدأ الانحراف في دولة الإسلام من أخطر قاعدة فيها ، من العروة الجامعة من الحكم فكان بمثابة نقض له .. اذ حول الانحرافُ الحكمَ الى ملك عضوض [2] .

والحقيقة ان هذا الانقلاب في نظام الحكم لم يظهر دفعة واحدة ولم يقبله المسلمون ولا صفوتهم مرة واحدة ، فقد مر في مراحل عديدة ، كادت تقضي عليه .. لولا ان قضى عليها بقوة الحديد والنار ..

لقد آل الحكم الى معاوية بعد الحرب النكدة وبعد استشهاد الامام علي كرم الله وجهه – وليس في ولايته شيء – خاصة بعد ان انعقد عليه

(١) راجع فصل (مفهوم الدولة) من هذا الكتاب .

(٢) وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة أولها نقضاً للحكم وآخرها نقضاً للصلاة) .

الاجماع وبايعه مخالفوه ومنهم الحسن بن علي وشقيقه. (دخل معاوية الكوفة ونال بيعتها ودخل الحجاز وأمس خليفتها حتى سمى الناس العام الذي حصل فيه على بيعة الأمصار (بعام الجماعة)[1].

قلت : ليس في ولاية معاوية — من حيث هي ولاية — شيء فليست هي بذاتها ملوكية ولو أنه سمى نفسه على مــــارواه اليعقوبي « أول الملوك »[2] و « واتخذ لنفسه الدور والقصور وأحاط نفسه بالحجّاب والخدم »[3] فقـد اعتـــاد على ذلك قبل أن يصبح خليفة (أميراً) للمؤمنين وقد رآه عمر بن الخطاب أثناء زيارته للشام ولم ينكر عليه ذلك .

الايحاءات الأولى بتوريث يزيد :

لكن .. بدأ التحول الخطير في الخلافة ، عندمـــا بدأ معاوية في أخذ البيعة لابنه يزيد . وهناك جملة ملحوظات لا بد من ابدائها في هذا الصدد .

أولاً : ان مظاهر الملك التي نقلها معاوية عن الروم أثرت في نفسه تأثيراً قوياً .. فهو بدأ يحس — كما كانت العادة عند الروم وفارس وملوك الأرض في ذلك الحين — أن الملك ومظاهره ينبغي أن ينتقل إلى ابنه بمجرد وفاته ، فهو أحق الناس به، ولو لم يكن أهلاً له .. ففكرة (التوريث) هذه فكرة وافدة على معاوية إلا أنها وجدت مرتعاً خصباً في نفسه !!

ثانياً : يبدو أن معاوية قد وجد في المناداة بالحسن بن علي خليفة ، مكان أبيه ، بعد استشهاد علي مسابقة شجعته على إعلان مبدأ (التوريث) وأخذ البيعة لابنه يزيد ..

يقول الدكتور أحمد الشلبي « والذي لا شك فيه أن بني هـــاشم هم الذين بدأوا بخلق فكرة الهرقلية في الحكم الإسلامي »[4] .

(١) (٢) (٣) النظم الاسلامية - صبحي الصالح ٢٦٧ .
(٤) التاريخ الإسلامي (أحمد الشلبي) جزء ٢ ص ٤٤ .

ويظهر عمق هذا الرأي في تسلسل الائمة ، عند الشيعة وحصرهم في عائلة علي دون سواها .. بقطع النظر عن الحجج التي يوردها هؤلاء في هذا الصدد.

ثالثاً : بدأت فكرة المبايعة ليزيد سنة ٤٩ هـ وكان الذي بدأهـــا المغيرة ابن شعبة ويروى أنه لمـــا أحسّ أن معاوية ينوي عزله عن الكوفة قصد دمشق وقابل يزيد وقال له : ذهب أعيان أصحاب رسول الله ﷺ وكبراء قريش وذووا أسنانهم وانما بقي أبناؤهم وأنت من أفضلهم ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال أو ترى ذلك يتم قـــال نعم . وأخبر يزيد أباه بذلك الرأي ووصفه بأنه الطريق لحقن الدماء ولجمع الكلمة[1].

ولا بد من التنويه إلى أن البيعة لم تعط ليزيد — خاصة من كبراء المسلمين — إلا بالقوة والاكراه . ولقد قام ابن أبي بكر عبد الرحمن في المدينـــة ينكر أخذ البيعة ليزيد ويقول « **ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل** » . وكلام عبد الرحمن هـــذا يكشف لنا قضية هامة فالانكار محصور فقط في تعيين يزيد بن معاوية خليفة مكان أبيه مما يوجد الهرقلية في التفكير السياسي في الإسلام. أما **مبدأ التعيين** فقد وافق عليه كبار المسلمين وأباحوه لمعاوية نظراً للظروف الحرجـــة التي مرت بها الدولة الإسلامية في ذلك الحين فقد كتب معاوية لواليه على المدينة يقول له : إني كبُرت سني ورق عظمي وخشيت الاختـــلاف على الأمة من بعدي وقد رأيت ان اتخذ لهم من يقوم بهذا الأمر بعدي . وكرهت ان أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فـــاعرض عليهم واعلمني بالذي يردون عليك فلمـــا أخذ معاوية موافقتهم على مبدأ التعيين أعلن اسم يزيد وطلب البيعة له .

هنا بدأ الصراع أو بدأ التحول في التاريخ الإسلامي أو كما يقول الاستاذ

(١) التاريخ الاسلامي جزء ٢ ص ٤١.
(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٢٢.

الندوي « الحد الفاصل بين الكمال والزوال .. الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية او ملوكية المسلمين »[٢] فالملاحظات التي أبديناها سابقاً اخذت تتفاعل في نفسية معاوية وتتأكد حتى أساء الاختيار للمسلمين ولذلك قال عبد الرحمن بن أبي بكر (ما الخيار أردتم لأمة محمد ..)

ويرى الدكتور أحمد الشلبي ان معاوية (لم يكن يقصد الخير للمسلمين في تعيينه ابنه يزيد بقدر ما كان يقصد تهيئة أسباب السعادة لابنه وهذا مما يؤخذ عليه ولو كان يريد الخير للمسلمين لاختار من بني أمية من هو أصلح من يزيد)[١] وهذا بعد أن أكد الدكتور الشلبي ضرورة اختيار أموي لتلك المرحلة العصيبة بعد معاوية[٢] .

إذن فليس اختيار الخلف هو سبب الانحراف - وهو امر كان في الخلافة الراشدة[٣] إنما **اساءة الاختيار عن عمد** وحمل الناس بالاكراه على الخضوع لهذا الانحراف والاختيار فعندما اختار معاوية يزيد ثار العلماء في وجه يزيد باعتباره ابناً لمعاوية (فكلما مات هرقل قام هرقل) على حد تعبير عبد الرحمن ابن أبي بكر . فلقد خاف هؤلاء أن تتأكد على الزمن فكرة الهرقلية والوراثية في أسلوب الحكم .. وكذلك كان ..

ثورة عبد الله ابن الزبير المسلحة وثورة ابن عبد العزيز السلمية :

بيد أن الانحراف لم يمر بسهولة فقد واجهته إرادة صلبة من العلماء وعامة المسلمين ، رغم الاكراه والقوة .. حتى أن **عبد الله ابن الزبير** استطاع بثورته أن يوجد خلافة بقيت بضع سنين واعتبرها بعض المؤرخين خلافة ذلك الزمن واعتبر بني أمية خارجين عليها .. فلما اعتزل معاوية الثاني الحكم

(١) التاريخ الاسلامي ص ٤٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٥ .
(٣) تفصيل ذلك في القسم الثاني من هذا الكتاب وفيه مناقشة لموضوع الخلافة والاختيار .

دون أن يعين خلفاً له - على عادة جده وأبيه -[١] (اختلفت كلمة بني أمية فيما بينهم واختلف الناس عليهم فأوشك ملكهم أن يضيع . ويروى أن مروان بن الحكم - الذي آل اليه الحكم - نفسه كان على وشك ان ينطلق لابن الزبير فيبايعه .

«وكانت حالة ابن الزبير في ذلك الوقت في تقدم واضح فقد دان له الحجاز وتبعه أهل الكوفة والبصرة - وكان عبدالله بن زياد قد أخلاهما وفرّ تحت ضغط الأحداث - كما تبعه أهل الجزيرة وأمراء الشام ، ولم يبق على الولاء لبني أمية إلا الاردن ، وتلك الحالة التي حققها عبدالله بن الزبير أو تحققت له جعلت بعض المؤرخين يراه **خليفة ذلك العصر ويعد مروان بن الحكم متمرداً عليه ولا يعترف له بخلافة كما لا يعترف بخلافة عبد الملك الا من يوم موت ابن الزبير واجتماع الكلمة عليه**[٢] » .

ولئن استعاد بنو أمية ملكهم من جديد وتوارثوه دون المسلمين الا ان أحدهم رفض الخلافة التي آلت اليه عن طريق الهرقلية فأعاد الأمر الى المسلمين - كمعاوية الثاني - ذلك هو **عمر بن عبد العزيز** الذي قال : (أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ولا طلب له **ولا مشورة من المسلمين** وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لكم)[٣].

وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة - على صعيد رسمي - لمقاومة الانحراف .

(١) يروى انه خطب الناس فقال : « اني قد ضعفت من أمركم فابتغيت لكم مثل عمر ابن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » وهذا يؤكد عمق الشورى وسطحية الهرقلية عند مسلمي ذلك العصر .

(٢) التاريخ الاسلامي جزء ٢ ص ٥٠ - ٥١ نقلا عن تاريخ الخلفاء للسيوطي والعقد الفريد.

(٣) راجع في تولية عمر وما رافقها من أحداث كتابنا (عمر بن عبد العزيز في الحكم والاقتصاد والقضاء) ص ٢٧ وما بعدها .

ثم – بعد عمر – ثبت الانحراف في أسلوب الحكم وغدت الهرقلية أمراً متعارفاً عليه في مختلف العصور وكان ذلك سبباً هاماً في تخلف دولة الاسلام .

وعندما ظهرت الدعوة العباسية وزال حكم الأمويين أذاع بنو هاشم انهم أولى بميراث الرسول من العلويين – نسبة لعلي زوج فاطمة – لأن جدهم عم الرسول ولا ينحدر الميراث الى ابن العم مع وجود العم وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبة وقد قال شاعرهم في ذلك :

انى يكون ليس ذاك بكائن   لبني البنات وراثة الأجداد[1]

فمسألة الحكم غدت مسألة ميراث وورثة .. ليس إلا ! فتأمل ؟

« ولقد أصبحت الخلافة في العصر العباسي وراثية تماماً » ووجهت في هذه المسألة أقسى ضربة الى تقاليد العرب * حين تجاهل العباسيون مشكلة السن فعهدوا بالخلافة الى الذين لم يبلغوا سن الرشد : كما عهد الرشيد الى ابنه الامين وكان عمره خمس سنوات فقط ، والى ابنه المأمون ولم يكن عمره يزيد على ثلاثة عشر عاماً بل أسندوا ولاية العهد الى أكثر من واحد كما فعل المهدي والرشيد والمتوكل[2] ...

ولا بد ، ونحن في صدد الانحراف، أن نؤكد ان الهرقلية هذه وان ثبتت ورسخت في التعامل والواقع إلا أنها **بقيت في أذهان الجميع وخاصة العلماء والفقهاء انحرافاً ولم تعتبر في يوم من الايام اصلاً** وقد وجدنا من يكتب ، كالماوردي وابن خلدون ولو في عصور متأخرة ، فضلاً عن فقهاء المذاهب المعروفين ، عن الدولة والخلافة وكيف يختار الخليفة والنصوص الشرعية التي

(١) التاريخ الاسلامي – محمد الشلبي جزء ٢ ص ١٣ .

* نخالف الدكتور صبحي الصالح في اتجاهه فالضربة لم توجه الى تقاليد عربية أو غير عربية، انما الى المنهج الاسلامي في الحكم .. فهو الذي يحذر من ولاية الصبيان كما في الحديث النبوي، وهو الذي يمنع أصلا ارتقاء مثل هؤلاء سدة الحكم .

(٢) النظم الاسلامية ص ٢٦٩ – ٢٧٠ .

تحكم هذا الاختيار وما شابه .. ووجدنا أيضاً من يقول بظلم الخلفاء كالإمام مالك بن أنس رضي الله عنه فقد سئل عن قتال الخارجين على لدولة أيجوز ذلك ؟ فقال دعهم ينتقم الله من ظالم لظالم ثم ينتقم من كليهما ..[1]

ولا بد ، ثانياً من الاشارة الى ان هذا الانحراف في أسلوب الحكم قد أضفى هالة خاصة على الخلفاء الملوك .. فقد غدا منصب الخليفة منصباً شخصياً مما أدى الى تجميع الارتباط والمصالح حول شخص الخليفة لا حول مركز الخلافة وبمعنى آخر ان الخليفة الملك راح يبذل ما في وسعه ليحافظ على بقائه وليمهد لانتقال السلطة من بعده الى ولده فأخذ يتوسل باسترضاء الاقرباء ووجهاء الناس وربما بعض العلماء .. ولو كان هذا – بل هو كذلك حتماً – على حساب بيت مال المسلمين !

على أثر تجديد البيعة لعمر بن عبد العزيز « احتجب عن الناس ثلاثة أيام متواليات لا يدخل عليه أحد ووجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجند والعرب ببابه ينظرون ما يخرج عليهم وكان عمر خلال هذه الايام يعمل ليلا ونهاراً مع وزيره مزاحم يجمعان سجلات قطائع الأمراء وعهود عطاياهم والاموال التي تجري عليهم ويدرسانها دراسة وثيقة على ضوء التشريع المالي في الإسلام وكم كان عجب عمر كبيراً عندما أحصى مجموع القطائع والاعطيات للأمراء فبلغت عنده نصف ما في بيت المسلمين أو ثلثيه فما كان منه إلا ان نادى بصلاة جامعة فاجتمع الناس وخرج اليهم وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (أما بعد فان هؤلاء – أي الخلفاء قبله – أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها وإني قد رأيت ذلك ليس علي فيه دون الله محاسب وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي . اقرأ يا مزاحم فيخرج سجلا سجلا وعهداً عهداً و كتاباً كتاباً ثم يقرؤه فيأخذه عمر

(١) الاسلام بين العلماء والحكام لعبد العزيز بدوي نقلا عن (ضحى الاسلام) وكتاب (مالك لأبي زهرة) ص ١٠٤ .

وبيده آلة حادة فيمزقه ، وما زالا حتى حان الظهر ونادى المؤذن للصلاة ورد جميع ذلك الى بيت المال »[1] .

فعمر بن عبد العزيز لا يهمه تجميع القوى حول شخص الخليفة وانما تدعيم الخلافة نفسها والقيام بواجبها حتى تضحى هيئة معنوية كما كان كذلك في عهد الخلافة الراشدة ، لا سلطة شخصية كخلافة الامويين .

عوامل التحلل في كيان الدولة :

إن نقض الحكم أدى الى الانحراف البشع ـ الذي رأينا ـ وهذا الانحراف أدى الى انحراف آخر .. ثم تتالى الانحراف وتعاظم .. ولقد لخص الإمام الشهيد حسن البنا عوامل التحلل في كيان الدولة الاسلامية في رسالته بين الأمس واليوم فجاء شاملاً وافياً فقال رحمه الله :

(ومع هذه القوة البالغة والسلطان الواسع فان عوامل التحلل قد أخذت تتسلل الى كيان هذه الأمة القرآنية وتعظم وتنتشر شيئاً فشيئاً حتى مزقت هذا الكيان وقضت على الدولة الاسلامية المركزية في القرن السادس الهجري بأيدي التتار ، وفي القرن الرابع عشر الهجري مرة ثانية ، وتركت وراءها في كلتا المرتين أمماً مبعثرة ودويلات صغيرة تتوق الى الوحدة وتتوثب للنهوض وكان أهم هذه العوامل :

أ ـ الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه مع التحذير الشديد الذي جاء به الاسلام في ذلك والتزهيد في الإمارة ولفت النظر الى هذه الناحية التي هي سوس الأمم ومحطمة الشعوب والدول « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين »[2]. ومع الوصية البالغة بالإخلاص لله وحده في القول والعمل والتنفير من حب الشهوة والمحمدة .

(١) عمر بن عبد العزيز في الحكم والاقتصاد والقضاء للمؤلف ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٢) الأنفال الآية ٤٦ .

ب ـ الخلافات الدينية والمذهبية والإنصراف عن الدين كعقائد وأعمال الى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة وإهمال كتاب الله وسنة الرسول ﷺ والجمود والتعصب للآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء ، وكل ذلك مما حذر منه الاسلام ونهى عنه أشد النهي حتى قال رسول الله ﷺ : (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) .

ج ـ الانغماس في ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات حتى أثر عن حكام المسلمين في كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم مع انهم يقرأون قول الله تبارك وتعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »[2] .

د ـ انتقال السلطة والرياسة الى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الاسلام الصحيح ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه مع انهم يقرؤون قول الله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون »[3].

ه ـ إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عميقة وعلوم خيالية سقيمة مع أن الاسلام يحثهم على النظر في الكون واكتناه أسرار الخلق والسير في الأرض ويأمرهم أن يتفكروا في ملكوت الله (قل انظروا ماذا في السموات والأرض .)

و ـ الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم عند غيرهم حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة وقد

(١) الاسراء الآية ١٧ .
(٢) آل عمران الآية ١١٩ .
(٣) يونس الآية ١٠١ .

أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم مغبة الغفلة واعتبر الغافلين كالأنعام بل هم أضل (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)[1].

ز – الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والاعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع مع النهي الشديد عن التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والمحافظة على مقومات الأمة الاسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد قال القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنو إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » وقال في آية أخرى « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين)[2] .

وللأستاذ أبي الحسن الندوي أيضاً نظرات في (**تحريفات الحياة الاسلامية**) كما أسماها في كتابه ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين فقال[3] تحت عنوان « فصل الدين عن السياسة » .

« وقع فصل بين الدين والسياسة عملياً ، فان هؤلاء – أي الخلفاء الأمويين والعباسيين حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز * فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين فاستبدوا بالحكم والسياسة واستعانوا – إذا أرادوا واقتضت المصالح – بالفقهاء ورجال الدين كمبشرين متخصصين واستخدموهم في مصالحهم واستغنوا

(١) الاعراف الآية ١٨٩ .

(٢) بين الأمس واليوم للإمام حسن البنا ص ٨ – ٩ – ١٠ – ١١١ . والآية ٤٩ من آل عمران .

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٢١ وما يليها .

* ص ١٢٥ من المرجع السابق .

عنهم اذا شاؤوا وعصوهم متى شاؤوا ، فتحررت السياسة من رقابة الدين وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة وملكاً عضوضاً .. »

وتحت عنوان « **النزعات الجاهلية في رجال الخلافة** » قال :

« ولم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة في الدين والخلق بل كان في كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها فسرت روحهم ونفسيتهم في الحياة العامة والاجتماع . فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها وأخلد الناس الى الترف والنعيم والى الملاهي والملاعب وانغمسوا في الملذات والشهوات واستهتروا استهتاراً . ونظرة في كتاب الأغاني و كتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جامحة الى اللهو وتهافت على الملاهي والملذات ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها .. »[1]

ثم يذكر أن هؤلاء الخلفاء والحكام كانوا يسيئون (تمثيل الإسلام) وإنهم مع العلماء والمفكرين لم يحتفلوا (بالعلوم العملية المفيدة) احتفالاً صحيحاً .. وان البدع والضلالات قد حجبت (توحيد الإسلام النقي) ..

وهكذا .. كلما تأكد الإنحراف على الزمن ، كلما انحسر الإسلام عن الوجود الحياتي للمسلمين حتى أضحى هذا الوجود جاهلياً في التصور والسلوك، ليس له من الاسلام إلا المسحة الظاهرة ، وإلا الأشكال التي لا تسمن ولا تغني من جوع ..

مواجهة العلماء للانحراف :

بيد أن هذا الإنحراف – وهو في اشتداده وتأصله – قد واجه مقاومة صلبة اتخذت شكلاً لها صيحات واعية أو تحديات لاهبة ..

فعلاوة على ما ذكرناه من مواجهة الصحابة للقيصرية الملوكية فقد

(١) ص ١٢٥ من كتاب الندوي .

واجه ـ على مر الزمن ـ علماء أبرار تحديات الإنحراف في الحكام ، مما جعلهم آيات في البطولة والثبات .

فهذا الحسن البصري يواجه عمر بن هبيرة والي زياد بن معاوية على العراق ويصيح به (.. وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين علي ، والله أحق أن يطاع ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .. فأعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل فان وجدته موافقاً للكتاب فخذ به وان وجدته مخالفاً لكتاب الله فانبذه .

يا ابن هبيرة :

اتق الله فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك عن سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك وتقدم على ربك وتنزل على عملك .

يا ابن هبيرة :

إن الله ليمنعك عن يزيد وان يزيد لا يمنعك من الله وإن أمر الله فوق كل أمر وانه لا طاعة في معصية الله وإني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ..[1]

وفضلاً عن **سعيد بن الجبير** الذي عاند الحجاج ورفض الانصياع إلا للحق فقد حكي أن حطيطاً الزيات جيء به إلى الحجاج فلما دخل عليه قال انت حطيطا قال نعم سل عما بدا لك فاني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصال إن سئلت لأصدقن وان ابتليت لأصبرنّ وان عوفيت لأشكرن قال فما تقول فيّ : قال أقول إنـّك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم وتقتل بالظنة قال فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قال أقول

(١) احياء علوم الدين للإمام الغزالي الجزء الثاني ص ٣٤١.

إنـّه أعظم جرماً منك وإنما أنت خطيئة من خطاياه قال الحجاج ضعوا عليه العذاب [1] .. حتى استشهد ..

أما الامام الاوزاعي فقد وافى أبا جعفر المنصور فقال له :

يا أمير المؤمنين : حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ : أي والٍ مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله ان الله هو الحق المبين ..

يا أمير المؤمنين : قد كنت من شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ومسلمهم وكافرهم . وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك اذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه . يا أمير المؤمنين حدثني مكحول .. قال كانت في يد رسول الله ﷺ جريدة يستاك ويروع بها المنافقين فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له يا محمد: ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعباً . فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف منه ..

يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك.. يا أمير المؤمنين بلغني ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك .. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يقيم أمر الناس إلا ضعيف العقل أريب العقد لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه حرة ولا تأخذه في الله لومة لائم ..

يا أمير المؤمنين : أشد الشدة القيام لله بحقه وإن أكرم الكرم عند الله

(١) الإحياء الجزء الثاني ص ٣٤٠.

التقوى وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه ..[1]

ولقد وصلت الجرأة **بسفيان الثوري** أن يرد على كتاب هارون الرشيد الذي أرسله إليه يدعوه فيه إلى موافاته ويعده (الجوائز السنية) فيقول في رده :

بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان الثوري الى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الايمان .

أما بعد .. فانك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك بما **هجمت** به على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه وأنفذته في غير **حكمه** .. يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم .. وأعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالماً وللظالمين إماماً . يا هارون : قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك يظلمون الناس ولا ينصفون يشربون الخمور ويضربون من يشربها ويزنون ويحدون الزاني ويسرقون ويقطعون السارق أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس !! فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ؟ أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وانصافك [2] والظالمون حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار .. [3]

---

(١) الاحياء الجزء الثاني ص ٣٤٢ - ٣٤٤ - ٣٥٥ .

(٢) من حديث (ما من وال يلي شيئاً من أمور الناس الا أتي به يوم القيام مغلولة يده الى عنقه لا يفكها إلا عدله ..) رواه ابي الدنيا والطبراني انظر الاحياء ص ٣٤٤ الجزء الثاني .

(١) من رسالة سفيان إلى هارون الإحياء الجزء الثاني ص ٣٤٨ ،

لماذا لم تقم ثورات منظمة تقضي على الانحراف ؟

ولعل سؤالاً هاماً ينتصب أمام المدقق في التاريخ لماذا لم تقم ثورات منظمة قضت على الانحراف وأعادت الأمر الى نصابه ؟ ونعتقد أن مرد ذلك يعود الى ما يلي :

اولا : ان اقتتال المسلمين في صدر الإسلام بين علي ومعاوية ثم بين الزبير والأمويين ، وغير ذلك من ثورات صغيرة ومقاومات على صعيد المدن ثم ما جرى أثناء الثورة العباسية قد كرّه في نفوس علماء المسلمين خاصة كل اقتتال داخلي فنفروا من مقاومة الظلم والانحراف وآثروا الاخلاد الى **المقاومة السلبية الفكرية** لما رأوا من نتائج الاقتتال السابق وآثاره السيئة في مختلف وجوه الوجود المسلم .

ثانيا : لقد نشأت عبر الزمن وخاصة في العصر العباسي حركات فكرية وفرق مذهبية وصوفية استنزفت جهود العلماء والفقهاء وعامة الناس. فأضاعت في الجميع ـ حاشا بعض العلماء ـ همة الجهاد والكفاح وأقنعتهم بضرورة مسايرة السلطان والسكوت عن المنكرات إذ أن أوقاتهم لم تعد تتسع لمعالجة قضية الانحراف فهي مشبعة بترف كلامي أو جدل مذهبي أو فلسفي .

ثالثا : لقد تشوه في نفوس الناس التصور الإسلامي وخاصة فيما يتعلق بالجانب السياسي ، أي ما خص الخليفة والحكام . وتعاقبت الأجيال والتشوه يزداد حتى كاد يقتنع الناس بأن لا حق لهم تجاه «السلطان» .

رابعاً : ما تقدم حال دون إيجاد **حركة منظمة تعتمد المطالبة القوية اساساً لها** على حد تعبير ابن خلدون أو تعمل على تغيير الواقع ومقاومة الانحراف والعودة بالأمة والناس إلى المكانة التي أرادها الله لهم .

خامساً : ومع هذا فإن ابن خلدون يحدثنا عن بعض ثورات دينية قامت في

بغداد بعفوية دون إعداد وتنظيم مما جرّ عليها الفشل والنقد اللاذع من ابن خلدون نفسه وذلك في معرض حديثه عن مقومات وأسلوب التغيير .

قال (ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء فان كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والأمر بالمعروف ، جاء في الثواب عليه من الله فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغــــاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه » وأحوال المــــلوك والدول راسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر – كما قدمناه – . . . فإذا ذهب أحد من الناس هــــذا المذهب وكان فيه محقاً قصر به الإنفراد من العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما إن كان من المتلبسين في طلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة .

« وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الأمــــين وابطأ المأمون بخراسان عن مقدم العراق . . فوقع الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بها من الشطــــار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهــــاب الناس.. فتوافر أهل الدين والاصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر فأجابه خلق وقاتل أهـل الزعرة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الأنصاري ويكنى أبا حاتم علق مصحفاً في عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فأتبعه الناس كافة من بين شريف ووضيع من بني هاشم فمن دونهم ونزل قصر طــاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة .. وقال له خالد الدريوس: أنا لا أعيب على السلطان فقال له سهل : لكني أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائناً من كان وذلك سنة احدى ومائتين وجهز له ابراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأسره وانحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه . ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من « الموسوسين » يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون اليه في إقامته من « العصبية » ولا يشعرون بغبة أمرهم ومآل أحوالهم [1] .

* * *

اشتداد الانحراف وبداية الانفصال وظهور السلطنة العثمانية

واشتد الانحراف . . وآل الحكم إلى أناس لم يتذوقوا حلاوة الإيمان والقرآن من فرس وأتراك . وراح هؤلاء يلعبون بالخليفة ، وبمركز الخليفة وبكل شيء .

وبدأ انفصال الولايات عن بعضها . . فاستبد كل أمير بامارته وكل وال بولايته وتمزع العالم الإسلامي إلى أجزاء متفرقة متبعثرة ، تعرضت ، فيما بعد ، إلى غزو صليبي فاجر . . ثم إلى زحف مغولي ماكر . . وسقطت بغداد ١٢٥٨ وانتقلت الذبالة الباقية من منصب الخلافة الاسمي، الى مصر[2].

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٣ - ١٣٤ .
(٢) انظر تفصيل ذلك في الفصل القادم الهجوم الماكر .

ثم كانت السلطنة العثمانية . . .

وبينما كانت تتقدم في آسيا الصغرى وتقف على أسوار القسطنطينية فاتحة منصورة ١٤٥٣ ، كانت الأندلس تئن تحت حروب دامية وإخراج نكد (سقطت غرناطة ١٤٩٢) ومع هذا . . « فالعالم الإسلامي الذي كان قد استولى عليه الناس من جراء الكوارث التي حلت به في الشرق والغرب. شعر أثر هذه الانتصارات (احتلال القسطنطينية) التي أحرزها العثمانيون على التوالي ، سواء في البر أو في البحر ، بحياة جديدة ردت اليه الآمال ورفعت رأسه كرة أخرى . . »[1] وآلت الخلافة الاسمية الى بني عثمان فأصبح هؤلاء السلاطين خلفاء . . يتوارثون الخلافة توارث المتاع . . كما فعل من قبل الأمويون والعباسيون والآخرون .

وانحرف العثمانيون كما انحرف أسلافهم ، وأخذت الذبالة الباقية ، الرمز الروحي ، المنصب الاسمي للخلافة ، يتلاشى شيئاً فشيئاً حتى ألغاه أتاتورك، صنيعة الاستعمار، في الساعة السادسة والنصف من صباح ٢ آذار سنة ١٩٢٤.

إن الخلافة على ما كان فيها من ضعف وانحراف رمز التجمع له معقباته في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . . وعندما نلغي هذا المنصب نكون قد قاومنا الانحراف بانحراف أشد . .

ونحن هنا لا ندافع عن العثمانيين ولا عن الملوكية العثمانية فرأينا حتى في الخلافة الأموية والعباسية معروف . . ولكن هذا الرأي لا يعني التخلي عنهما أو نبذهما ، بل هما مع كل ما فيهما من ضلال وانحراف ، حق نحافظ عليه ونعتبره جزءاً من حضارتنا .

إن الإسلام بمبادئه وتنظيماته وشموله لا يرضى بواقع الخلفاء المذل وبما آل إليه الأمر من ضعف وهوان وتخاذل وانحراف . . إلا أنه أيضاً لا يرضى بالغاء منصب الخلافة وبازالة معالمها من الوجود .

(١) العرب والترك محمد جميل بيهم ص ٨٠ .

والخلفاء ، هم كما يقول فيهم الإمام الحسن البصري (هم يلون من أمورنا الجمعة والفيء والثغور والحدود . والله لا يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا وإن ظلموا والله لما يصلح بهم أكثر مما يفسدون)[1] .

هناك اذن اعتبارات إسلامية عليا لا يجوز لنا إلغاء منصب الخلافة مهما كانت الظروف والأحوال .

ولقد أدرك المسلمون في كل زمان هذا الأمر . . « ان خلفاء بغداد كانوا قد خسروا سلطتهم ولا سيما في خارج العاصمة ، ولكن الخلفاء وقتئذ كانوا يحتفظون بسلطة روحية يعترف لهم بها أولئك المتغلبون فضلاً عن سائر العالم الإسلامي »[2] .

وهذا الشعور ، هو نفسه كان سائداً في العالم الإسلامي قبل الغاء الخلافة حتى في أولئك الذين ثاروا مع مصطفى كمال ضد الاحتلال . . فجميعهم كانوا يرفضون حتى مجرد التفكير في إلغاء الخلافة فكيف بالإلغاء ذاته .

يحدثنا **الكاتب الالماني داجوبرت فون ميكوش في كتابه (مصطفى كمال المثل الاعلى)** : ان الذين تعاونوا معه اشترطوا عليه شرطاً واحداً على الرغم من ثقتهم به وهو ألا يقوم بعمل من الأعمال فيه مساس بحقوق السلطان أو فيه تجريح لعواطفه وأكدوا له أنه ينبغي أن تكون الخلافة فوق كل شيء وأن لا تمس السلطنة بضير فأكد لهم ما يريدون لأنه لم يجد مفراً من تقديم هذه التأكيدات)[3] .

(١) مالك لأبي زهرة حاشية ص ٥٢ .

(٢) العرب والترك ، محمد جميل بيهم ص ٦٥ .

(٣) مصطفى كمال ص ٢١٢ عرب هذا الكتاب الى العربية كامل صموئيل مسيحه ونشرته المكتبة الاهلية في بيروت سنة ٩٣٣ وكتب مترجمه عن المؤلف ما يلي « وقد اعتمد المؤلف الالماني على وثائق عديدة انكليزية وفرنسية وايطالية وتركية كما انه ترجم مذكرات مصطفى كمال ذاتها وقد اعتمد على المعلومات الكثيرة التي جمعها من اصدقائه الأتراك فجاء كتابه تحفة تاريخية نادرة ومثلاً أعلى للكتابة بأمانة واخلاص عن سير الرجال والعظماء » ص ٥ .

ويشير الكاتب إلى أن **قضية الغاء الخلافة كانت امرأ منتهيأ عند مصطفى كمال** ومع ذلك فقد أعطاهم ما يريدون من العهود والمواثيق . .

« ولقد أثارت قضية الخلافه ـ أي إلغاؤها ـ اهتمام العالم الغربي بل كان اهتمام الغربيين يفوق ما بدا من المسلمين أنفسهم »[1] .

الصليبية واليهودية وراء الغاء منصب الخلافة :

والحقيقة :

ان الصليبية العالمية واليهودية كانتا منذ قرون تعملان منفردتين في البداية ومتعاونتين في النهاية للقضـــاء على هذا الرمز الباهت ، الخلافة الاسمية الإسلامية . .

فأوروبا التي انهزمت أمام صلاح الدين الأيوبي استيقظت فجأة على ضربات محمد الفاتح فاهتزت وارتاعت وقامت قيامة الغرب فتنادى لاستئناف الحروب الصليبية ثم ما ان ذاع نبأ موت السلطان الفاتح حتى اعتبرت أوروبا موته بمثابة السلامة من خطر كان محققاً . وبلغ سرورها لهذا الخبر حسب رواية لافالييه Lavallée أن قداسة البابا أمر بأن يعتبر يوم وفاة السلطان يوم عيد بأن تقام صلوات الشكر خلال ثلاثة أيام »[2] .

ومن ذلك اليوم . . وأوروبا تستأسد يوماً بعد يوم . . وتنتظر الفرصة المواتية للانقضاض الأخير .

وفي أثناء الحرب الأولى وبعد أن دخل الجنرال اللنبي إلى دمشق وقف بكل وقاحة أمام قبر صلاح الدين ليقول له : الآن انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين قم فقاتل . .

وقبل ذلك ، وعلى ما يبدو ، **كانت اليهودية العالمية قد قررت انهاء**

---

(١) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٣٦٣ .

(٢) العرب والترك محمد بيهم ص ١٠٢ .

فلسطين ، وتنفيذاً لبروتوكولات حكماء صهيون[1] . وبدأ التعاون عميقاً وثيقاً بين اليهودية والصليبية وكانت باريس وسالونيك مركزي هذا التعاون.
الخلافة في استانبول انتقاماً من السلطان عبد الحميد الذي رفض ان يبيعهم.

ففي باريس نشأت جمعية الاتحاد والترقي وكان لهـا فروع في برلين وفي سالونيك . . « وكان فرع باريس منظماً تنظيماً رفيعاً وكان برنامجه متطرفاً ووسائل الدعاية التي يعتمد عليها قوية متينة وأخيراً استطاع فرع سالونيك أن ينتصر على الفروع الأخرى إذ بدأ أعضاؤه يعدون العدة للثورة .

« وكانت **المحافل الماسونية** . . وعلى الأخص المحفل الايطالي الأكبر في سلانيك ترحب بأعمال هذه الجمعية وتنتصر لها انتصاراً أدبياً وكانت الجلسات تعقد في غرف المحافل الماسونية التي يستحيل على الجواسيس أن يصلوا اليها مهما بذلوا من جهـد وكان كثير من أعضاء هذه المحافل مندمجين في جمعية الاتحاد والترقي وبهذه الوسيلة استطاعت الجمعية أن تضاعف عددها وتقوي نفوذها بفضل المعونة التي كانت تتلقاها من (الأحرار) كما أن أعضاء الاتحاد والترقي كانوا ينتفعون بالأساليب الماسونية في الاتصال باستانبول بل في التقرب من القصر ذاته »[2] .

وخطورة سلانيك تكمن في **جماعة الدونمة** . . وحتى يعرف من هم يجب أن نسمع إلى محمد جميل بيهم في كتابه الترك والعرب حيث يقول (هذا ويرد بعض المراقبين الفتور الديني الذي بدأ من قبل ويبدو الآن * في الأوساط السياسية التركية الى جماعة (الدونمة) أولئك الذين تآمروا على السلطان

---

(١) تنبأ العالم الروسي سرجي نيلوس الذي نشر بروتوكولات صهيون لأول مرة في روسيا عام ١٩٠٥ بزوال الخلافة في استانبول وقيام الثورة البلشفية في روسيا وانهيار عروش ملكية في أوروبا ـ راجع مقدمة الكتاب للاستاذ محمد خليفة التونسي ص ٣٣ الطبعة الثالثة حيث جاء ما نصه : ومنها نبوءته بسقوط الخلافة العثمانية على أيدي اليهود قبل تأسيس اسرائيل .

(٢) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٥٦ ـ ٥٧ ـ ٥٨ .

* سنة ١٩٥٧ .

عبد الحميد الثاني وقاموا في عداد من قام بالانقــلاب العثماني باسم « جمعية الاتحاد والترقي » التي استأثرت بالحكم حتى زوال السلطة (والدونمة) هم يهود كانوا يقطنون في ولايــة سلانيك اعتنقوا الاسلام بعد الفتح العثماني التماساً للحظوة والنفع أسوة بيهود إسبانيا الذين تنصروا في عهد فرديناند والبزابيت هرباً من مظالم مجلس التفتيش .

« وقد بقي ولاء الدونمة الى اليهودية العالمية محفوظاً في قلوبهم إبان عهد السلطنة وبعدها وكان يبدو في مناسبات كثيرة ولا سيما في المناسبات التي لها صلة باليهود . وآية ذلك ما حدث منذ نيف وعشرين عاماً أثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في مدينة بال وهي معقل اليهود في أوروبا الوسطى فقد كان رشدي أراس وزير الخــارجية التركية يومئذ موجوداً في سويسرا فأفضى بحديث الى مجلة سويسرية لمناسبة هذا المؤتمر جاء فيه : « انه مسلم من أبوين مسلمين ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً أن يعلن أنه ينحدر من صلب أجداد يهود وإنه يعطف على الصهيونية وأهدافها » (١) .

ان الأسباب جميعاً قــد تهيأت . . ولا بد من الرجل القائد ، فكان **مصطفى كمال من سلانيك من الدونمة** .

يصف مصطفى كمال في مذكراته ، والده فيقول :

« كان . . رجلاً حر الفكر يقــاوم رجال الدين ويؤيد الأفكار التي تتسرب من الغرب ويتشبث بهــا فكانت أمنيته أن يجدني في عداد تلاميذ مدرسة « عالمية » دنيوية لا « دينية » (٢) .

ويقول : « انه كان شديد العنــاية بأناقة ثيابه . يريد أن يظهر بجلاء الناس أنه وإن كان ضئيل الثروة فهو جنتلمان لا يقــل شأناً عن أرقى الأوروبيين . . وكان من ناحية أخرى يريد أن يعتقد الناس فيه أنه أوروبي

(١) العرب والترك ص ١٩٨ - ١٩٨ .
(٢) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٧ .

في مظهره الخارجي كما هو أوروبي في أفكاره وميوله وأنه ودع الثيــاب التركية القديمة » .

أما مصطفى كمال نفسه فقد دخل الى المدرسة الحربية في استانبول بعد أن كان « إبان العطلات المدرسيه في سلانيك يتلقى الدروس الفرنسية سراً ؟ من رئيس دير ؟ فرنسي يدير مدرسة وكان يشدد على تلميذه **مصطفى ويعتني به عناية خاصة** » (١) .

فلماذا كان يتلقى الدراسة سراً من رئيس دير يدير مدرسة علنية ومــا معنى هذه العناية الخاصة . . ثم لماذا انتقل الى الحربية في استانبول ؟

هذا ما نبأتنا به الأيام فيما بعد . . فقد كان عضواً في الاتحاد والترقي . . ثم أصبح قــائداً (غازياً) محرراً للبلاد . . ثم أصبح رئيساً . . ثم ألغى الخلافة والسلطنة .

بدأ مصطفى كمال حياته العامة بسيطاً ثم ضخمته الأحداث إلى أن استطاع تشكيل مجلس وطني في أنقرة التي جعلها مركز نشاطه ومقاومته الاحتلال اليوناني .

وبفضل الدعم الانكليزي الظاهر والمستتر ألف مصطفى كمال حكومة انتقالية وسارعت الدول الغربية للاعتراف بهــا ـ مع اعترافهم بحكومة استانبول ـ ثم دعيت حكومة أنقرة للمفاوضات في لوزان .

ويقال ان **كرزون وزير خارجية انجلترا** ورئيس وفدها لمؤتمر لوزان المنعقد في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ قد وضع للوفد التركي الذي كان يرأسه عصمت أنونو أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي :

١ ـ الغاء الخلافة الغاءً تاماً وطرد الخليفة خارج الحدود ومصادرة أمواله

(١) المصدر السابق ص ١٩ .

٢ ـ اعلان علمانية الدولة .

٣ ـ أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية .

٤ ـ أن يستبدل الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور ـ مدني بحت ـ وعلق نجاح المؤتمر على هذه الشروط الأربعة ولذلك انفض المؤتمر في ٤ شباط سنة ١٩٢٢ من غير أن يسفر عن نتيجة وأعلن اخفاقه وعاد عصمت إلى تركيا فهرع مصطفى كمال إلى لقائه في (اسكي شهر) حيث عرف منه جميع الأمور [١] . وهذه الشروط كانت إحدى أمنيات مصطفى كمال أو أحد الأمور التي كلف بها منذ زمن بعيد .

فمصطفى كمال يرى ـ كما يقول الكاتب الألماني داجوبرت فون ميكوش ـ (أن ضرورة خلق الدولة التركية القومية البحتة ومراعاة تخومها الطبيعية من الأمور الجلية كل الجلاء . . ولكن خطته التي كان ينوي تنفيذها والعمل بها كانت من الجرأة والاقتحام ما يصعب تصوره في ذلك الحين لدرجة أن اضطر مصطفى لإخفاء هذه الأغراض حتى عن رفاقه ؟

« ويعلم الله انه لو كان قد حدث أقرب الناس اليه في ذلك الزمن عن « الجمهورية » مكان (السلطنة) وتكوين الدولة (الدنيوية) مكان (الدينية) لما كانوا فهموه بل كانوا إذا فهموه يأبون حتماً أن يتبعوه . . [٢] .

أما وقد ربط مصير تركيا واستقلالها بالغاء الخلافة . . (هذا الشيء الخيالي الذي (لا معنى له ولا مبرر لوجوده) كما يقول مصطفى كمال [٣] فلا بد من تحقيقه ، أي إلغاء الخلافة ، فالاستقلال أهم شيء في الوجود !

---

(١) كيف تهدمت الخلافة لعبد القديم زلوم ص ١٨١ وقارن به المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام للاستاذ الصواف ص ١٧٤ .

(٢) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ١٨٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٣ .

وبدأ التحرك . . .

فأجرى انتخابات عامة ، وتدخل تدخلاً سافراً « لتغليب حزبه حزب الشعب على غيره . . حتى إذا عقد المجلس النيابي » [١] فاجأ الجميع باقتراح إعلان الحكم الجمهوري والغاء السلطنة . . وأخذ الأعضاء يظهرون تخوفهم من هذه الخطوة الجريئة ولكنهم وجدوا أنهم أمام الأمر الواقع وأن هذه الهجوم الفجائي قد نجح نجاحاً تاماً . . وبعد مناقشة صورية ؟ وافق الأعضاء على الحكم الجمهوري . . واستقرت الحالة على أن يكون الإسلام دين الدولة وأن يكون مصطفى كمال رئيساً للجمهورية [٢] .

وحكم مصطفى البلاد حكماً مستبداً وأصدر قانوناً يقضي بالموت على الذي يهاجم الجمهورية . . وراح مصطفى ينسق الخطط لإلغاء الخلافة وعلمنة الدولة . .

ولنترك الكلام الآن الى الكاتب الألماني ميكوش ليصف مرحلة الإلغاء وما رافقها :

الماني يصف مرحلة الغاء الخلافة

« بعد ان تحولت الدولة الى جمهورية كان من الضروري أن يبت في قضية الخلافة ووجد الخصوم الذين لم يرتاحوا لاعلان الجمهورية ولم يطمئنوا لازدياد قوة مصطفى كمال أن الأمل الوحيد في التخلص من هذه الحالة إنما يكون عن طريق مهاجمتهم لمصطفى كمال من ناحية الخلافة .

« واخذت الصحف التي تصدر في اسطنبول تقاوم الحكم الجمهوري علناً ووجد مصطفى كمال أنه من الضروري أن يعمل على إلغاء الخلافة قبل أن يصبح فيضان المعارضة السياسية والدينية جارفاً يكتسح السد المحكم الذي

---

(١) العرب والترك ص ١٧٧ .

(٢) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٣٦٠ .

بناه وعلى الأخص لأن الخليفة كان موضع احـترام ٣٥٠ مليون نسمة من المسلمين الذي يقيمون في ممـالك متعددة وهو لا يعتمد إلا على الأتراك الذين كانوا لا يزيدون عن أربعة عشر مليوناً ..

«وأعلن مصطفى كمال بكل صراحة ووضوح ان وظيفة الخلافة ليست لها قيمة مادية أو سياسية ولا مبرر لوجودها .. إلا كأثر من آثار المـاضي المظلم ؟ !!

« وفي **أول** آذار اجتمع المجلس الوطني.. وكانت تدور الخطبة الافتتاحية حول ضرورة القضاء على الخلافة .

« وأخيراً استطـاع مصطفى كمال ان يفوز في أيام بالنتائج التي لم تتوصل إليها أوروبا إلا بعد حروب مائة سنة فصل الكنيسة عن الدولة أو الخلافة عن الدولة .

« أجل .. **في اليوم الثاني وافق المجلس الوطني في الساعة السادسة والنصف صباحاً على الغاء الخلافة** بعد جدال استغرق ساعات الليل كلهـا وطلب من الخليفة وأفراد أسرته مغـادرة البلاد في مدة عشرة أيام وحرم عليهم الإقامة في تركيا والغيت كل الوظـائف الدينية وأصبحت أوقاف المسلمين ملكاً للدولة .. كما أن المدارس الدينية تحولت إلى مدنية وباتت تحت رقابة وزارة المعارف ..

« وقد أثارت قضية الخلافة إهتمام العالم الغربي بل كان اهتمام الغربيين يفوق ما بدا من المسلمين أنفسهم .

« وكان الهنود يؤيدون الأتراك في نهضتهم الوطنيـة ويدافعون عن قضيتهم في انكلترا لهذا كان احتجاجهم شديداً على الغـاء الخلافة وبذلت الجهود الكبيرة لجعل مقر الخلافة الجديد الحجاز أو مصر .. ولكن ضاعت هذه الجهود عبثاً ..»[1]

(١) مصطفى كمال المثل الأعلى ص ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ .

« ومنذ ذلك أسفر مصطفى كمال عن وجهه الحقيقي وشرع يوجه الدولة الجديدة شطر العلمانية (التي يؤمن بها) ؟

« ولقد استهل مصطفى كمال عهده بترجمة القرآن الكريم الى اللغة التركية وبإلغاء وزارة الأوقاف الإسلامية ونظام الوقف والمحاكم الشرعية وقوانينها ثم عمد الى رفع الحجاب والغاء تعدد الزوجات وأمر بالغاء الطرق الصوفية والتكايا ومصادرة أموالها وبأخلاء جامع أيا صوفيـا وإعداده في مصاف الآثار القديمة .

ثم والى أعماله التجديدية (؟) فمنع الطربوش ودعا الى استبداله بالقبعة (١٩٢٥) وعدل الدستور لكي يحذف منه العبارة التي تنص أن الإسلام دين الدولة (١٩٢٨) وألغى تدريس العلوم الدينية (١٩٢٩) وأدخل إلى الجوامع تلاوة القرآن بالتركية وحول الآذان إلى هذه اللغة (١٩٣٢) ورفع من برنامج جامعة استانبول القسم الديني (١٩٣٣) وحظر على رجال الدين الاستمرار على التزيّ بلباسهم القديم (١٩٣٤) الخ ..

(هذا فضلا عن إعلانه المساواة التامة بين الرجـل والمرأة في الميراث بالإضافة إلى تبديله الحروف العربية بالحروف اللاتينية وحمله الشعب على تغيير أسمائهم وكناهم بأسماء وكنى ترجع الى الطورانية وذلك أسوة به إذ أسمى نفسه أتا تورك عوضاً عن مصطفى كمال .

يعلق المستشرق الأمريكي أرنولد توينبي (على أحداث تركيـا الكمالية بقوله : [1]

« ولم يكتف الأتراك بتغيير دستورهم (وهو شيء سهل نسبياً في مجال الاصلاح الدستوري) . بل قامت الجمهورية التركية الوليدة بخلع المدافع عن الدين الاسلامي – الخليفة – وألغت منصبه – أي الخلافة ، وجردت رجـال

(١) الاسلام والغرب تعريب الدكتور نبيل صبحي ص ٥٠ الصادر سنة ٩٦٩ .

الدين المسلمين وحلت منظماتهم، وأزالت الحجاب عن رأس المرأة واستنكرت كل ما يرمز إليه الحجاب وأجبرت الرجال على ارتداء التبعات التى تمنع لابسيها من أداء شعائر الصلاة الإسلامية التقليدية، خاصة السجود، وكنست * الشرعية الاسلامية بأكملها وتبنت القانون المدني السويسري بعد أن ترجمته الى التركية وطبقت قانون الجرائم الايطالي وذلك بفرض هذين القانونين بعد التصويت عليها في المجلس الوطني، وغيرت الأحرف العربية بأحرف لاتينية وهذا أمر لا يتم الا بطرح القسم الأكبر من التراث الأدبي العثماني القديم

« وأهم وأشجع تغيير قام به أولئك الثوريون في تركيا هو ما قدموه للشعب من قيم ومثل اجتماعية جديدة ».

.. واعترفت الدول باستقلال تركيا وانسحب الانجليز من استانبول والمضايق وغادر هارنجتون ـ قائد قوات الحلفاء والصديق الحميم (؟) لمصطفى كال ـ تركيا وعلى اثر ذلك احتج أحد النواب الانكليز على كرزون ـ وزير خارجية الانجليز ـ في مجلس العموم لاعترافه باستقلال تركيا فأجابه كرزون قائلاً [1] :

القضية إن تركيا قد قضي عليها ولن تقوم لها قائمة لأننا قد قضينا على القوة المعنوية فيها . الخلافة والاسلام [2].

وهكذا انتصر الغرب على الشرق وزالت الخلافة الاسمية (؟) من الوجود بعد أن دالت دولة الإسلام عبر الزمن والقرون ..

فهل من بعث جديد ؟

« وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

« وليس ذلك على الله بعزيز » .

---

* هذا هو تعبير المستشرق !!

(١) كيف هدمت الخلافة ١٩٠ .

(٢) خاب ظنهم فقد عاد الإسلام يزحف من جديد إلى قلوب الأتراك ومؤسساتهم ! ؟ ! انظر الحركة النورسية في تركيا في فصل المجابهة من هذا الكتاب .

الفصل السادس

الهجوم الماكر

منذ مطلع الإسلام ، وأعـداء الإسلام يشنون عليه الهجوم تلو الهجوم بمختلف الأسلحة والأساليب . . وفي كل معركة خرج هذا الدين منتصراً مثبتاً إصالته واستعلاءه ومحبطاً مؤتمرات المهاجمين ، القاضية باجتثاث جذوره من الأرض والقضاء عليه في الوجود .

فبعد عبد الله بن سبأ اليهودي الماكر وفتنته الكبرى تعرض التصور الإسلامي لهجمات مقنعة من الفلسفة الاغريقية فاضطرب إيمان بعض الناس والمفكرين بما فيهم الإمام الحجة أبي حـامد الغزالي حتى قذف الله في قلبه النور فبدد حجب الجاهلية الجديدة ورد على الفلسفة والمتفلسفين [١]

الحملات الصليبية بين اهدافها ومجاهدتها :

وفي أواخر القرن الخامس الهجري حيث كانت الدولة العباسية على ما وصفنا من ضعف وتجزئة هبت أوروبا ملبية نداء البابا [٢] للغزو الصليبي ،

---

(١) راجع التاريخ الاسلامي للدكتور شلبي وكتاب الماسونية وكتاب المنقذ من الضلال للامام الغزالي .

(٢) هو البابا اربان الثاني . وجاء في الموسوعة الميسرة مادة الحروب الصليبية ص ٧٠٩ ما نصه : « وقد كان دافع الحروب الصليبية المباشر هو الموعظة التي القاها اربان الثاني في مجمع كارمونت سنة ١٠٩٥ وحث فيها العالم المسيحي على الحرب لتخليص القبر المقدس من المسلمين ووعد المحاربين بأن تكون رحلتهم الى الشرق بمثابة غفران كامل لذنوبهم كما وعدهم بهدنة عامة تحمي بيوتهم خلال غيبتهم . راجع ايضاً كتاب العرب لفيليب حتي ص ٢١٨ حيث يقول عن البابا «انه استنهض همم المؤمنين لسلوك الطريق المؤدية الى كنيسة القيـامة وانتزاعها من أيدي القوم الأشرار والاستيلاء عليها » .

لما استنفرها ، وقذفت بلادنا بمئات آلاف من أبنائها رافعين الصليب مرددين صيحة واحدة : ان الله يريدها [١] .

ونزلت جموع الصليبيين الوافدين من أوروبا بأرض الشام واستطاعت أن تقطع الأجزاء الساحلية وفلسطين وأن تقيم فيها أربع إمارات لاتينية [٢] ويمكن لنا أن نلخص أهداف الحملات الصليبية في هدفين كبيرين :

اولهما : إذلال المسلمين بغزوهم في عقر دارهم [٣].

ثانيهما : إقامة إمارة أو إمارات صليبية وخاصة في فلسطين تدوم الى الأبد وتتوسع حتى تقضي على الإسلام والمسلمين [٤] .

وبدأت حروب الجهاد والتحرير من قبل المسلمين وقيض الله لهم عمادالدين زنكي سنة ٥٤١ «الذي قارع الصليبيين وهزمهم في معارك كثيرة وفتح الرها وقام بعده ولده العظيم الملك العادل نور الدين محمود زنكي ٥٦٩ وصمم على إجلاء الصليبيين من الشام واسترداد القدس للمسلمين ومات رحمه الله قبل أن يكمل مهمته وخلفه في ذلك أحد رجاله وحاشيته الملك الناصر السلطان

---

(١) أي ان الله هو الذي أراد الحرب الصليبية . انظر حاشية كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية للدكتورين خالدي وفروخ ص ٣٣ وقارن بها قول الاب نسانتور رئيس الكلية اليسوعية في بيروت الذي قـال : « ليس من أحد يستطيع أن يمنع تلك الروح أن تعيد على آذاننا قولها بالأمس وصرخة أسلافنا الصليبيين من قبل : ان الله يريدها » . انظر ايضاً كتاب العرب للدكتور فيليب حتي ص ٢١٨ « وللحال تنادى الفرنجة الى الحرب صارخين انها ارادة الله » فرددت بلادهم هذه الصرخة وتجاوبت أصداؤها في كل ناحية فملكت جو مع القلوب».

(٢) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار للاستاذين محمد سعيد العريان وجمال الدين الشيال صفحة ١٧ .

(٣) « ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا » حديث شريف .

(٤) يقول غاردنر : « لقد خـاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الاسلامي . . والحروب الصليبية لم تكن لانقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الاسلام » راجع التبشير والاستعمار صفحة ١١٦ .

صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر وهو الرجل الذي هيأه الله لهذه المهمة العظيمة وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والاخلاص والتجرد للغاية والحرص على الجهاد والتفاني في سبيله وعلو الهمة في نصر الإسلام وقتال أهل الكفر والبغي وحسن القيادة وقـــوة التنظيم والصلاح والديانة والفتوة والإنسانية ومكارم الأخلاق ما لا يجتمع إلا في أفذاد الرجال في العـــالم فكان بذلك معجزة من معجزات الإسلام ودليلاً على أن الإسلام لم ينته دوره ولم يفقد الحيوية والانتاج .

ووقف العـــالم المسيحي وقفة رجل واحد أزاء المسلمين ولكنه لم يستطع أن يزحزح صلاح الدين عن مكانه ، كان جيش صلاح الدين قد أعياه الجهاد الطويل والمتاعب العظيمة . فقد ظل أعواماً طوالاً مرابطاً مناضلاً مكافحاً قوياً ولكن لم يسمع من جندي واحد أنين أو شكاة انهم لم يتأخروا يوماً في الحضور ولم يضنوا قط بالنفائس والنفوس كلما دعاهم صلاح الدين الى الجهاد وكلما استنفرهم للقتال (١) .

ويتعاقب على حلبة الجهاد والكفاح أبطال غرميامين قطز وبيبرس وقلاوون ويقوم كل منهم بدوره في تسديد الضربات الى قلب الصليبي المنتحر . . . وينتصر الإسلام في صراعه ضد الصليبية المـــاكرة (٢) وتعود هذه تجر ذيول العار والهزيمة من حيث جاءت خائبة حسيرة .

(١) ماذا خسر العالم صفحة ١٣٠ - ١٣٣ نقلا عن تعليق المؤرخ الانكليزي .

(٢) قارن بين حقائق التاريخ هذه وبين ما أثبتته محاضرات التعليم الديني لاتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس طبعة ١٩٢٨ والتي نالت رضا البابا ليـــون الثالث عشر تقول هذه المحاضرات « ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارشل سداً في وجه سير الاسلام المنتصر عند بواتيه ٧٥٢ م ثم تعمل الحروب الصليبية في مـــدى قرنين تقريباً ١٠٩٩ - ١٢٥٤ في سبيل الدين فتدجج أوروبا بالسلاح وتنجي النصرانية وهكذا تقهقرت قوة الهـــلال أمام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الاخلاق السهلة » . راجع كتاب التبشير والاستعمار ص ٦٨ - ٦٩ .

موالاة بين الصليبية المندحرة والوثنية المتقدمة :

وبعد هجوم الصليبية على الاسلام كان هجوم الوثنية .. فها هي جحافل المغول والتتار تزحف من أقاصي الشرق تهدر بقوى بشرية عاتية .. وتسقط بغداد ٦٥٦ هـ وينتشر فيها هؤلاء الزاحفون الدمـار والخراب ويفتكون بمئات الآف ..

في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ الدنيا .. ينعقد الحلف والموالاة بين الصليبية المهزومة وبين الوثنية المتقدمة.. والهدف : القضاء على الاسلام . فقد صادف تقدم المغول بقاء بعض الأجزاء من ديار الاسلام في بـلاد الشام تحت نير الصليبيين وكأن هؤلاء قـد وجدوها فرصة سانحة للثأر من المسلمين لهزائمهم المتتالية وتناسى هؤلاء خطر الوثنية على الدنيا بما فيها صليبيتهم .. (وأعمى حب الثأر « عيونهم » عن الكارثة التي تتهددنا وتتهددهم فأرسلوا الى المغول يحالفونهم ويآمرونهم على الايقاع بنا (١) .

ذكر محمد جميل بيهم في كتابه العرب والترك (٢) انه (لمـا قضت الحملة المغولية وطرها من الدولة العباسية واصلت الزحف الى الأمـام حتى بلغت شواطىء البحر المتوسط في بلاد الشام . غير أنها لم تتعرض للبقية الباقية من المناطق التي كانت لا تزال في حوزة الصليبيين بالشام ، وأهمها انطاكية ويافا وعكا. ويرجع ذلك الى ما كان بين المغول والصليبيين من العلاقات الطيبة وما تخللها من مفاوضات كان قداسة البابا يتولاها للإتفاق معاً على المسلمين ..»

.. إلا أن (عين جالوت) كانت القول الفاصل في كل شيء.. في الوثنية الزاحفة وفي الصليبية المتآمرة المولية ..

واذن الله ــ سبحانه ــ ان يرفع المسلمون من جديد على ربى وادي

(١) قصة الكفاح بين العرب والاستعمار ص ٩٦ .

(٢) العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ص ٧٤ وأيضاً كتابه فلسفة التاريخ العثماني .

بيسان بفلسطين في الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ رايات النصر على هامات الأعداء وثنيين وصليبيين ..

بيد ان أوروبا بعد حرب القرنين وبعد هزيمتها المنكرة في حربها ضد المسلمين وبعد اخفاقها في تحقيق أهدافها الصليبية عادت ، من جديد ، تفكر بهجوم آخر وبأسلحة أخرى وبأساليب أخرى .. وكان أمام البابا سلسلتين الخامس أحد طريقين :

اولهما : مـــا عرضه الصليبي المبشر رامون لل وتتخلص خطته بغزو المسلمين تبشيرياً ويتوسل لذلك بالعلم والمدارس فاذا مـــا فشلت يلجأ عندئذ لأسلوب القوة في تنصير المسلمين [1].

ثانيهما : تنصير المغول واستخدامهم ، من جديد ، في حرب طاحنة ضد المسلمين .

ووجد البابا ان النهج الثاني أفضل وأقرب خاصة وأن الصليبيين كانوا قد أقاموا صلات مباشرة مع المغول أثناء زحفهم على الشرق . فيمكن والحالة هذه ، أن يفتح المغول قلوبهم للتنصير ويبدأ عهد جديد من تعاون فعـــال هادف بين اوروبا وأقاصي الشرق وتصبح عندئذ المنطقة الإسلامية في فكي كماشة . ويغدو النصر والتنصير قريبي المنال ..

« ومهدت الكنيسة زمناً طويلاً لتنصير المغول»[2] إلا ان جهودها ذهبت أدراج الرياح .. وانقلبت الأوضاع رأساً على عقب وتبدل الموقف .. فهؤلاء المغول ، محط الآمال ، الزاحفون على الشرق المسلم ، يعتنقون الإسلام طواعية ومن تلقاء أنفسهم . . عند ذلك (زال أمل كبير من آمال الدول الغربية للسيطرة على الشرق عن طريق الدين) [3] .

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٧٣ و ٧٤ .

(٢) و (٣) المصدر السابق ص ١١٧ نقلاً عن اديسون .

تغير المواقف واعلان خطة لـل التبشيرية :

وأحبطت خطة البابا الصليبية من جديد وتبدل الموقف بسرعة وعادت أوروبا تتلقى ضربات شداداً من المسلمين بقيادة محمد الفاتح فطار صواب البابا وحار في أمره وبدأ ينتظر ساعة الخلاص حتى انه لم يتردد باقامة صلوات الشكر ثلاثة أيام عندما علم بوفاة هذا الفاتح العظيم واعتبر يوم موته عيداً رسمياً يحتفل به [1] .

اقتنعت أوروبا وعلى رأسها البابا بفعالية الخطة الأولى التي عرضها لل عام ١٢٢٩ والقاضية بوجوب غزو المسلمين تبشيرياً عن طريق العلم والمدارس .. خاصة وان علاقة قد نشأت وتوطدت بين الصليبيين وبين طائفة من أهـل الشرق وهم موارنة لبنان [2] فلربما كان بالامكان أن يصلوا عن طريقهم الى ما تصبوا اليه نفوسهم ، ويحققوا بواسطتهم مـــا عجزوا عنه بواسطة المغول الوثنيين .

---

(١) كتاب العرب والترك لمحمد جميل بيهم ص ١٠٢ .

(٢) يقول الاستاذ ميشال غريب في كتابه الطائفية والاقطاعية في لبنان ص ٣٤ - ٣٥ ما نصه : « ترجع علاقة الاوروبيين بلبنان الى عهود الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر إذ كان موارنة لبنان لا يقفون في وجه الجيوش الصليبية الزاحفة الى القدس بل كانوا على العكس يمدونهم بكل عون ومساعدة ، بالعتاد والرجال وكان ذلك طبيعياً للموارنة . اذ كانوا يقاسون حالة من الفوضى السياسية لا تطاق * فرحبوا بالصليبيين أحسن ترحيب لانسجامهم واياهم بالدين والمعتقد وتوطدت بينهم أطيب العلاقات واستغل الفرنج هذا الحال فجعلوا للماروني المكانة المرموقة في الدول التي انشاؤها وميزوهم عن سواهم بالرتب والنعم وزادوا في اضطهاد المحمديين والتنكيل =

---

* من العجيب أن يذكر المؤلف الاستاذ غريب هذا وكان في الصفحات ١٨ - ١٩ - ٢٠ من كتابه نفسه قد أثبت حسن معـــاملة المسلمين عبر التاريخ للنصارى وخاصة في عهد صلاح الدين الايوبي حتى انه استشهد ببيتين من الشعر لاحد الشعراء قال فيهما :

فاق دين المسيح في دولة العادل ... حتى عـــلا على الاديـــان
ذا أمير وذا وزير وذا وال ... وذا مشرف على الديوان

للهجوم محاور ولكل محور اسلوب ومنهاج :

والحقيقة أن أوروبا في حربها الجديدة ضد المسلمين لم تعتمد محوراً واحداً في الهجوم الماكر . ففضلاً عن أسلوب التبشير المعروف بخطة لل فقد ضربت بكل فكرة ظهرت فيها ، بلاد المسلمين ، وجعلتها محوراً في صراعها مع الإسلام .

ان أوروبا التي لفظت الكنيسة وآمنت في بعض المجالات بقيم الحادية [1] تعاونت باخلاص مع الكنيسة ومع الالحاد ومع القيم الجديدة ومع كل شيء في سبيل تأمين نصرها في هجومها الماكر الجديد. « فهي قد علمت ، بشكل قطعي ، ان للاسلام فاعلية وحركة تؤهلاته دائماً لرد الهجوم وللقيام بهجوم مضاد ولتحويل الهزيمة الى نصر كاسح .

يقول لورانس براون : « لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة ولكننا بعد اختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف ، لقد كنا نخوف من قبل « بالخطر اليهودي » * والخطر الأصفر ، وبالخطر البلشفي إلا أن هذا التخويف كله

= بهم وهذا ما يجمع عليه كبار المؤرخين نذكر منهم الاستاذ أديب فرحات الذي يقول في مؤلفه عن تاريخ لبنان وقد ساعد مردة لبنان الصليبيين كثيراً فان أميرهم يوحنا أرسل ولده سمعان بنجدة لا تقل عن خمسة وعشرين الف مقاتل لنصرة لويس التاسع ملك فرنسا الذي وافى عكا لينجد الافرنج سنة ١٢٥٠ فرحب بهم الملك لويس واكرمهم وحملهم رسالة الى بطريرك الموارنة وأساقفتهم يصرح فيها بأنه اتخذ طائفتهم المارونية تحت حمايته أما العلامة الدكتور فيليب حتى فيذكر في مؤلفه الكبير (لبنان في التاريخ). . ما يلي: وحسب تقليد الموارنة فان لويس التاسع كان أول صديق فرنسي لهم تقول الرواية انه عندما نزل الى البر في عكا تقدم اليه وفد مؤلف من خمسة وعشرين الف ماروني ومعهم المؤن والهدايا وفي هذه المناسبة سلمهم رسالة مؤرخة في ٢١ أيار سنة ١٢٥٠ فيها تصريح بأن فرنسا تتعهد بحمايتهم يقول في هـــذه الرسالة ونحن مقتنعون بأن هذه الامة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الامة الافرنسية .

(١) راجع الفصل الاول من هذا الكتاب .

* اسم كتات ظهر في أوروبا في مطلع القرن العشرين ويعرف هذا الكتاب ايضاً : « ببروتوكولات حكماء صهيون » .

لم يتفق كما تخيلناه . اننا وجدنا اليهود أصدقـــاء لنا وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الأكبر ثم رأينا ان البلاشفة حلفاء لنا * أمـــا الشعوب الصفر فهناك دول ديمقراطية كبرى تقاومها . ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قوته على التوسع والاخضاع وفي حيويته : انـــه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي[1]» هذه الحيوية هي التي تخشاها أوروبا، أو كما يقول غـــاردنر [2] « ان القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا » .

فالصراع اذن عنيف وخطير فلا بد من إحكام الهجوم وتكثير المحاور حتى اذا فشل محور انتصر آخر .

ومن هنا تعددت محاور الهجـــوم الماكر حتى كاد الباحث يعجز عن تحديدها وتبينها واتخذ كل محور في التحرك والعمـــل ، أسلوباً ومنهاجاً ، يختلف عن شكل وموضوع المحور الآخر . . ولقد دق الهجـــوم في بعض المحاور بشكل استساغه كثير من المسلمين فسالموه وهادنوه ثم عملوا معه حتى غدوا هم أنفسهم جنود هـــذا المحور في هجومه الماكر ضد الإسلام وضد حركته وحيويته وفاعليته .

واننا ، وفي سبيل الدراسة الموضوعية ، نصنف محاور هـــذا الهجوم الماكر الى ما يلي :

أولاً : محور التبشير والاستشراق .
ثانياً : محور الجمعيات والأحزاب .
ثالثاً : محور الاتجاهات الفكرية الحديثة .
رابعاً : محور محاربة الاتجاه الإسلامي والتشكيك به .

* أصدر المؤلف لورانس براون كتابه عام ١٩٤٤ إبان الحروب العالمية الثانية (من حاشية كتاب التبشير والاستعمار ص ١٨٧) .
(١) التبشير والاستعمار ص ١٨٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٣١ وغاردنر هذا هو أحد المبشرين الصليبيين .

(١٠)

● محور التبشير والاستشراق

يظن البعض أن الاستشراق جهد فكري لا صلة له بالتبشير وانه يقوم أساساً على البحث العلمي والدراسة الموضوعية .

والحقيقة أن (هذا الظن) لا يغني عن الحق شيئاً . . ولو أنه ينطبق الى حد مـا ، على بعض المستشرقين ، وهم قلة على كل حال ، وشذوذ على القاعدة ، فالمستشرقون ، صنوا المبشرين ، ونسخة مماثلة عنهم بل ربما كانوا أخطر منهم ، إذ تزيوا بزي البحث العلمي والموضوعي ونفـوا عن أنفسهم الصفة التبشيرية والتعصبية فاغتر بهم المفتونون بكل شيء مسدول عليه — ولو كذباً وزوراً — الستار العلمي .

ان محور التبشير والاستشراق أقدم المحاور ، على الاطلاق ، في الهجوم الفكري على الإسلام . ويعود تاريخ الاستشراق في بعض البلدان الأوروبية الى القرن الثالث عشر الميلادي وربما كانت هناك محاولات فردية قبل ذلك والسبب الرئيسي المباشر الذي دعـا الأوروبيين الى الاستشراق هو سبب ديني في الدرجة الأولى فقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة . ومن جهة أخرى رغب المسيحيون في التبشير بدينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم الى العالم الإسلامي . .

« وبجانب هذا وذاك كان هناك أسباب أخرى فرعية لنشأة الاستشراق أسباب تجارية وأسباب سياسية دبلوماسية وأسباب شخصية مزاجية »[١] .

ان للحروب الصليبية أثراً كبيراً في ابتكار هذا المحور . . فهؤلاء الغزاة ،

---

(١) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي ص ٥٢٢ - ٥٢٣

بعد احتكاكهم بالمسلمين وبعلومهم ومعارفهم ، وجدوا من المفيد لهم لهجمات قادمة ، دراسة أوضاع الشرق الإسلامي ونقل علومه . . وأدت هذه الى عملية الاستشراق من جهة والى التبشير من جهة أخرى .

أهداف محور التبشير والاستشراق :

ويمكن تحديد أهداف هذا المحور بما يلي :

الهدف الاول : تشكيك المسلمين باسلامهم وعقيدتهم وثقافتهم والحيلولة دون تجمعهم واتحادهم .

يقول الدكتور زويمر في خطابه أمام المبشرين « ان مهمتكم أن تخرجوا المسلمين من الإسلام ليصبحوا مخلوقات لا صلة لها بالله وبالتالي لاصلة لها بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها »[١] .

ويقول المبشر تكلي : « يجب انشاء المدارس وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي ، ان كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانكليزية . ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً جداً »[٢] .

« ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم في سبيل ذلك ، ثم يرجون كلهم مما يكتبون ، أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية وبين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية والتي يعدونها نصرانيـة لأن أمم الغرب تدين بالنصرانية ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية الإسلامية وبالتالي الى ابراز نواحي النشاط الثقافي

---

(١) من خطاب زويمر في المؤتمر التبشيري في القدس نقلناه عن مقـال في جريدة الشباب البيروتية الصادرة في ١٩٧٠/٧/١٥ .

(٢) التبشير والاستعمار ص ٨٧ .

في الغرب وتفضيلها على أمثالها في تاريخ العرب والإسلام وما غايتهم من ذلك إلا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذه الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية [1].

ويعترف المبشرون بأن التبشير الرسمي واكتساب المسلمين الى صفوف النصرانية قد خاب من أجل ذلك قنع هؤلاء المبشرون أن يكون عملهم الانساني قاصراً على زعزعة عقيدة المسلمين على الأقل [2].

وصرح رئيس الجامعة الأميركية في بيروت المستر بنروز ان المبشرين يمكن ان يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر وهو تنصير المسلمين جماعات إلا أنهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة ..[3]

وأكثر أعمال المستشرقين تنصب في هذا الهدف وتكاد تحقق فوزاً كبيراً..

وقال لورانس براون « اذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً وأمكن ان يصبحوا أيضاً نعمة له أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير ».

وقال القس سيمون « ان الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التملص من السيطرة الأوروبية ».

وقالوا « يجب ان نحول بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية ان تتغلغل في المسلمين »[4].

الهدف الثاني : اختيار بعض الأشخاص وتعهدهم والايحاء لهم بخلق اتجاهات معادية للاسلام بغية زعزعة عقائد المسلمين :

قال حنا ميلكان « ان للمدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ .
(٢) التبشير والاستعمار ص ٤١ - ٤٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٤١ .
(٤) التبشر والاستعمار ص٣٢ .

المسيحي أكثر من كل قوة أخرى . ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة في أوطانهم » [1] .

وجاء في كتاب التبشير والاستعمار « فلما اعتقدوا ان لا قدرة لهم على جعل المسلم نصرانياً أحبوا ان يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب الى المسلمين والى المثقفين منهم خاصة . ثم أنهم اعتقدوا ان هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها الى المجتمع الإسلامي . هذه الفكرة هي التي أقنعت المبشرين بضرورة انشاء المعاهد العالية في البلاد الإسلامية .

« وكذلك كان للمبشرين غاية أخرى من التعليم العالي هي أن يؤثروا في قادة الرأي في البلاد وفي الجيل الناشىء في الشرق الأدنى خاصة ذلك التأثير الذي لا يمكن ان يحقق اذا لم يكن ثمة تعليم عال »[2].

ولقد رأينا في الفصل السابق [3] كيف ان رئيس دير في سلانيك في تركيا كان يولي مصطفى كمال عناية فائقة ويهتم به ويعلمه (سراً) ؟ اللغة الفرنسية .

وسنرى في الصفحات التالية ، كيف نجح هذا الهدف في إيجاد الجمعيات والأحزاب ورجال الحكم والسياسة في البلاد العربية والإسلامية ..

الهدف الثالث : تنصير المسلمين .

وهو الهدف الذي انطلق منه هذا المحور الخطر [4] ومن أجله وضعوا الدراسات واستخدموا أكثر الوسائل . - التي سنعددها فيما بعد -

يقول كريستين واركوس ان الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في « تنصير » المسلمين إنما هي تعليم أولادهم الصغار ..

---

(١) التبشر والاستعمار ص ٦٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٧٦ .
(٣) راجع فصل كيف دالت دولة الاسلام
(٤) راجع ما كتبناه في مقدمة هذا الفصل .

وبينما كان المبشرون المؤتمرون في القاهرة في نيسان ١٩٠٦ يعترفون ضمناً بصعوبة التبشير وان التبشير كان الى ذلك الحين فردياً يتناول الفرد بعد الفرد وانهم يأملون ان يصبح التبشير اجماعياً يتناول جماعات بقضها وقضيضها اذا بهم في مؤتمر بيروت غير الرسمي عام ١٩١١ يقررون ان يبدأوا تنصيراً بين المسلمين مباشراً يسير في سوريا وفلسطين خاصة بهدوء وبوسائل مختلفة ولا يجد المبشرون حرجاً في أن يعلنوا ان نشر الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر أكثر إمكاناً وسهولة من أجل ذلك قرروا أن يجددوا جهودهم وان يسيروا بأعمالهم الى الأمام[1].

ويصرح الأب نسانتور رئيس الكلية اليسوعية في بيروت أيام الانتداب « ويأتي المبشر تحت علم الصليب .. يحلم بالماضي وينظر الى المستقبل وهو يصغي الى الريح التي تصفر من بعيد من شواطىء رومية ومن شواطىء فرنسية وليس من أحد يستطيع ان يمنع تلك الريح من أن تعيد على آذاننا قولها بالأمس وصرخه أسلافنا (الصليبيين) من قبل : ان الله يريدها[2]

الهدف الرابع : دراسة التطور الفكري والسياسي في المنطقة ، للتعديل في وسائل هذا المحور ولامداد المحاور الباقية بأسباب الحياة والتقدم .

نشرت مجلة العالم الاسلامي * خلاصة مقال كتبه الاستاذ ادوار ميدايرل احد أساتذة التاريخ في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة لمجلة « الشؤون الخارجية »* عنوانه : الارساليات الأميركية في الشرق الأدنى جاء فيه :

ماذا يمكن ان يقال الآن عن أعمال التبشير الأميركي في الشرق الأدنى

(١) التبشر والاستعمار ص ٤٧ .

(٢) التبشر والاستعمار ص ٣٣ .

* مجلة تصدر في هارتفورد بالولايات المتحدة .

* ان مجلة الشؤون الخارجية من المجلات الرصينة في الولايات المتحدة وهي تبحث في الشؤون الاجتماعية الدولية من ناحيتها العلمية والقانونية . ؟

بعد قرن كامل من الدهر ؟ يمكننا ان نحشد احصاءات هائلة بملايين الدولارات بألوف النفوس التي ضحيت في هذا السبيل ولكن هذه أيضاً ليست هبة كافية توازي النتائج التي حققت على أيدي الارساليات الأميركية والمبشرين الأميركيين في هذا المركز المهم من الشرق .. ان نفراً من هؤلاء الرجال والنساء أمثال سيرس هملن ودانيال بلس (أول رئيس للجامعة الأميركية في بيروت) وماري ميرنا زبك كانوا علماء وضباط ارتباط بين الشرق والغرب وكذلك كان نفر منهم معلمين كباراً أو اطباء محبوبين يشترط فيهم طول الأناة والصبر ان جميع هؤلاء قد حملوا من أميركا جرأة نادرة .. لولاها لما أمكن كتابة الجزء الأوفر من تاريخ الجهود الأميركية في الشرق الأدنى ولكن الجرأة وحدها ليست كافية كما ان الوقت لم يحن بعد للحكم على قيمة ما حققه المبشرون عموماً[1] .

ومن أجل هذا الهدف نرى المؤتمرات تعقد بين حين وآخر لدراسة المشروعات ولوضع الخطط . ومن هذه المؤتمرات :

مؤتمر القاهرة ١٩٠٦ .

مؤتمر ادنبره (في اسكوتلنده) ١٩١٠ ، أصدر تقريراً عن النواحي المختلفة التي يجب ان يهتم لها المستشرقون تم طبعه في عشرة مجلدات[2].

مؤتمر بيروت ١٩١١ .

مؤتمر القدس ١٩٢٨ بقي مجتمعاً أسبوعين (من ٢٣ آذار الى ٨ نيسان) ووضع تقريراً في ثمانية مجلدات[3] .

مؤتمر القدس ١٩٣٥ .

(١) التبشير صفحة ١٦

(٢) المصدر السابق ١٢ وكان يضم المؤتمر ١٢٠٠ عضواً منهم (روزفلت) رئيس جمهورية امريكا السابق لكنه أرسل يعتذر عن عدم تمكنه من الحضور والباقون من مختلف الدول وكلهم من كبار رجال المسيحية في العالم راجع المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام للاستاذ محمد محمود الصواف صفحة ٢٦٢ .

(٤) المصدر السابق .

ومن كتب الدراسات لتطور التفكير في منطقة الشرق الأوسط كتابان ظهرا حديثاً وهما (الغرب والشرق الأوسط) و (الاسلام والعرب والمستقبل) للمستشرق الأميركي أرنولد توينبي ، عربها الدكتور نبيـــل صبحي وفيهما يسلط الكاتب الأضـــواء على أكثر الاتجاهات الفكرية في المنطقة . . . وللمستشرقين باع طويل في تحقيق أغراض هذا الهدف .

* * *

وسائل محور التبشير والاستشراق

أما وسائل هذا المحور في هجومه الماكر على الاسلام فهي :

الوسيلة الاولى : التعليم في الروضات والمدارس والكليات والجامعات .

يقول هنري جيبب – وهو أكبر المبشرين الذين عرفهم الشرق الاسلامي – ان التعليم إنما هو واسطة الى غاية فقط في الارساليات المسيحية . هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية ولكن حينما يخطو التعليم وراء هـذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات وخير الجراحين والأطباء في سبيل الزهو العلمي . . فاننا لا نتردد حينئذ في أن نقول : ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي الى مدى علماني ، محض الى مدى علمي دينوي ، مثل هذا العمل يمكن أن تقوم به جامعات هابدلبرغ وكمبردج وهارفرو وشيفيلد لا الجامعـات التبشرية التي تسعى الى أهداف روحية فحسب [١] .

جاء في كتاب اليسوعيون في سوريا « ان المبشر الاول هو المدرسة » [٢] من أجل هذا سلك المبشرون الطرق التالية :

(١) التبشير ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق صفحة ٦٦ .

١ – اكثروا من المدارس وخاصة روضات الأطفال وقالوا « ان الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في تنصير المسلمين إنما هي تعليم أولادهم الصغار » .

ورياض الأطفال، مثلاً، مهمة جداً، لأن التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها باباً مفتوحاً للتبشير وللتأثير في عقول الأطفـــال الغضة . . وكذلك التعليم الابتدائي وسيلة ثمينة للتبشير [١] .

٢ – قالت المستشرقة أنا ميلفان في صفوف كلية البنات في القـاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمة طريق الى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة [٢] .

٣ – اختاروا المدرسين والمعلمين واشترطوا في المعلم أن يكون أجنبياً غير وطني أما اذا دعت الحاجة الى معلم وطني فليكن مسيحياً في الدرجة الأولى ولكن يجب أن يكون متمرناً على التبشير [٣] وظهر تعاون المستشرقين والمبشرين في المناصب الكبرى في الجامعات .

٤ – وضعوا كتباً خـــاصة بهم لمختلف حقول التعليم وسخروها جميعاً للدس على الاسلام وأحـــالوا الطلبة على مراجع تبشيرية واستشراقيـــة تنضح بالسم .

٥ – اجبروا الطلاب المسلمين على دخول الكنيسة والاستماع الى مواعظ الأحد والقيام بالطقوس المسيحية وعندما احتج الطلاب على ذلك لم يتردد عمدة الجامعة الاميركية سنة ١٩٠٩ من اصدار بيان جاء في مادته الرابعة : « ان هـــذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي هم اشتروا

(١) المصدر السابق صفحة ٧٥ - ٧٦ .

(٢) من مقال في جريدة الشهاب البيروتية الصادرة في ١٥ تموز ١٩٧٠

(٣) التبشير صفحة ٦٦

الأرض وهم أقاموا الأبنية وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندهـا هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الانجيل من مواده ، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ . هكذا نجد أنفسنا ملزمين بأن نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ وان كل طالب يدخل الى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه [1] .

٦ ـ حاولوا ـ وهذا في أسوأ الاحتمالات ـ بمعاونة المستشرقين غرس مبادىء التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين في حياتهم وتفكيرهم وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الاسلامية [2] .

الوسيلة الثانية : المطبوعـات .

اعتنى المستشرقون والمبشرون بالمطبوعات عنايتهم بالتعليم أو أكثر فألفوا الكتب وأصدروا المجلات والجرائد وأنشأوا دور النشر وفتحوا المطابع حتى كادت هذه المرافق تكون حكراً لهم لا ينازعهم فيها منازع .

ومما لا ريب فيه ان للكتب تأثيراً كبيراً في النـاس وتلك ظاهرة لم يغفلهـا المبشرون إذ هم يرون ان أشد الوسائل أثراً كان انتـاج النشرات المسيحية الى المسلمين .

والمبشرون حريصون جد الحرص على أن يتولى كتابة هذه الموضوعات أشخاص وطنيون لا مبشرون أو أشخاص صبأوا الى النصرانية حديثاً لأن هؤلاء يكونون أقدر على فهم عقلية جماهيرهم وعلى عرض تلك الموضوعات على شكل قريب من فهم تلك الجماهير [3] .

ان الصحافة لا توجه الرأي العام فقط أو تهيئة لقبول ما تنشره عليه بل

(١) المصدر السابق صفحة ١٠٨

(٢) الفكر الاسلامي الحديث صفحة ٥٢٦ تحت عنوان مظاهر نشاط المستشرقين .

(٣) المصدر السابق ٢٠٤ ـ ٢٠٥

هي تخلق الرأي العام . ويعلن المبشرون انهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر من أي بلد اسلامي آخر [1] .

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو اصدار «دائرة المعارف الاسلامية » بعدة لغات وكذلك اصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة . وقد بدأوا في الوقت الحاضر في اصدار طبعة جديدة تظهر في أجزاء ومصدر الخطورة في هذه الدائرة هي ـ كونها ـ مرجعاً لكثير من المسلمين في دراساتهم على مـا فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الاسلام والمسلمين [2] .

وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الامريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة (العالم الاسلامي) انشأها صمويل زويمر ١٩١١ وتصدر الآن من هارتفورد بأمريكا ورئيس تحريرها كمنيث كراج وطابع هذه المجلة تبشيري سافر [3] .

ولقد اعتمد المبشرون مدينتين لنشر كتبهم وصحفهم: القاهرة وبيروت. أما القاهرة فاتخذها البروتستانت مركزاً لتوزيع المنشورات المسيحية في القطر المصري وفي جميع العالم الاسلامي . كما انهم أقاموا المطبعة الامريكية في بيروت تلك المطبعة التي أصبحت أهم وسائل التبشير في الشرق كله أمـا اليسوعيون فقد ركزوا جميـع جهودهم في المطبعة الكاثوليكية في بيروت منذ عام١٨٧١ وقاموا من طريقها بعمل تبشيري فيالدرجة الاولى[4].

الوسيلة الثالثة : الخدمات الطبية والاجتماعية .

ولعل أهم هذه الخدمات التطبيب وقد كان أول من أسس عيادة طبية

(١) المصدر السابق ٢٠٧

(٢) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور محمد البهي صفحة ٥٢٦

(٣) المصدر السابق صفحة ٥٢٥ ـ ٥٢٦

(٤) التبشير والاستعمار صفحة ٢٠٨

من أجل التبشير هم الأمريكيون وقد افتتحوها في سيواس بتركيا ١٨٥٩ ، وهكذا نظر الأمريكيون من ذلك الحين الى الطب على أنه معين على التنصير ومنذ ذلك الحين اعتبر الأمريكيون الطب مشروعاً مسيحياً وعلى هذا قال الطبيب بول هايسون في كتابه « الطبيب في بلاد العرب » صفحة ٢٧٧ ان المبشر لا يرضى عن انشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة عمان بأسرها لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى.

ولا ريب في أن الطبيب يستطيع أن يصل الى جميع الطبقات من الناس حتى أولئك الذين لا يخالطون غيرهم ولذلك قال المبشرون ان بامكان الطبيب المبشر أن يصل بتبشيره الى جميع طبقات المسلمين بواسطة المرضى الذين يعالجهم . . ثم انهم فرضوا أن يكون الطبيب المبشر نسخة حية من الانجيل ان بامكانه أن يغير الذين حوله ويجعل منهم نصارى حقيقيين أو أن يترك في نفوسهم أثراً عميقاً على الأقل [١] .

وجاء في كتاب اسمه مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين « نحن نعني بالعمل الاجتماعي المسيحي تطبيق مبادىء يسوع المسيح في جميع الصلات الانسانية ان المسلمين يدعون ان في الاسلام ما يلبي كل حاجة اجتماعية في البشر فعلينا أن نقاوم الاسلام دينياً بالأسلحة الروحية . فالنشاط الاجتماعي يجب أن يرافق التعليم المباشر للأنجيل ويساعده ويتممه ... » من أجل ذلك نحن ننصح بالسير في الاعمال الاجتماعية على الأسس التالية : ايجاد بيوت للرجال والنساء خصوصاً الطلبة منهم ومنهن ، ايجاد أندية للاعتناء بالتعليم الرياضي وبأعمال الترفيه ، حشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال . »[٢]

وبناء لهذه الفكرة أنشأوا الجمعيات ومنها جمعية الشبان المسيحيين وجمعية

(١) التبشير صفحة ٥٣

(٢) المصدر السابق ص ١٨٩ .

الشابات المسيحيات وكما يقول أديسون ان فروع هذه الجمعية قد نشرت في الشرق لتكون عوناً على تغلغل التبشير المسيحي[١] .

وفي الآونة الأخيرة عملت الأديرة المنتشرة في لبنان على اتخاذ خطوات من شأنها جذب الناس مسلمين ومسيحيين اليها ، فجعلت من حدائقها منتزهات لهم وسهلت المواصلات بالايعاز الى من يلزم ببناء التلفريك (في جونية الى سيدة حريصا)[٢] .

ونشرت جريدة النهار البيروتية في عددها الاثنين ٢٧ / ٧ / ٩٧٠ تحقيقاً مصوراً عن مخيم الشباب الذي أقامه دير المخلص في منطقة الدير تحت اشراف الأب حداد والذي اشترك فيه عدد كبير من الشباب المثقف حيث توجيه ثقافي !

الوسيلة الرابعة : رعاية بعض الاحزاب والمنظمات والتدخل في شؤون الادارة المحلية .

أما عن الأحزاب والمنظمات فسنرى تفصيله في محور الأحزاب والجمعيات كما سيأتي .. ونكتفي هنا بالاشارة الى ان معظم مؤسسيها من غير المسلمين[٣] .
وأما التدخل في شؤون الادارة المحلية في شؤون بلدنا — أي لبنان —

(١) المصدر السابق ص ١٩٥ .

(٢) نشرت مجلة العربي عدد أيار سنة ١٩٦٩ تحقيقاً مصوراً عن جونية في لبنان والتلفريك فقالت: (ان هذا الخط الكهربائي يربط ساحل كسروان بجباله ... ويطلقون على هذه العربة الصغيرة اسم « التلفريك » . وقبل نهاية الخط تتوقف هذه العربة عند مقهى كبير ومطعم فخم، وشرفات واسعة تطل على خليج جونية الساحر ... وبعدها يتابع المرء رحلته الى تمثال سيدة حريصا داخل نوع آخر من العربات يطلق عليه اسم فينكولير .

(٣) نسمي منهم على سبيل المثال لا الحصر : ميشيل عفلق لحزب البعث العربي الاشتراكي - جورج حبش للقوميين العرب وللجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - نايف خواتمة للجبهة الشعبية الديمقراطية - جورج سعادة لحزب القومي السوري الاجتماعي .

كثيرة منظورة ، نكتفي منها بما ألمح اليه رئيس الجمهوريـــة الشيخ بشارة الخوري ، وهو تلميذ الآباء اليسوعيين ، وان كان تلميحه غير مقصود انما جاء شهادة عفوية صادقة عن مدى تأثير هؤلاء الآباء على قضايانا السياسية أيام الانتداب فهو أولاً يعترف بفضلهم في رفعه الى سلطة ادارية مرموقة وهي الأمانة العامة لحكومة لبنان وكان ذلك على يد الأب اليسوعي كاتان الذي أوصى به الحاكم لابرو – (الصفحتان ٩٩ و ١٠١ من الجزء الاول من حقائق لبنانية).

كان ذلك في أواخر عام ١٩١٩ وذات يوم وأنا في مكتبي في بيروت دخل علي الحاكم لابرو بدون معرفة سابقة وسلمني كتاباً من الأب كاتان يطلب مني فيه أن أعاون الحاكم بالرأي في المسائل الادارية . . . وخيرني – الحاكم – بين أمرين إما السفر الى باريس في وفد جديد برئاسة المطران عبدالله خوري وإما تولي منصب الأمانة العامة للاشراف على جميع الدولة اللبنانية ولإعادة تنظيمها فنزلت عند الحاحه واخترت الأمر الثاني .

« ويشهد الرئيس الخوري في الصفحة ٢٣٨ من نفس المؤلف بأن الآباء اليسوعيين هم الذين أوصوا بتعيين الاستاذ الفرد نقاش رئيساً للجمهورية وعين الجنرال دانتز القاضي الفرد نقاش رئيساً للدولة بتوجيه من الآباء اليسوعيين ... »

ولا ينسى اللبنانيون يوم تدخل المندوب الفرنسي السامي وعلق الدستور وحل البرلمان بناء على رغبة جهات معينة هنا ، وهناك في فرنسا ، وذلك للحيلولة دون انتخاب الشيخ محمد الجسر رئيساً للجمهورية باجماع النواب المسلمين وعدد لا بأس به من المسيحيين (كيف يصنع الرئيس في لبنان من ملف جريدة النهار البيروتية) .

كما ان اللبنانين اليوم يعيشون تدخلات سلطة بكركي ، الصرح الماروني الاكبر ، في الشؤون الادارية والسياسية وفي الانتخابات النيابية والرئاسية الأمر الذي أصبح معروفاً من الجميع ...

وعلى ذلك فقس ! !

واخيراً . . .

فقد عبر الدكتور (زويمر) للمبشرين عن حصيلة اعمالهم في الشرق المسلم ولخصها تلخيصاً جيداً بقوله :

«انكم أعددتم شباباً في ديار المسلمين لا يعرفون الصلة بالله ولا يريدون أن يعرفوها ، وأخرجتم المسلم من الاسلام ولم تدخلوه المسيحية ، وبالتالي جاء النشء الاسلامي طبقاً لما أراده له الاستعمار ، لا يهتم بعظائم الامور ويحب الراحة والكسل ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات فاذا تعلم فللشهوات وإذا جمع المال فللشهوات وإذ تبـوأ أسمى المراكز فللشهوات ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء »[1] .

ولا بد من الاشارة الى ان المبشرين والمستشرقين قد عدّلوا كثيراً في استراتيجيتهم ، بعد ان وجد مثل هذا النوع من الشباب المثقف في الشرق المنكود ... إذ ان أهداف المبشرين اصبحت مخدومة من قبل هذا الصنف من أشباه الرجال ... وسنقف في الصفحات التاليـة على جهود هؤلاء (غير المشكورة) وعلى نشاطهم ودعاويهم في ابعاد المسلم عن اسلامه وفي محاربة هذا الدين الخالد .

ويبدو ان القائمين على ادارة التبشير في العالم العربي بعد ان حققوا أغراضهم في تخريج جيل لا يؤمن بالاسلام ... راحوا يفرغون سمومهم في أقاصي الشرق المسلم في أندونيسيا حيث نشط المبشرون الغربيون نشاطاً هائلاً وذلك حين مارس الرئيس الاندونيسي سوكارنوا عملية اضطهاد عنيفة ضد الاحزاب الاسلامية السياسية فتكتل هؤلاء في تجمع اسلامي غير سياسي في محاولة هادفة للوقوف بوجه الزحف التبشيري المرعب .

(١) عن مقال في جريدة الشباب البيروتية الصادرة في ١٥ تموز ٩٧٠ .

ذكر تقرير مؤسسة الدعـوة الاسلامية في أندونيسيا ـ وهو اسم التجمع ـ تاريخ ١٩٦٧/٩/٣ ما يلي :

« في تلك الأوقات الحرجة أي بين عـام ٦٠ ـ ٦٥ لمسنا النشاط الشيوعي والنشاط الصليبي يتسابقان كفرسي رهان انهـالت على الفئتين المساعدات المالية من الشرق والغرب والسفارات الاشتراكية من الكتلة الشرقية لتعمل جهاراً مع الشيوعيين فيدخل زعماء الحزب الشيوعي الاندونيسي مركز السفارة الصينية في ضحى النهار وقد يستعمل سيارة السفارة على الرغم من انه يملك سيارة خاصة حكومية وسفارات الغرب ايضاً لا تقصر في اسدائها المساعدات اللازمة بل وفوق اللازم . فتبرعت المانيا الغربية بمركبين زنـة الواحد منهما ٢٠٠٠ طن لنقـل الرهبان والراهبـات في تجوالهم بالجزر النائية في أندونيسيا ولتثبيت أقدامهم في مراكزهم هنـاك أعني بها جزر فلوريس وتيمور وهلما هـيرا وسيرام وهي كلها قريبة من ايريان الغربية واستراليا . ثم تبرعت ببناء مستشفيات في جـاوا الغربية وسومطرة تقدر بملايين الدولارات لأنها تعد من أضخم وأفخم وأحدث المستشفيات عندنا ثم تبرعت هولندا بمائة وعشرين مليون روبيات هولندية أي ما يعـادل ١٠٠ مائة مليون فرنك سويسري لأجل التبشير البريستانتي بأندونيسيا وتبرعت أوستراليا بـ ٢٥ بالمائة من حاصل بيع سيارات هولدن التي يتوكل ببيعهـا شركة مسيحية بجـاكرتا للنصارى من البروتستانت وتبرعت أميركا لطائفة الادفنتت بشراء أراض لتبني عليها مطابع لتغذي أفكار نشئنا بأفكارهم ، فعندهم جرائد ومجلات ونشرات ، ومع ذلك فقـد شرعوا يبنون دياراً للمطابع الكبيرة الخاصة بهم فوق التي يملكونها بوفور وغيرها ما يكلفهم ٢٥ خمسة وعشرين مليوناً من الدولارات الاميركية ، ولم نذكر بعد تبرعات بلجيكا وفرنسا وكندا وغيرها للطوائف المسيحية عندنا .

وأمـا الكنائس الجديدة فيقدر بعض الاخوان الذين يتتبعون حركات المسيحيين بأندونيسيا بأن النصـارى يبنون شهرياً كنيستين ، لأن من قرار مؤتمرهم في مدينة ملاغ بأنهم سيبنون الى جنب كل مسجد كنيسة » .

ولم تكن أفريقيا بأوفر حظاً من بلاد العرب وأندونيسيا فها هم المبشرون يجوبون البلاد في دعايتهم التبشيرية ويعلنون بلا مواربة ان عدوهم اللدود في عملية الغزو للشعوب هو الاسلام.. هذا الدين الذي ينتشر بمعدل ستة أضعاف انتشار دعواهم التبشيرية .

وقد نشرت ذلك مجلة الشهاب البيروتية في عددها الصادر في ١٥ ـ ٣ ـ ١٩٧٠ في تحقيق لها عن كتاب أصدره القس ستيفن نيـل بعنوان تاريخ الارساليات التبشيرية تحدث فيه عن عملية الغزو التبشيري بـين صفوف الوثنيين والمسلمين في أفريقيا ..

محور الاتجاهات الفكرية الحديثة .

شهد الشرق الاسلامي في القرن العشرين اتجاهات فكرية تختلف أساساً عن الاسلام، في التصور والهدف وتسعى لإحلال نفسها مكانه في كل جنبـات الحياة .. فهي إذن في منشئها ومبناها وفي أصلها وغايتهـا محاولة لطمس حقائق الاسلام ولتحويل مجـاري التفكير الاسلامي كما يقول المبشرون والمستشرقون .

ولعل أكثر هذه الاتجاهات ، في بلادنا ، وليد الهدف الثاني من أهداف محور التبشير والاستشراق ـ كما رأينا ـ فهذا الهـدف يقوم على تشكيك المسلمين بدينهم وزعزعة عقائدهم .. والنتيجة المنطقية لهذا التشكيك تبني الأفكار الجديدة التي تمخضت عنها اوروبا في صراعهـا مع الدين . فكما ان اوروبا نبذت الدين ، نبذ النواة عندما أرادت النهوض ، وآمنت بدين جديد من وضع البشر ، فلاسفة وعلماء ومختصين ، فـلا بد للشرق ، أيضاً ، ان

يتخلى عن هذا الدين المشكوك فيه أو على الأقل غير الملائم لتطور الحيـــاة والدين دين على كل حال ..؟؟ ـ كذا ـ

ولأول مرة منذ فجر الاسلام، يقوم في الشرق ناس من أبنائه يدعون بدعوات تتناقض مع الاسلام عقيدة ومنهاجاً ..

والحقيقة التي لا جدال فيها ان (محور الاتجـــاهات الحديثة) قد تولته عناية كبار المستشرقين وأساتذة الجامعات . وقد استطاع هؤلاء على الزمن ان يجدوا صنائع لهم بين « المسلمين » أو بين « أبناء الشرق » من غير المسلمين فمنهج هؤلاء تلك الاتجـــاهات وأفرغوها في قوالب من العـــاطفة الوطنية وأفردوها بمبادىء لاءمت جو الشرق المشحون بالجهـــل (وخاصة بحقائق الدين) وبالادارة الفاسدة وبالتبشير والاستشراق ..

أهداف الاتجاهات الحديثة :

وهدف هذا المحور الانتصـــار على الاسلام في معركة الصراع الفكري وابعاد هذا الدين عن واقع الحيـــاة « واصطناع » دول تقوم على شرعة علمانية منقولة عن أوروبا أو بمعنى آخر « تغريب » الشرق المسلم في حضارته وتصوراته ومنهجه في الحياة ..

وهذا المحور أخطر من محور التبشير .. فخطر المحور الأول خطر واضح يقوم على مجابهة الاسلام وعلى تحديه ويدعو بصراحة الى التنصير والى اعدام الثقة بمنهج الاسلام وبعقيدته وتصوره ، فهو عدو مكشوف، يستخدم وسائل باتت معروفة، أما خطر الاتجاهات الحديثة .. فهو خطر متعرج ملتو متستر يقوم على خداع الناس ويتدرج بإقناعهم وينحط بهم الى درجات دنيـــا في عصبية أو مادية أو علمانية ..

ويزيد في خطورة محور الاتجاهات اعلان بعضها في مناسبات أو في غير مناسبات عن احترامها للدين ؟ واعتزازهـــا به ـ كقيمة انسانية رفيعة ؟ ـ وعن تمسكها بالاسلام ؟ ـ كحضارة تاريخية هائلة منحت التاريخ قوة خلاقة

مبدعة ؟ ـ أو غير ذلك من المعاني المبطنة التي تضل كثيراً من الناس بإخفاء حقيقتها عن أعين الجماهير .

واستطاعت هذه الاتجاهات ان تأخذ طريقها الى المجتمع ومؤسساته وان تلعب دوراً كبيراً في اتجاه الشرق المسلم وان تحقق مكاسب كبرى ، تجهد الآن للمحافظة عليها وتنميتها والاضافة إليها .

ويعود تاريخ هذا المحور الى القرن التاسع عشر عندمـــا بدأ التعليم التبشيري والاستشراقي ، في الشرق والغرب ، يؤتي ثماره .. فمن المعروف ان العثمانيين أهملوا التعليم والنهضة وأغرقوا أنفسهم ورعاياهم في لجة عميقة من الجهل ، الأمر الذي فسح المجال لاوروبا لكي تغزو بلادنا ثقافياً ـ كما رأينا ـ والتلميذ يعجب دائماً بأستاذه ثم يقلده ويحـــاكيه ويتمنى أن يسير على منواله وسيرته .

ومن هذا القرن ، التاسع عشر ، وعلى امتداد الأعوام ، حتى يومنا هذا، شهد الشرق الاسلامي زحف التيارات الفكرية المصطرعة في العـــالم فكان أول هذه الاتجاهات الاتجـــاه القومي بفروعه ثم تلاه الاتجـــاه الاشتراكي والشيوعي مروراً باتجاه علماني وآخر مادي فلسفي الخ ..

الاتجاه القومي

أ ـ القومية التركية :

كانت الدولة العثمانية تضم في أمبراطوريتهـــا الواسعة مسلمي الشرق كله تقريباً باستثناء ايران .. فالتركي يخضع لسلطان حكومة استانبول كالعربي والتركماني أو أي مسلم آخر [1] . وحتى أوائل القرن التاسع عشر لم يشعر أحد من الرعايا بنعرة قومية خاصة متولدة عن لغته أو عرقه أو أرضه حتى أخذت القومية العرقية تتسرب الى الامبراطورية العثمانية (من أواسط شرق

(١) نحن هنا نستعرض نشوء القومية ولا نناقش في شكل التجمع في دولة واحدة او في اتحاد او جامعة .

اوروبا) عبر أقنية عدة . ولقد كان اللاجئون البولنديون والمجريون على الغالب أول الناقلين عندما ذهبوا لتركيا بعد فشل ثورتهم سنة ١٨٤٨ فلقد بقي قسم كبير فيها واعتنقوا الاسلام * واحتلوا مناصب هامة في الدولة العثمانية وكان أحدهم الكونت قسطنطين بورزيسكي وقد سمى نفسه بعد ذلك مصطفى جلال الدين باشا !! ولقد نشر سنة ١٨٦٩ كتاباً بالفرنسية في استانبول اسمه (أتراك الأمس وأتراك اليوم) وفي الكتاب جزء كبير يشكل تقريراً للسلطان عن المشاكل الحاضرة في الامبراطورية واقتراحات حلها وبه جزء تاريخي يضم دراسة أجراها المستشرقون الأوروبيون عن التاريخ القديم للشعب التركي وبه يؤكدون دور الأتراك الإيجابي الخلاق في التاريخ ولقد حاول بورزيسكي جهده لإثبات أن الأتراك هم من العرق الأبيض مثل شعوب اوروبا وينتمون لما أسماه العرق (الطوراني — الأري) .

ولقد عمل الكونت بورزيسكي على نقل القومية البولونية ووضعها في قالب تركي وساعده على هذا العمل ما عرضه من أعمال المستشرقين الأوروبيين الباحثين في الشؤون التركية ولقد وصلت نتائج أبحاث هؤلاء الى المجتمع التركي من عدة طرق ، وكان لها تأثير هام على الذهنية التركية خصوصاً في تقدير التاريخ التركي القديم والاعتقاد بالهوية المميزة والمركز اللائق في التاريخ ولقد كان الأتراك أكثر من العرب والعجم نسياناً لتاريخهم الماضي فلقد كانوا لا يفكرون بأية هوية أخرى غير الاسلام ، ولكن المستشرقين عن قصد * أو عن غير قصد ساعدوا الأتراك على استعادة هويتهم القومية الضائعة !! وعلى الدعوة الى حركة قومية تركية جديدة ..[1]

---

* شكلاً .

* ان أعمال المستشرقين لا تسمح لنا بحسن النية الدائمة . لذلك فاننا نعتقد جازمين ان عملهم هذا كان مقصوداً ان لم نقل مدروساً ومخططاً أيضاً من حاشية لمعرب كتاب المغرب والشرق الأوسط . ولقد رأينا أعمالهم في محورهم !!

(١) الغرب والشرق الأوسط تأليف برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الافريقية والشرقية بجامعة لندن تعريب الدكتور نبيل صبحي ص ١٢٧ - ١٢٨ .

« . . والكلمة التي تستعمل بالعربية للتعبير عن فكرة الجنسية الوطنية هي القومية وهي اسم مشتق من قوم وتعني بالعربية الكلاسيكية الأصل والاتباع ومجموعة العشيرة وبكلمة أدق تعني ـ الآل ـ الذين يتنادون للمساعدة عند الشدة . . ومثل كلمة (وطن) كلمة (قومية) ، وهي اشتقاق من اللغة العربية إلا أنها استعملت بمعناها السياسي الجديد في تركيا أولاً ، وكانت اللغة التركية أو اللغات الاسلامية التي نقلت ثم (صكت) الكلمات الجديدة للأفكار الجديدة ولقد وردت كلمة (قومية) بالتركية على لسان (الشبيبة التركية) وفي كتاباتهم وكانوا يعنون بها القومية التي تعارض الولاء الأوسع للسلطنة العثمانية الكبرى وللاسلام . . ولذلك في سنة ١٨٧٠ انتقد علي سوافي اقتراحاً عثمانياً شبه رسمي يطلب أن يتبنى الباب العالي (القومية) مثل ايطاليا وبروسيا ويوحد جميع المسلمين على أساسها وبين علي سوافي بحق أن القومية في أوروبا تعني شيئاً آخر مختلفاً تماماً فليس عندنا مشكلة قومية ، والمشاكل القومية تقود لدمارنا ، وقضية توحيد المسلمين مسألة إسلامية دينية وليست مسألة قومية . . إلا أن نداءه ذهب عبثاً وانتشرت القومية بسرعة بين المسيحيين العثمانيين وانتقلت بواسطتهم الى المسلمين : الألبان والعرب . . وعندما ثارت القومية الألبانية سنة ١٩١٢ أثارت معها حملة من الاستنكار قام بها الشاعر محمد عاكف المسلم الوطني المعارض للقومية وكان هو من أصل الباني قال :

« ان ملتكم هو الاسلام فما هي القومية القبلية ؟

هل العرب أفضل من الترك ؟ أو أن اللاظ أفضل من الشركس والكرد ؟

أم أن الفرس أفضل من الصينيين ؟

بماذا يفضلونهم ؟

ماذا دهاكم هل تقسمون الاسلام الى أجزاء متعددة ؟

ان الرسول الكريم نفسه سفه العصبية القبلية !

وليس باستطاعة الأتراك العيش بدون العرب .

ومن يقول غير هذا فهو مجنون .
والترك بالنسبة للعرب عينهم اليمنى وساعدهم الأيمن .
فلتكن البانيا لكم انذاراً ؟
ما هذه السياسة المتخبطة وما هو هذا الهدف الشرير .
اسمعوها مني ، أنا الألباني .
لا أقول أكثر من :
أسفي على بلادي المبتلاة [١] .

إلا أن محمد عاكف الشاعر كان يقاتل في معركة خاسرة كما يقول برنارد لويس وانتقلت العدوى الى كل مكان .

ب ـ القومية العربية :

أما بالنسبة للعرب . . فلم تظهر العروبة كحركة سياسية تقول بالعرب أمة لهـا حقوقها القومية . . (إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبقي أول الأمر محدوداً بمجموعة صغيرة من الناس لا تمثل الشعب العربي وكان أكثر هذه المجموعة من المسيحيين . . أما غالبية العرب فبقوا مخلصين للدولة العثمانية حتى تاريخ اندحارها فلقد كان العرب مواطنين مسلمين في وطن إسلامي . والفئة الصغيرة من المتعلمين ، الذين بشروا بالبعث العربي * لم يلاقوا صدى مناسباً ، وكما أيقظت القومية السلافية في الامبراطورية الروسية الدعوة الى القومية التركية وانتقلت هذه بدورها الى الدولة العثمانية كذلك قامت (التركية) بدورها بايقـاظ الدعوى الى القومية العربية بين العرب في الدولة العثمانية [٢] .

ثم كانت الحرب العالمية الاولى وجزئت الامبراطورية العثمانية وانتدبت بلاد العرب والغيت الخلافة الاسمية ـ كما رأينا * ـ وانتشر المفهوم القومي بين

---

(١) المصدر السابق ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ ١٣٦ .
* لا يقصد «حزب البعث» انما الاتجاه القومي بوجه عام .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٢ ـ ١٣٣
* راجع الفصل السابق

العرب ، وبعد ان أخذ ، خلال الصراع مع الاستعمار، شكل الوطنية اللاهبة بدأ يتطور حتى أضحى مفهوماً ايدولوجياً خاصاً .

« وهكذا وصلت الحركة العربية في تطورها الطويل الى هذه النتيجة التي تفترض وجود كيان سياسي واحد للعرب مثلما تفترض وجود أمة عربية واحدة لأن الدولة الواحدة هي ضمان بقاء المجتمع ووحدته .

« ويمكننا أن نميز مفهوم اليوم ، لما كان قبلا ، بشعبيته ، فهو ينبثق عن إرادة الشعب المجموع ، ولا يمثل طبقة أو طـائفة أو عقلية معينة ولا فئة محدودة ما . . إذ لم تعد الفكرة العربية ارادة النخبة السياسية أو الثقافية ، فقط .

« . . ولا تعني الميزة الشعبية للمفهوم الحديث للحركة القومية الغوغائية بالضرورة كما يخشى البعض . وبرهان ذلك انه لم يمر على هذه الحركة عهد نشطت فية الأبحـاث النظرية في توضيح المفهوم القومي مثل اليوم . فقد أصبحت القومية العربية علماً له قواعده وله مدارسه المختلفة وله تفسيراته المتنوعة » .

« والحقيقة ان هذا المفهوم الحديث بدأ بالتحرر من التيار التقليدي القديم وبالتبلور في نظريات منهجية ومنظمات واضحة الأهداف منذ سنة ١٩٤٠ ، بفضل مساع كتابية فردية متفرقة وحركتين حزبيتين منظمتين . أمـا المساعي الفردية فأبرزها ما قام به أساتذة جامعيون ينتمون بطريق أو بآخر الى الجامعة الأميركية في بيروت . . وأما الحركتان المنظمتان فهما « البعث العربي الاشتراكي » و « القوميون العرب » جناحا التيار القومي المعاصر وبينهما محور ضخم من اللامنتمين لأي من الجماعتين ، المؤمنين معهم في الوقت نفسه بأمة عربية واحدة ، بأمل مشترك في قيام كيان عربي واحد ناهض ومتحرر . . وذي رسالة بناءة . . [١] .

---

(١) تطور المفهوم القومي عند العرب لأنيس الصايغ ص ١٠٣ ـ ١٠٦

ومن التفكير القومي « المفلسف » اعتبار المرحلة القومية أعلى درجات التفكير الإنساني وهي مرحلة حتمية في نشوء الدول وزوالها . . . حتمية كحتمية الشيوعيين في سيادة الشيوعية ، لأن الصراع الطبقي حتمي وستقضي الشيوعية على الصراع وتزول الدولة من الوجود .

يقول دعاة القومية [١] « ان انتقال الانسان من شكل اجتماعي لآخر عبر التاريخ منذ التجمع العائلي حتى المجتمعات القومية ماراً بالعشيرة والقبيلة والمجتمع الديني والامبراطوريات السياسية والدينية . . . لم يكن انتقالاً اعتباطياً ولا انتقالاً أعمى بلا هدف . . وإنما كان يمثل تمثيلاً صادقاً تجربة الانسان في البحث عن وضع أفضل لحياته . . وكان الانسان يترك شكلاً معيناً من أشكال المجتمع الى آخر حين يجد أن هذا المجتمع لا يوفر له الجو الطبيعي لحياته ولا يؤمن له احتياجاته ولا يحقق له أهدافه . . وقد ترك الانسان هذه المجتمعات الواحدة تلو الأخرى حتى وصل الى المجتمع القومي . .

« وكان هذا الانتقال عبر التاريخ يسير جنباً الى جنب مع تبلور الوعي القومي لدى الأمم بحيث جاء المجتمع القومي في النهاية عصارة تجربة الانسان في البحث عن وضع أفضل لحياته . . »

أما ميشيل عفلق [٢] فيعرف القومية بأنها ليست نظرية ولكنها مبعث النظريات ولا هي وليدة الفكر بل مرضعته . . وليست مستعبدة الفن بل نبعه وروحه . . [٣] هذه القومية هي « حب قبل كل شيء » وهي « قدر محتوم محبب » [٤] وهي نفس العاطفة التي تربط الفرد بأهل بيته لأن الوطن

(١) الاستاذان الحكم دروزه وحامد الجبدري في كتابهما مع القومية العربية وهذا الكتاب يمثل رأي حركة القوميين العرب ص ٣١

(٢) و (٣) في سبيل البعث ص ٥

(٤) عنوان لمقالين في (سبيل البعث)

بيت كبير والأمة أسرة واسعة والقومية ككل حب ، تفعم القلب فرحاً وتشيع الأمل في جوانب النفس . . » [١] .

وبهذا استحالت القومية عند القوميين منهج تفكير وحياة . . لذلك فلا بد من استحداث عقيدة تملأ جوانب هذا القلب وتفعمه بالبهجة والسرور .

يقول دعاة القومية « فكل ما في واقعنا اليوم يؤكد بأن انطلاقنا التاريخي وانقلابنا الجذري وثورتنا الحقيقية لا يمكن أن تتم إلا بعقيدة . . . عقيدة تضع القيمة الحقيقية للفرد العربي وتوفر له الحياة الحرة الكريمة التي تتحقق فيها إنسانيته . . وتنطلق امكانياته ومواهبه . . وعقيدة تضع المحتوى الشامل للمجتمع العربي فتحقق فيه العدالة الاقتصادية عن طريق نظام اشتراكي عادل . . والعدالة السياسية عن طريق نظام ديمقراطي سليم والعدالة الاجتماعية الخاصة عن طريق نظم تربوية بناءة . . تضع مفهوماً جديداً خلاقاً للمرأة والأسرة والمدرسة والهيئات ومختلف مرافق الحياة الاجتماعية . . » [٢] .

إذن هذه العقيدة لا تمت الى الاسلام بصلة . . لأنها عقيدة جديدة بنظراتها وتصورها وفي كل شيء فيها . . هكذا أرادوها أو هكذا أريدت لهم .

فهذه العقيدة العربية الجديدة !! الخلاقة البناءة !! لا تعترف أبداً — كما يقولون — [٣] بالفروقات الدينية في تكوين ونشوء الاجتماع البشري ولقد أثبت التاريخ — في زعمهم — أن أية وحدة لا تستمد أساسها من وحدة

(١) المصدر السابق ص ٨

(٢) مع القومية العربية ص ١٥

(٣) المصدر السابق ص ١١٩ .

الروابط القومية ، هي وحدة عرضية !! ما أسرع ما تتفكك حين تسنح الظروف !! *

وتنظر هذه العقيدة الجديدة !! الى الإسلام بما يلي ولكن الدين الإسلامي بالنسبة لنا نحن العرب !! قد اختلف عنه بالنسبة لغيرنا من الأمم فالإسلام انتفاضة !! عبرت عن حقيقة هذه الأمة !! * ومثلها العليا وعبقريتها وامكانياتها ورسالتها وتصورها للحياة والكون والانسان !!* ولو لم يكن الاسلام كذلك لما استطاع العرب أن يفهموه وأن يعملوا بمثله وأن يسعوا لنشره بين الأمم !!* لقد كان الدين الاسلامي رسالة الأمة العربية في الماضي .. * نحو الانسانية جمعاء .

ولذلك فاننا نعتز به * كدين وثقافة وتشريع ، ونفهمه على أنه نزعة الانسان نحو المثل الأعلى ، وارتقاء بالحياة الأفضل . ان الدين الإسلامي وأي دين آخر ، اذا توصلنا الى جوهره وتلمسنا روحه العامة ونظرنا إليه من هذا المفهوم على أنه قيم ومثل وفضائل وتهذيب للحياة وبلورة للإحساس ، لا أنظمة اقتصادية واجتماعية وثقافية محدده .. ان أي دين بالاستناد الى هذا المفهوم هو انطلاق — للعقل ودفع نحو التطور والتجدد .. * [1]

---

* ومثل هذا الكلام قاله محمد حسن الزيات مفرقاً بين الوحدة المحمدية وبين الوحدة الصلاحية نسبة الى صلاح الدين الأيوبي وبين الوحدة الناصرية ويقول في الأخيرة انها أفضل (الوحدات) لأنها الباقية الخالدة .. من مقال نشره في مجلة الأزهر .

* انتفاضة عبرت عن حقيقة الأمة وليس وحياً ربانياً ليخرج الناس من الظلمات الى النور وليهب لهم نظاماً في الحياة وشرعة في الوجود ..

* يا ليت كان لعرب الجاهلية ما يزعمون ..

* هكذا بكل صفاقة وقحة ودون استحياء ..

* ليس في الحاضر والمستقبل بل في الماضي فقط ..

* مجرد اعتزاز على أنه جزء من التاريخ العربي .. لذلك فهم لا يقبلونه نظاماً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً كما سنرى ؟.

* والا فهو - بزعمهم - انغلاق وتحجر وجمود ..

(١) مع القومية العربية ص ١١٩ - ١٢٠ .

ولقد أناط دعاة القومية بالعقيدة الجديدة مهمة خلق الإنسان العربي الجديد الذي يبتهج بالقومية — كما قال عفلق — والذي تنطلق امكانياته ومواهبه وتتحقق انسانيته — كما قال الحكم دروزه — .

واستطاعت العقيدة الجديدة ان « تخلق » هذا الانسان العربي الجديد فاتخذ العروبة ديناً بل الهاً فقال أحد دعاتها [1] .

« العروبة نفسها دين عندنا نحن « القوميون العرب » المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين . . لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها الى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات » .

أما محمود تيمور [2] فقد كتب يقول « لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة فان القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي . . » ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة وتكتيل الجهود والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة .

« وان كتاب العرب في أعناقهم أمانة هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة يزكونها بأقلامهم وينفحون فيها من أرواحهم ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء والازدهار » .

والآن ألا يحق لنا أن نسأل : هل طمع الصليبيون والمبشرون والمستشرقون والاستعمار بأكثر من هذا ؟

الاتجاه الشيوعي

ظهرت العقيدة الشيوعية في أوروبا في أواسط القرن التاسع عشر وانشأها

---

(١) علي ناصر الدين قضية العرب هامش ص ١٣٨ الطبعة الثالثة .

(٢) مقال نشر في مجلة « العالم العربي » عدد ١٧١ بعنوان الفكر والقومية العربية . وقد نقلنا الاستشهادين عن الاستاذ السيد ابي الحسن علي الندوي من مجلة البعث الاسلامي التي تصدر في الهند المجلد الحادي عشر العدد العاشر تموز سنة ١٩٦٧ .

بفلسفة خاصة ، كارل ماركس ، وفريدريك انجـــلز ثم أخذت تمتد حتى استطاعت ان تحقق وجهها الاشتراكي في روسيا وأن تقيم دولة الاتحـــاد السوفياتي .

والشيوعية تقوم على فلسفة مادية للتاريخ مفادها ان الإنسان في صراع دائم من أجل المعدة ومـــا نضال الشعوب في التاريخ إلا نضال طبقي تثور الطبقة المظلومة على الظالمة المستبدة وهكذا – على ممر العصور – حتى نصل الى صراع العمال ضد الرأسمالية وفي هـــذا الصراع لا بد من انتصار العمال ومن قيام ديكتاتوريتهم التي تعمل على تحطيم المجتمع الرأسمالي وعندها تتلاشى الدولة ويقوم المجتمع الشيوعي حيث تكون فيه الملكية مشاعة الى أبعـــد الحدود والدرجات [1] .

أما فلسفة الشيوعية المادية أي نظرتها للانسان والكون والحياة فهي نظرة مادية بحتة فالمادة هي كل شيء في الوجود حتى التفكير الانساني فهو (خاصية مادة عالية التنظيم) .

وبناء على ذلك (فليس لهذا الكون إله) . (والدين خرافة) وعلى الإنسان حتى يصبح شيوعياً ، أن يكفر بكل القيم السابقة ويؤمن بالماركسية والماركسية – اللينينية وأن يتخذ الشيوعية باقتصادها وتنظيم حزبها وأسس اجتماعها منهج حياة ومصدر تصور دائم .

وقد استطاعت الثورة البلشفية في روسيـــا ان تكتسح بلاد المسلمين في الشرق الأقصى وأن تضمها اليها بعنف وقوة ولا تزال تمارس فيها نوعاً من التحكم المتسلط في شتى جوانب الحياة وخاصة فيما يتعلق بالعبادة والعقيدة .
وبالرغم من العهد الطويل الذي قضاه الحزب الشيوعي في محاربة العقائد والأديان فلا تزال الروح الايمانية تتغلغل في أبناء المسلمين هناك الأمر الذي

(١) لقد تعدلت اخيراً أراء الشيوعيين لهذا الموضوع راجع كتاب المجتمع والعلم والناس من منشورات وطباعة موسكو .

أوقع المشرفين على التوجيه العقـــائدي في الحزب في إشكال كبير فقرروا عندئذ انشاء معهد خاص للالحاد العلمي .

ولا بد من الاشارة الى أن درس الالحـــاد العلمي وهو يبحث في فلسفة الماركسية للكون والانسان والحياة وعن خرافة الأديان وأسطورة الله وعن ضرورة الايمان بالمادة وان ليس لهذا الكون إله – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – مادة أساسية يتعين على كل طالب في أية مرحلة من مراحل الدراسة الفوز بها ويعلق عليها انتقاله الى مرحلة أعلى . . هـــذا فضلاً عن التوجيه العمالي في المصانع ومراكز العمل وعلاوة على ما تتحدث عنه النشرات والصحف ومختلف المطبوعات والتي توزع باهتمام في جنوب الاتحاد السوفياتي حيث يقيم المسلمون .

ولا ريب ان هذا العمل الدائب المستمر وبسبب ظروف أخرى أخرج أعداداً كبيرة من المسلمين من الاسلام وجندهم لاطفاء نوره في بقية القلوب المسلمة . .

ولا يقلل من خطر هذا الاتجاه مـــا تحاول أن تعلنه حكومة الاتحـــاد السوفياتي بين الحين والآخر من السماح بالصلاة في المساجد القليلة الباقية ومن طبع القرآن ومن إيفاد الحجاج الى مكة . . فهذه مسائل شكلية استهدفها المسؤولون هناك لدحض شبهة ورد اتهام . . وجدير بنا أن لا نضل بهـــا عن موقف الحزب والدولة الرسميين .

وقد ظهر الاتجاه الشيوعي باكراً في الشرق المسلم فالشيوعيون الثوار في موسكو شعـــروا من أول يوم بضرورة التغلغل في أوساط الشرق المسلم وخاصة في الشعوب المحيطة بروسيا في آسيا وتنبهوا الى قيمة هذا التغلغل والى صعوبة مسالكه لأن الشرق المسلم يقوم على الدين المختلف أساساً مع النظرية الماركسية – اللينينية الالحادية .

من أجل هذا لم ير قادة الثورة البلشفية (من الحكمة الدخول في حرب مباشرة ضد الاسلام الذي يدين به نحو أربعين مليوناً من الناس في قازان والتركستان والقوقاز الخاضعة لحكمهم فرأوا ان يخادعوا المسلمين ويهادونهم ليكسبوا المسلمين الأشداء الى صفوفهم وهم المحتاجون لكل عون لثورتهم أبان قيامها .

« وبينما نجد الشيوعيين الروس يصدرون في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ بياناً الى جميع المسلمين يقولون فيه نعلن من الآن فصاعداً انكم أحرار في دينكم وعاداتكم ومدارسكم القومية مصونة من أي تدخل ، فأسسوا حياتكم القومية دون عائق حافظوا على الثورة وساعدوا حكومتها ..[1]

نجدهم في عام ١٩٢٣ [2] يعلنون في مؤتمرهم الكبير بدء « الهجوم الماكر » على عقائد المسلمين الباطلة ؟! وبدء البناء العقائدي الشيوعي في قلوب وعقول النشىء الجديد من مسلمي الشرق ..

أما شيوعيو البلدان العربية من الوجهة العقائدية فهم لا يختلفون بشيء عن شيوعي العالم فهم يأخذون مبادئهم من تعاليم الحزب الرسمية الالزامية ومن كتب ماركس وانجلز ولينين والمفكرين الشيوعيين الرسميين ويقومون بالدعوة إليها وبإقناع الناس بها .

وقد مارس الماركسيون دعايتهم ودعواهم عبر حلقاتهم ومنشوراتهم وصحفهم * والمطبوعات التي تصدرها السفارة السوفياتية في بيروت * فضلاً عن نواديهم * وكتابهم وكتبهم .

---

(١) التضليل الاشتراكي ٨٣.

(٢) التضليل الاشتراكي وانظر أيضاً الاسلام والمبادىء ص ٢٢ - ٢٣ .

* من هذه الصحف صحيفة الأخبار الاسبوعية وصحيفة النداء اليومية وهما تصدران في بيروت.

* تصدر السفارة السوفياتية في بيروت مجلة شهرية ومطبوعات شبه دورية تتحدثان عن نشاط الحزب الشيوعي ومبادئه المتطورة وحياة رجاله وابحاثهم ..

* يستتر الحزب الشيوعي في البلاد العربية وراء تجمعات مسموح بها كالنادي العربي وأنصار السلم ؟ .

ولعل أبرز هؤلاء الكتاب خالد بكداش زعيم الحزب فهو الذي عرب وألف وكتب وحاضر وإليه يرجع الفضل في التنظيم الحزبي في الشرق العربي.

ولم يظهر الاتجاه الشيوعي – في البلاد العربية – عدواته للإسلام دفعة واحدة بل حاول دوماً مخادعة الجماهير وكان بين الحين والآخر يدس سمه فيما يقول عنه الدسم .

وفي الآونة الأخيرة ظهر الطابع الماركسي عنيفاً لدى كتّاب تخصصوا – على ما يبدو – في التهجم على الاسلام والتشكيك به .. ومما يلفت النظر أن بعض هؤلاء يعملون أساتذة في الجامعة الأميركية في بيروت؟! ومنهم الدكتور صادق جلال العظم صاحب مؤلف (نقد الفكر الديني) وقد صرح – وهو صادق فيما يصرح – انه ماركسي لا يؤمن بالله بل يعتبره – سبحانه وتعالى عما يقول علواً كبيراً – وغيبياته كالجنة والنار والملائكة وابليس – خرافات وأساطير كما أنه زيف في كتابه هذا على الفكر الاسلامي وأوله تأويلاً مسيخاً وأعلن (ان الله الذي مات في اوروبا يحتضر في كل مكان..)

وقد تولت صحيفة (النهار) البيروتية وملحقها والدستور وهما صحيفتان معروفتان بميولهما الغربية ، تضخيم الكاتب الماركسي وسلطت عليه وعلى مؤلفه الأضواء وسخرت صفحاتهما لخدمة فكرة الكتاب طيلة أكثر من ثلاثة أشهر وذلك في أواخر سنة ١٩٦٩ وبداية سنة ١٩٧٠ . فتأمل !!

ولا بد أيضاً من لفت النظر ونحن في صدر الكلام عن الاتجاه الشيوعي، ان هذا الاتجاه قد عدل كثيراً في استراتيجيته فراح يعتمد على دعاةٍ للقومية العربية تبنوا بشكل عنيف الفكر الماركسي .

وقد ظهر هذا التبدل بعد هزيمة حزيران سنة ١٩٦٧ . وخطر هذا الاستراتيجية انها اعتمدت على منظمات فدائية تمارس تحركها وفعاليتها من فوهة البندقية .

ولا شك ان لهذا معقبات كبيرة في التصور والمصير .

ونشير أخيراً الى ان الصـدام الفكري بين أجنحة الشيوعية وبصورة خاصة بين بكين وموسكو أوجد مشايعين لكلٍ من الاتجاهين بين شيوعيي العرب وقومييهم ، فكان عندنا من مختلف الألوان الحمراء والصفراء .. وما قد يجد ..

الاتجاه الاشتراكي

لم تظهر الاشتراكية في الشرق المسلم كاتجاه فكري متميز إلا بعد عام ١٩٥٠ فهي بهذا المعنى قريبة العهد .

ومع أنها كانت ردة فعل للشيوعية الفكرية فإنها قد اكتسبت منها كثيراً من المبادىء وحتى الألفاظ والشعارات . ولم يرد أصحابها لها ان تكون منفصلة عن القومية فجعلوها مندمجة بها أو رسالة لها وهكذا أصبحت الاشتراكية تصوراً ونظام حياة ..

فالاشتراكية ، عند دعاة القومية ، ليست مذهباً اقتصادياً مجرداً إنما هي عقيدة ومبدأ ورسالة ونظام ..

ولقد رأينا كيف أن القوميين دعوا أو طالبوا بعقيدة شاملة لمختلف جوانب الحياة تخلق الانسان العربي الجديد وتنظم المجتمع وتعطي معنى جديداً للأسرة وللمرأة وللحياة !!

وكانت هذه العقيدة هي الاشتراكية «فالاشتراكية العربية إذن هي تنمية الوعي القومي .. الذي يفسر مظاهر الحياة تفسيراً تكاملياً يستند الى أنها مجموعة عوامل وعناصر تتفاعل فيما بينها وتؤثر في بعضها البعض منها عوامل مادية ومنها عوامل معنوية وفيها الاقتصاد كما فيها السياسة كما فيها الفكر .. كما فيها العاطفة .. وكل هذه تتأثر ببعضها وتؤثر ببعضها والاشتراكية القومية هي ذات مضمون ومستلزمات وحدة وجوده القومي العربي ، انها الايمان بهذا المجموع العربي الكبير وبحقه في الحياة الحرة الكريمة [١] .

(١) مع القومية العربية ص ١٨٠ - ١٨١ .

« ان هذا المفهوم للإشتراكية العربية القائم على كونها ركيزة أساسية للوصول الى القيمة الحقيقية للانسان !! واعتبارها تعكس جانباً هاماً من نظرته في الحياة تتجاوز الاشتراكية كإنتاج وتوزيع لتصل الى ما وراء الاشتراكية كمواهب وطاقات وامكانيات وعطاء وباعتبارها تثبت الوحدة القومية وتعمل على تجسيدها في أنظمة ومفاهيم تنعكس في الحياة العربية اليومية .. [١]

أما البعثيون فانهم يذهبون نفس المذهب بإيضاح أكثر فقد جاء في مقدمة كتاب[٢] صدر في بيروت سنة ١٩٦٠ عن دار الطليعة ما نصه :

قد تختلف الآراء حول الأسباب الاجتماعية والسياسية التي أدت لظهور التفكير الاشتراكي في البلاد العربية ، ولكننا نستطيع ان نقول بدون تجاوز على الحقيقة بأن استقراء التاريخ السياسي في هذه الناحية يشير بكثير من الوضوح الى ان التفكير الاشتراكي قد جاء نتيجة لليقظة القومية العامة التي طبعت تاريخ المنطقة منذ بداية هذا القرن . وبعبارة أخرى كان ظهور التفكير الاشتراكي تعبيراً عن تقدمية الفكرة العربية منذ البداية».

وتقول الدراسة « يمر المجتمع العربي الحاضر في مرحلة تغيير اصلاحي في أوضاعه العامة . وهدف الاشتراكية هو تجديد أسس هذا التغيير أي جعله يسير الآن في اتجاه يؤدي لتحويل المجتمع في المستقبل الى مجتمع اشتراكي .. فالفرق بين التقدم الاجتماعي وبين الاشتراكية هو ان مقياس الأول نسبي لأنه مرتبط بالواقع المختلف الذي يبدأ منه في حين ان مقياس الاشتراكية ثابت مطلق لأنه مشتق من قيم غير نسبية وهي تحرير الانسان وحفظ كرامته ومنع استغلاله وتنشيط قوى الإبداع فيه .. وتنمية ميول الخير في نفسه .. وتحقيق حريته بأوسع معانيها ..

(١) المصدر السابق ص ١٧٣ .
(٢) دراسات في الاشتراكية لميشيل عفلق ومنيف الرزاز ومصطفى الملاح وسواهم من كبار قادة البعث العربي الاشتراكي المقدمة ص ٧ الى ١٤ .

ويقولون « بنفس المنطق يمكننا ان نقول بأن الاشتراكية لا تقتصر على الناحية الاقتصادية بل يجب ان تطبع كل جوانب المجتمع الأخرى من ثقافية واجتماعية وسياسية فتتخذ شكل نزعة تقدمية تحررية عامة شاملة .. إذ لا يمكننا ان نتصور مجتمعنا اشتراكياً صحيحاً تتحقق فيه العدالة في توزيع الثروة في حين يبقى نظام التعليم فيه مثلاً رجعياً .. يؤكد قيم المجتمع المتخلف .. وينشر الأفكار المحافظة .. ويقدس التقاليد البالية ..

ويقولون أيضاً ومن المبادىء الأساسية الأخرى في الاشتراكية العربية هو الثورية في معالجة قضية المجتمع ومبدأ الثورية .. هذا مشتق من النظرة العلمية التي تعتمدها الحركة الاشتراكية في البحث والتحليل .. ومن ذلك نستنتج ان لا بد من الصراع العنيف والانقسام الحاد في المجتمع واستناد علمية التغيير ، شطر الاشتراكية ، على هذا الصراع بالذات .. لا بد لكي يتحقق المجتمع العربي الاشتراكي من تجمع القوى التقدمية وتنظيمها وتوجيهها حسب العقيدة الاشتراكية والهجوم بها على الرجعية والأوضاع المتخلفة[1].

وكالقومية غدت الاشتراكية مذهباً سياسياً في بعض الدول العربية فقد تبنت مصر وسوريا خاصة الاتجاه الاشتراكي (ولم تصبح الاشتراكية ذات شأن إلا حين قرر الرئيس عبد الناصر في تموز سنة ١٩٦١ تطبيق الخطوات الأولى من الاشتراكية فكانت مصر بذلك أول بلد اشتراكي النظام في العالم العربي .[2]

وصدر بعد ذلك ، في الجمهورية العربية المتحدة الميثاق وفيه نرى نوع الاشتراكية المتبناة جاء في الميثاق . الاشتراكية العلمية .. هي الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم .. ان أي منهج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود (ص ٧٣).

---

(١) لا يعجب القارىء فهو يقرأ هنا لاشتراكية عربية لا لاشتراكية ماركسية .. حاول - بكل قواك وجهودك وذكائك - ان تكتشف الفرق بين الاثنين ..

(٢) التضليل الاشتراكي - صلاح منجد ص ٢٥ .

ويقول في الباب السادس (ص ٧١) ان الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر - وصولاً ثورياً الى التقدم - لم يكن افتراضياً على الانتقاء الاختياري .. وإنما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية ، مزقها الواقع ، وفرضتها الآمال العريضة للجماهير . . » .

وعلى هذا الأساس بدأ الكتاب المصريون يكتبون في الاشتراكية ككتاب[1] الاستاذ مصطفى المستكاوي الذي أورد فيه ما نصه :

« الاشتراكية هي مسألة عقيدة اعتنقها الشعب العربي كله من حدود إيران في الشرق حتى مشارف المغرب على المحيط الأطلسي . الاشتراكية فكرة تعمقت في عقل المواطن العربي. مسألة روح حية سرت في جسده، مسألة إيمان . . دخل قلبه مسألة ثورة اعتملت في نفسه » ص ٢٩ .

وكتب أحمد حسن الزيات في مجلة الرسالة[2] يقول « هل أنت قوي الرجاء في أن النظام الاشتراكي يدوم ما دامت الأمة ويقوم في البلاد العربية ما دامت العروبة ويقيه الله شر الرجعية والرأسمالية والكراهية ، حتى يتأصل في الأمة ويتوثق فيجري في القلوب . . مجرى الدم وفي النفوس . . مجرى العقيدة .

« اذا كانت أجوبتك على هذه الأسئلة بالإيجاب كنت اشتراكياً بدمك وعقلك وعصبك وهواك . . وان كانت أجوبتك عن أكثرها أو عن أقلها بالنفي فأنت اشتراكي مغلق . . فج تحتاج الى تفتح ونضج .

ومن خلال هذه المعاني كتب البعثيون القطريون في سوريا في تحديد معنى

---

(١) في التطبيق الاشتراكي أصدرته الدار القومية الحكومية ونقل هذه الفقرات الدكتور المنجد في كتابه التضليل الاشتراكي ص ٤٦ .

(٢) مجلة الرسالة العدد ١١٠٣ ، ٤ آذار سنة ١٩٦٥ تحت عنوان الاشتراكية حب ، راجع المصدر السابق ص ٥٨ .

الانسان العربي الاشتراكي الجديد وفي بيان طريق خلقه وابداعه فقالوا [1] .

« استنجدت أمـة العرب بالإله . فتشت عن القيم القومية في الإسلام والمسيحية . . استعانت بالنظام الاقطاعي ، والرأسمالي وبعض النظم المعروفة في العصور الوسطى ، كل ذلك لم يجد فتيلا . ومع كل هذا شمّرت أمـة العرب عن ساعديها ونظرت بعيـداً . . لترى طفلها الوليد يقترب شيئاً فشيئاً . . وهذا الوليد ليس إلا الانسان العربي الاشتراكي الجديد .

« الانسان المتمرد على جميع القيم المريضة الهزيلة في مجتمعه . . التي هي ليست إلا وليدة الاقطاع والرأسمال والاستعمار . . تلك القيم التي جعلت من الانسان العربي انساناً متخاذلاً متواكلا ، انساناً جبرياً مستسلماً للقدر . . . انساناً لا يعرف إلا أن يقول ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

« أما القيم الجديدة التي ستخلق الانسان العربي الجديـد فهي قيم نابعة من صلب الانسان المتمرد المعذب ، نابعـة من قلب الانسان الجائع نابعة من الانسان الاشتراكي الثوري الجديد ، الذي لا يؤمن إلا بالانسان ، وبالانسان وحده . .

« والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هي خلق الانسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن ان الله والأديان ، والاقطاع والرأسمال والاستعمار ، والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع الســابق ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ .

« ونحن ، إذ نشترط في انساننا الجديد رفضه للقيم السابقة علينا أن نضع قيماً جديدة محدودة . . ليست هناك سوى قيمة واحدة وهي الايمان المطلق بالانسان القدري الجديد . . الإنسان الذي لا يعتمد إلا على نفسه وعمله وما

---

(١) وعبر عن رأيهم هذا المرشح ابراهيم خلاص أحد العسكريين السوريين البعثيين وقـد جاءت هذه المقالة في مجلة جيش الشعب الرسمية والنـاطقة باسم ذلك الجيش في شهر أيار سنة ١٩٦٧ قبل هزيمة حزيران بشهر تقريباً فتأمل ! .

يقدمه للبشرية جمعاء لأنه يعلم نهايته الحتمية . . الموت . . وليس غير الموت لن يكون هناك نعيم أو جحيم . . بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض. لذلك هو مضطر الى أن يقدم كل ما يملك لأمته ولإنسانيته دونما مقـابل (كزاوية صغيرة في الجنة مثلا) » .

ولا بد هنا أيضاً من طرح السؤال من جديد هل يريد منا أعداء الاسلام ، صليبيون ومستشرقون ومبشرون وشيوعيون الخ . . أكثر من ذلك : أن يخرج ناس منا ومن أبناء جلدتنا ويتكلمون لغتنا يطعنون في ديننا واسلامنا .

الاتجـاه العلمـاني

ونتيجة لما تقدم ابتداء من محور التبشير والاستشراق وانتهاء باتجاهي القومية والاشتراكية فقد طرحت مسألة علمنة الدولة على صعيد رسمي . . . فالشباب المثقف وخريجو الجامعات والعـائدون من الغرب والشرق وحملة الأفكار القوميـة والاشتراكية جميع هؤلاء لا يدينون بدين الإسلام العقيـدة والمنهاج بل على العكس فان معظمهم يطالب بعقيدة جديدة تعالج موضوعات الكون والإنسان والحياة وتحقق الانسان العربي الاشتراكي الجديد . . أو التركي الجديد . . أو الايراني الجديد .

وهكذا غدت مسألة العلمانية أي فصل الدين عن الدولة وابعاد الدين الى التكايا ومحاربته ، مسألة مفروغاً منها عند من يعدون أنفسهم طليعة الأمة وساسة البلاد ؟

وعندهم أن انقلاب مصطفى كمال في تركيا على الخلافة ثم اعلانه الجمهورية مع قبوله بالاسلام ديناً ثم تعديله الدستور واعلان علمنة الدولة وتحظير الدعوة الدينية وسنه القوانين اللادينية أضخم تجربة علمانية لأبنـاء الشرق المسلم يمكن أن تقلد أو تحاكى [1] .

---

(١) راجع ما كتبناه في فصل كيف دالت دولة الاسلام .

ومما لا جدال فيه ان الاتجاه العلماني إنما يقصد الاسلام فقط إذ أن الاسلام هو دين الغالبية وهو فضلاً عن ذلك الدين الوحيد الذي يملك منهج حياة وتنظيماً لكل شؤون الدولة ومرافقها ، أما المسيحية فهي أصلاً ، قد قامت على فصل الدين عن الدولة أي على العلمانية (اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) .

وهناك أمر آخر في لبنان زاد مسألة العلمانية حدة وقوة فالوضع الطائفي الخطر يوحي دائماً الى المثقفين والأحزاب بضرورة علمنة الدولة [1] كطريق وحيد لانهاء الانقسام في لبنان . . وفي الوطن العربي .

والحقيقة ان الطائفية بمعنى الخصومة وعدم التعايش بين المسلمين والمسيحيين لم تنشأ إلا عندما تدخل الأوروبيون مبشرون ومستعمرون في شؤون الدولة العثمانية [2] وعندما جهل كل من الفريقين المسلمين والمسيحيين روح الدين وصفاء العقيدة .

الاتجـــاه الفلسفي

لقد تأثر الشرق المسلم بدراسات الغرب الفلسفية كما تأثر بسائر الأفكار القومية والاشتراكية . فقـد غزت الأفكار الفلسفية عقـول الشباب المسلم

(١) المادة الثامة من عقيدة الحزب التقدمي الاشتراكي في لبنان : علمانية في الدولة وحرية المعتقدات والغاء نظام الطائفية السياسية .

المـــادة الثالثة من المبادىء الاساسية لحزب الكتائب « قومية علمانية تحترم جميع الأديان والمعتقدات وتأبى أن يكون للدولة دين أو معتقد خاص بها .

المادة التاسعة من الحزت القومي السوري الاجتماعي « فصل الدين عن الدولة » . وأول نقطة في مخطط عمل حزب البعث العربى في لبنان كما صرح بذلك الدكتور علي جـــابر التركيز على علمانية الدولة ، راجع الأحزاب السياسية في لبنان لتوفيق المقدسي ولوسيان جورج .

(٢) انظر الطائفية والاقطاعية في لبنان والتبشير والاستعمار وتاريخ لبنان .

واستطاعت أن توجد لها المؤيدين والتلامذة الذين سرعان ما أسسوا المدارس الفلسفية وأصدروا المجلات وألفوا الكتب وألقوا المحاضرات وقاموا بنشاط كبير ملموس دعاية لفلسفة معينة أو اتجاه فلسفي عام .

ومن الأفكار الفلسفية الغازية ما يختص بفكر الانسان وتصوره كالحسية الوضعية والعقلية والوجودية ومنها ما يتعلق بنظرة للكون والانسان والحياة كالمادية الماركسية .

● محور الجمعيات والاحزاب

لعبت الجمعيات والأحزاب القومية والسياسية والفكرية وحتى الأدبية دوراً بارزاً في أحـداث الشرق المسلم ولا تزال تقوم بالأعباء والمهمات التي عجزت الصليبية واليهودية عن تحقيقها بوجـه سافر . ولا نقـول ان جميع أحزاب وجمعيات المنطقة تقوم عن قصد بخدمة هذه الأغراض الملوثة إذ أنه قد تكون بعض هذه المنظمات قد نشأت بغية تحقيق أهداف أخرى إلا انها اتفقت في نشاطها ووسائلهـا وغاياتهـا البعيدة مع مـا نشأ عن قصد وعن دراسة . .

ان خطر هذا المحور قيامه على التنظيم والتنسيق والمتابعة ، فالقومية مثلاً ليست بالنسبة لهذه المنظمات ايدولوجية فحسب ، محاضرات تلقى وكتباً تنشر إنما هي فوق هذا ، تعهد للعناصر التي آمنت بالعقيدة الجديدة وتربية لهم وتكوين وتنظيم وتدريب حتى يصبحوا دعـاة للمنهج الحزبي فـاعلين مؤثرين في الرأي العام واتجاه الأمة .

والقاسم المشترك لأكثر منظمات الشرق المسلم انها وليدة التفكير الغربي أو هي من وحي سياسي (التغريب أو التهويد) العالميتين ـ على مـا فيهما من تضارب في بعض الأحيان ـ الداعيتين الى وجوب ابعـــاد الاسلام عن ميدان الحياة وتفتيت قواه ومؤسساته مها عظمت التضحيات وغلا الثمن .

«وكثيراً مـــا نرى جمعيات محلية أو دولية أو مؤسسات اجتماعية أو خيرية أو رياضية أو ثقافية أو مؤسسات تعمل ظاهراً للكشف عن الآثار أو للتبشير في الظاهر وهي إنما تعمل في الباطن لتخريب المجتمع فتعلن عن أهداف براقة مرغوبة جداً ولكنها تعمل – في حقيقة الأمر على إثارة النزاع الطائفي أو التعصب العرقي أو بلبـــلة أوضاع المجتمع بمختلف الأساليب الشيطانية أو تعمد الى أسلوب تكتمي للغاية . . كأن تستر وراء أهدافها العلنية ، أهدافاً سرية تناقض مصالح المجتمع وتهدم دعائمه .

«ان هذه القوى وفي حقيقة الأمر، ليست إلا قوى احتياطية يستخدمها المستعمرون لسند هدفهم الأساسي ، لذلك نجدهم يشجعونها ويبذلون العون المادي والمعنوي العلني والسري لها . . ويجمعون أقطابها وقادتها عند اللزوم ويسهلون لهم تسنم أسمى المناصب في ديارهم ودولهم . لذا نراهم ينتقلون في دوائر الدولة بسرعة إذ يسند بعضهم بعضاً ويتكاتف تكاتفاً عجيباً وغريباً ويستفيدون كثيراً من الشركات الاستشارية ، خاصة ما كان لها طابع عالمي أو كانت تابعـــة لاحتكارات أجنبية فيتولون ادارتها أو مهمة الدفاع عنها كمحامين أو وكلاء وغير ذلك من المهام لقـاء مبالغ كبيرة تقوم بدورها لدعم مراكزهم في المجتمع وتضاعف نفوذهم بين الناس [1] ».

١ ـ الماسونية تحتضن رجال الحكم ومؤسسي الاحزاب :

ولعـل أخطر الجمعيات في الشرق التي نشأت قديماً ولا تزال على قيد الحياة وتنفرد بأعمال مشبوهة وتضفي على نفسها وأشخاصها والعاملين فيها ومشروعاتها طابع السرية المطلق هي الماسونية .

ومن المعـروف لدى الجميع ان الماسونية حركة يهوديـة ذات أسرار ودرجات هدفها الأكبر قيام دولة اسرائيل في فلسطين والتحكم في سير

(١) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام للاستاذ محمد محمود الصواف ص ٢٧٩ – ٢٨٠

الشرق المسلم خاصة والعالم بأسره عامة . . ومع هذا فاننا نجد كثيراً من ساسة بلاد الشرق ومثقفيه وعلمائه وشخصياته أعضـاء كبـاراً في محافل هذه الجمعية الخطرة .

ونكتفي ، هنا أن نشير الى أهداف الماسونية كما أعلنت ذلك مجلة أكاسيا الماسونية الايطالية سنة ١٩٠٤ قالت المجلة [1] :

«من أهداف الماسونية محاربة الأديان وصيانة الدول اللادينية..العلمانية.. ولذا فهي تستسيغ الارهاب بالتجرد عن مفاهيم الأخلاق والضمير .. ويجب ان تكون الماسونية مرنة حسب الظروف والأوضاع » .

يقول الاستاذ عمر الحكيم « وتمكن اليهود من تأسيس الحزب الماسوني في الدولة العثمانية وكانت غايته استخدام رجالات الدولة العثمانية للحصول منهم على المساعدة اللازمة لفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود من شتى أنحاء العالم واقامة وطن يهودي قومي فيهـــا باسم (الأخوة الماسونية) التي لا تعرف وطناً ولا ديناً ولا عنصراً في الظاهر وهي في الحقيقة مؤسسة يهودية عالمية تسعى الى تسخير رجالات العالم أجمع.. والداخلين في هذا الحزب الى خدمة مآرب الصهيونية تحت ستار الأخوة الانسانيه ونصرة الانسانية .. وقـــد لعبت المنظمات الماسونية دوراً بالغاً في حرب فلسطين فقد أوعزت الى جميع أعضائها في البلاد العربية بتأييد قيام اسرائيل .. [2] .

ولقد رأينـــا كيف احتضنت المـاسونية في تركيا وفي الغرب وفي كل مكان من الدولة العثمانية ، جمعية الاتحـاد والترقي ، وكيف خططت لهـــا

(١) نقلاً عن الماسونية أقدم الجمعيات السرية وأخطرها ص ٢٣ وبهذا المعنى ما قاله زيل الماسوني في النشرة الرسمية للشرق الأعظم الفرنسي « على الماسون أن يتحرروا من كل اعتقاد بوجود الله لأنه لم يبق أحـد يؤمن بالله الا البله والحمقى ويجب عليهم أن يتصوروا أنه ينبوع كل استبداد وظلم » راجع المخططات الاستعمارية ص ٢٨٧ .

(٢) حاضر العالم الاسلامي ص ٩٨ .

وساعدتها في الانقلاب على السلطنة وكيف سهلت السبل لليهودي مصطفى كمال حتى وصل الى ما وصل إليه وألغى الخلافة الاسمية الإسلامية [١] .

وكذلك فقد احتضنت الماسونية في بيروت أكثر الجمعيات الأدبية والفكرية والقومية التي نشأت في العهد العثماني بغية الانفصال أو لأي هدف سياسي أو فكري آخر .

يقول جورج انطونيوس [٢] « يرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية .. الى سنة ١٨٧٥ .. حين ألف خمسة شبان من الذين درسوا في الكلية البروتستنتينية السورية ببيروت جمعية سرية .. وكانوا جميعاً نصارى.. ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم.. فاستطاعوا أن يضموا الى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون الى مختلف الطوائف الدينية ويمثلون الصفوة المختارة.. المستنيرة في البلاد . وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها اوروبا .. فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية عن طريق أحد زملائهم ان يستميلوا إليهم المحفل الماسوني .. الذي كان قد أنشىء من عهد قريب ويشركوه في أعمالهم .

والى جانب الجمعيات التي نشأت هنا وهناك [٣] قامت الأحزاب السياسية والعقائدية في طول البلاد وعرضها .. وأبرز صفة في نشأة الأحزاب القومية والعقائدية هي أن هذه الأحزاب ترعرعت في الجامعة الأميركية في بيروت وان زعماءها الفكريين مفلسفي العقيدة هم من المسيحيين الذين درسوا في معاهد التبشير وتخرجوا من جامعات الشرق الأميركية أو الفرنسية أو من معاهد باريس ..

---

(١) راجع ما كتبناه في الفصل السابق .

(٢) كتاب يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية كتبه بالانكليزية جورج انطونيوس وهو لبناني من ديرالقمر وعربه الدكتوران ناصر الدين الاسد واحسان عباس ص ١٤٩ .

(٣) نذكر منها : جمعية العلوم والفنون ـ الجمعية الشرقية ـ رابطة الوطن العربي ـ الجمعية العربية الفتاة ـ حزب اللامركزية ـ المنتدى الأدبي . . . الخ .

يقول جورج انطونيوس في كتابه يقظة العرب بدأت قصة الحركة القومية للعرب في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت في ظل رعاية أميركية[١].

ويوم نشب الصراع العقائدي في بيروت بين منظمة الكتائب التي تدعو الى وطنية لبنانية .. وبين الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي يدعو الى وحدة بلاد الشام – خاصة بعد محاولة الحزب الانقلابية عام ١٩٤٩ – تكشفت حقائق – كانت عن أعين الكثيرين – محجوبة . فالكتائب طالبت السلطات اللبنانية بإغلاق الجامعة الأميركية لأنها (بؤرة ملاىء بالدس على لبنان وعلى كيانه . ان أكثر الضالين من اللبنانيين ضلوا بين أحضانها وكل المهوشين علينا من جيراننا تلقنوا بغض لبنان وأساليب السعي ضده تحت أكنافها وهل كانت حركة انطون سعادة تمكنت لو لم تجد لها أرضاً خصبة في تلاميذ الجامعة الاميركية لبنانيين وغير لبنانيين [٢] ورداً على هذا النداء سمعنا من يقول[٣] «فاذا كان المقصود من الضلال» أرباب العقيدة العربية السليمة . . فان طلبة الجامعة ليفتخرون بعهد أيقظ فيهم روح العزة العربية . . وجميع أبناء البلاد العربية في حظيرة هذه القومية . . وانهم يشفقون على مقتفي قوميات شعوبية سواء كانت قوميات لبنانية أو فينيقية أو سورية .

« . . ان مليون حجة تبنى على قومية محلية لا تقنع سورياً أو عراقياً بفساد نظرية القومية السورية بل الاقناع يتأتى من التطلع الى قومية واسعة ناسخة هي القومية العربية ان هذه المهمة يتبرع بها طلاب الجامعة الاميركية وهم رسل القومية العربية في اتحاد الشرق العربي وحملة أعلام التحرر

---

(١) يقظة العرب ص ٧١ .

(٢) جريدة العمل ٩ تموز ١٩٤٩ انظر التبشير والاستعمار ص ٩٠ - ٢١ .

(٣) جريدة الديار ١٠ تموز ١٩٤٩ انظر المرجع السابق .

والاستقلال يوم كان طلاب المعاهد الأخرى يغوصون في عبادة الاستعمار الى ما فوق الرقاب * » .

وهكذا نرى بوضوح ، دور الجامعات الأجنبية في تخريج الأفكار الحزبية القومية والشعوبية واللادينية .

٣ - حزب القومي السوري الاجتماعي :

فأنطون سعادة ، كما يقول عبد الله قبرصي أحد زعماء الحزب الكبار ، عندما أسس الحزب القومي الاجتماعي عام ١٩٣٢ إنما قام بعملية بعث ، فهو لم يوقظ الوجدان القومي بل انه صاغ في « القومية الاجتماعية » فلسفة ثمينة بأن تنقذ العالم كله من آفـــة الشيوعية ومن الحروب ومن سباق التسلح بين الدول الكبرى ومن التفسخ الاجتماعي والانهيار الاقتصادي والمناقبي .

« ونحن ، أي الحزب القومي الاجتماعي خريج الجامعة الأميركية ، لم نخلق (الأمة السورية) بل اكتشفناها بعد ان تكاثفت فوقها أجيـال من التجزئة والعبودية والانحطاط المرضي . فقد وجدت « الأمة السورية » قبل الميلاد ، وقبل الفتح العربي بأمد طويل ، حين كانت المدن الفينيقية بالرغم من تصارعها مع بعضها تتكاتف وتتوحد لترد كل فاتح أجنبي وحين كانت على الرغم من النزاعات الداخلية التي تمزقها وتدميها وتنهكها تستيقظ آناً بعد آخر وتستعيد قوتها على الخلق والابداع ، لتنفح تاريخ الانسانيه بأثر حضاري خالد . . »[1] .

٤ - القوميون العرب :

« أمـــا القوميون العرب أو حركة القوميين العرب أو الشباب القومي

---

* اشارة الى الكتائب والى زعمائهم المتخرجين من الجامعة اليسوعية .

(١) الاحزاب السياسية في لبنان ١٩٥٩ لتوفيق المقدسي ولوسيـــان جورج منشورات جريدة الجريدة في لبنان .

العربي (فهم) نمط من التفكير السياسي ، تكون في لبنان منذ أكثر من عشرين سنة وتوزع على مختلف أنحاء العالم العربي في سوريا والاردن والعراق وليبيا وتونس والسودان ومراكش والكويت والسعوديـة . . وكانت نواة « القوميين العرب » أو هـذا النمط من التفكير السياسي في نادي « العروة الوثقى » لطلاب الجامعة الاميركية . . »

لقد مر حدثان في مجرى تاريخ البلاد العربية كان لهما أثر فعال جداً في وضعية القوميين العرب الراهنة هـذان الحدثان هما نكبة فلسطين وقيام حلف بغداد .

وبالفعل فقد شهدت العروة الوثقى * في الجامعة الاميركية في بيروت . . بعد أن حدثت هجرة الفلسطينيين الى البلاد العربية نشاطاً كبيراً ، ذلك أن معظم الشباب الفلسطيني القادر كان يلتحق بهذه الجامعة ، وينتسب للعروة الوثقى ، فيما رس عن طريقها ، نشاطه السياسي والقومي .

« . . والقومية العربية هذه تتخذ معاني شتى في أذهان الشباب القومي العربي المتخرج من الجامعة الاميركية فهناك :

أولا : فئة القوميين العرب الواعين ، الذين يفهمون دعوتهم على انها سبيل للتحرر من سيطرة الاستعمار الغربي ولتحقيق وحدة عربية ترضي نزعة نفوسهم الطامحة .

ثانياً : فئة القوميين الذين يعادون في بلدانهم العربية الظلم الاجتماعي فيجدون

---

* جاء في ملف النهـــار العالم العربي اليوم - الفلسطينيون في لبنان عدد ٣ تعريفاً للعروة الوثقى ص ٥ وهو التالي :

« كانت تستقطب طلاب الجامعة الذين يؤمنون «بالقومية العربية» جمعية سميت نفسها «جمعية العروة الوثقى » تألفت هذه من المتحمسين للقومية العربية المعارضة للاشتراكية ، المطالبة بمصالحة الغرب ، ومناصرة اميركا في سعيها لازاحة الاستعمار التقليدي القديم (الانكليزي - الفرنسي) وكان هؤلاء يعتبرون اميركا رائدة التقدمية والديمقراطية والحرية ، ويحملون لواءها » .

في القومية العربية تباشير مستقبل ومنفساً للكبت النفسي الذي يعانونه ويتألمون منه خصوصاً بعد ان تتفتح أعينهم على أضواء المعرفة .

ثالثاً : فئة القوميين العرب من أبناء الأسر الحاكمة أو الطبقات الاجتماعية الغنية هؤلاء يجدون في الدعوة القومية العربية مجالاً للسير في ركب الأفكار التقدمية أو لمسايرته دون أن يتنازلوا عن شيء من امتيازاتهم الموروثة [١]. ومن الزعماء الفكريين والمنظمين الكبار لحركة القوميين العرب الدكتور جورج حبش ! !

٥ – حزب البعث العربي الاشتراكي :

وقبل القوميين العرب نشأ حزب البعث العربي في سوريا عام ١٩٤٠ بقيادة الإستاذ ميشيل عفلق – خريج مدارس التبشير في دمشق وباريس ! – بالتعاون مع لفيف من أساتذة سوريا وقد لاقى هذا الحزب صدى بعيد المدى في أوساط المثقفين والطلاب من العراق والأردن فضلاً عن سوريا وذلك لدعوته الى بعث القومية العربية على أسس اشتراكية ! ثم اتحد الحزب العربي الاشتراكي الذي أسسه أكرم الحوراني سنة ١٩٥١ والقائم أساساً على الدعوة الاشتراكية وتولد عن الاتحاد حزب البعث العربي الاشتراكي سنة ١٩٥٣ .

ولقد مزج هذا الحزب فكرة اشتراكية اقتصادية بفكرة قومية غامضة وربح عدداً كبيراً من الأنصار في الشرق العربي وكان هذا الحزب بالإضافة الى الحزب الشيوعي الحزب الوحيد الذي يحمل أيدولوجية منظمة ! وأسس شبكة واسعة من الفروع ، أما أتباعه فكانوا من المتعلمين . . ومن الطبقة العاملة[٢] .

(١) المصدر السابق ص ٥٦ - ٥٧ - ٥٩ .

(٢) الغرب والشرق الأوسط برنارد لويس ص ٩٦ - ٩٧ .

٦ – الحزب الشيوعي :

« أما الحزب الشيوعي فقد نشأ أول ما نشأ في لبنان ١٩٢٥ على شكل منظمات وتيار فكري عقائدي ، يتجلى في الكتب المعربة والصحف والمجلات التي كانت تصدرها هذه المنظمات من الشباب المثقف ولم ينظم الشيوعيون هنا في اطار حزبي بالمفهوم الشيوعي إلا عام ١٩٣٠[١] .

« وعندما تشكل الحزب قرر أن يسير على خط عقائدي واضح في تكوين الأعضاء مهما بلغت التضحيات وتلكأ السير ، لذلك أعلن الحزب موقفه من الثقافة الحزبية والموضوعات التي يجب أن يتناولها – والتي تعتبر دستور الحزب – بالأمور التالية :

اولا : درس تاريخ الحزب البلشفي لنشره خارج الحزب بين جماهير الشعب ومن واجب القيادة المركزية واللجان المنطقية ان تساعد الكادر وكل الاعضاء على درس الفصول المترجمة الموجودة بين أيدي المنظمات مع العمل الجدي لوضع بقية الفصول بين أيديهم بدون تأخير .

ثانياً : تأليف لجنة ثقافية في كل منطقة مهمتها المساعدة في تدريس تاريخ الحزب وكل العمل الثقافي .

ثالثاً : فتح باب ثقافي في جريدة الحزب (نضال الشعب) ومساهمة جميع المنظمات فيها .

رابعاً : معالجة القضايا التي تضعها المقررات على أساس نظري مع الاستشهاد بكتابات لماركس وانجليز ولينين وستالين .

خامساً : شرح تعاليم لينين وستالين عن الستراتجي والتاكتيك . .[٢] »

(١) الأحزاب السياسية سنة ٩٥٩ .

(٢) الشيوعية المحلية ومعركة العرب القومية لحكم دروزه الطبعة الاولى سنة ٩٦١ ص ١٤١ .

وانتشر الحزب الشيوعي في أكثر بلاد الشرق المسلم وكون الخلايا الحزبية المنظمة واستطاع أن يستميل اليه كثيراً من الشباب المثقف والعمال .

ويبدو ان اليهودية العالمية قد عملت على تأسيس فروع للحزب في كافة أرجاء الوطن العربي ، فقد نشرت جريدة الشهاب البيروتية تحقيقاً عن نشأة الأحزاب الشيوعية في عددها الصادر في ١٩٧٠/٨/١ جاء فيه :

« فقد أسس أول حزب شيوعي في فلسطين عام ١٩٢٢ على أيد اليهوديين الروسيين (أبو زيام ، وباكوب تيبر) .

وقد سافر ياكوب تيبر الى بيروت عام ١٩٢٤ حيث استطاع ان يؤسس مع اليهودي جوزيف برغر الحزب الشيوعي اللبناني ، وامتد نشاط هذا الحزب الى سوريا حيث استطاع هؤلاء اليهود مع بعض العرب تأسيس الحزب الشيوعي السوري اللبناني .

أما في العراق فقد أسس الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٣٤ على أيدي اليهود أمثال صديق يهودا ، وساسون دلال ويعقوب كوجمان .

أما في مصر فقد أسس اليهوديان الروسيان فيجدور ، ناداب عام ١٩٤٢ (الحركة المصرية للتحرر الوطني) وموّل هذه الحركة اليهودي الايطالي الأصل هنري كوريل الملقب بالرفيق يونس وصاحب بنك كوريل في القاهرة ، كما ألف اليهودي هيكل شفاتس منظمة الايسكرا الشيوعية وقد اتحدت هاتان المنظمتان عام ١٩٤٧ تحت اسم الحركة الديمقراطية المصرية للتحرير الوطني المعروفة باسم (حدتو) . كما أسس اليهودي مرسيل اسرائيل عام ١٩٤٢ منظمة تحرير الشعب الشيوعية ، كما أسس اليهود المقيمون في مصر غير هذه المنظمات حتى بلغ عدد الواجهات الشيوعية في مصر أربعة عشر منظمة ، وفي عام ١٩٥٦ دعا الحزب الشيوعي الايطالي رؤساء هذه المنظمات الى الاتحاد — بوحي من موسكو — ، وبعد مفاوضات اتحدت هذه المنظمات في يناير ١٩٥٨ تحت اسم (الحزب الشيوعي المصري) » .

ويعتمد الحزب فضلاً عن الصحف والمجلات والكتب المعربة على ما تصدره السفارات الروسية في بلدان الشرق من نشرات ورسائل ودراسات وبيانات * .

محور التشكيك بالاسلام : العقيدة والحركة

ولعل هذا المحور أخطر المحاور في الهجوم على الشرق المسلم ويهدف هذا المحور الى إثارة شبهات كثيرة حول الإسلام العقيدة والمنهاج ، والى التشكيك بأفكاره ومعالجته شؤون العصر المتجددة والى الطعن بكل حركة اسلامية تقوم بالدعوة الى الله ...

ويستخدم هذه المحور لتحقيق أهدافه كل وسيلة ممكنة . والمحور في حقيقته وسيلة مشتركة بين جميع المحاور ... لذلك رأينا كافة المحاور تثير حول الاسلام والعاملين له الغبار متهمة إياهم بشتى الأكاذيب والأراجيف .

والمدقق يجد ان هذا الاتجاه قد آتى أكله فكثير من شباب المسلمين قد شكوا في اسلامهم وتخلوا عنه وتحولوا الى سواه من عقائد البشر وفلسفات العصر ... حتى غدوت ترى مخالفة الإسلام في كل صغيرة وكبيرة وتكاد لا تجد من ينكر هذا الواقع الفاسد المظلم .

لقد فقد المسلم حسه الاسلامي وتصوره الاسلامي وحياته الاسلامية ... وشب أولاد المسلمين على انحراف كبير في القيم والسلوك ... وارتكست الحياة العامة والخاصة للشرق المسلم في جاهلية قد تكون أشد من جاهلية ما قبل الاسلام .

ولا يُنَغص على هذا المحور حياته إلا وجود الحركات الإسلامية تلك

* نذكر منها على سبيل المثال : (الاشتراكية هي السلام والصداقة بين الشعوب - بيان من الحكومة السوفياتية - الاستعمار يغير وجهه لكنه لا يغير عاداته - استراتيجية العقل - رسالة مقدمة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الى المنظمات الحزبية وجميع الشيوعيين في الاتحاد السوفياتي) . . .

الحركات التي تصدت بقوة وجرأة وبوعي واخلاص لمحاربة شتى المحاور ولمقاومة الهجوم الماكر . . . فكان لا بد لهذه المحاور بغية تأمين النصر الكاسح لهـا من تغييب الحركة الاسلامية عن معترك الصراع . فتعاون الاستعمار بشقيه الغربي والشرقي والصليبية الدولية واليهودية العالميـة لتحقيق هذه الأغراض فوجهت الضربات الى هذه الحركات وشوهت حقائقها ومناهجها . . . حتى كاد يجزم الباحث المدقق ان وراء كل ضربة أو تشويه لحركة اسلامية عاملة في الشرق المسلم خطة استعمارية دولية .

وحين يتقرر هذا كله تتضح معه شناعة الجريمة التي يرتكبها اولئك الذين يوجهون الضربات الوحشية لطلائع البعث الاسلامي في كل مكان ... والذين يجندون قواهم كلهـا لطمس معالم المنهج الاسلامي بشتى الخدع والتمويهات والأكاذيب[1]

ان الضربات الوحشية التي « تكال لطلائع البعث الاسلامي في كل مكان على ظهر هذه الأرض ، تشترك فيها كل المعسكرات المتخاصمة التي لا تلتقي على شيء في مشارق الارض ومغاربها إلا عـلى الخوف من البعث الاسلامي الوشيك الذي تحتمه طبائع الاشياء وحقائق الوجود والحياة ودلالات الواقع البشري من هنا ومن هناك »[2] .

والآن ...

وبعد هذه الجولة السريعة على محاور الهجوم الماكر على الاسلام وحركته نعلن بكل ثقة ويقين أن « المستقبل لهذا الدين » .

ان الذي يفصل في انتصار الاسلام على الهجوم الماكر (ليس هو ضخامة الباطل وليس هو قوة الضربات التي تكال للاسلام انما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق ومدى الصمود للضربات)[3] .

(١) المستقبل لهذا الدين سيد قطب ص ١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٦ .
(١) المصدر السابق ص ١١٦ .

وهذا الدين لن يهزم في معركة المصير ... لأنه قرآن من الله وقد سبق الوعد من الله في انتصار هذا الدين (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

« فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين ومن حاجـة البشرية الى هذا المنهج نستمد نحن يقيننا الذي لا يتزعزع في ان المستقبل لهذا الدين وان له دوراً في هذه الارض هو مدعو لأدائـه — أرادوا أعداؤه أم لم يريدوا — وان دوره هـذا المرتقب لا تملك عقيدة أخرى ، كما لا يملك منهج آخر ، أن يؤديه ، وان البشرية لا تملك كذلك أن تستغني طويلاً عنه »[1] .

سيكسب هذا الدين الجولة الاخيرة في معركة الحياة ... ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله ألا ان نصر الله قريب . . . ويومها أيضاً سيقول الاسلام لأبنائـه — الذين حاربوه وهاجموه — (لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

(٣) المستقبل لهذا الدين ص ١٠٦

الفصل السابع

المجابهة

على أثر الهجوم الماكر الذي تعرض له الاسلام في الشرق والذي أظهرنا بعض جوانبه ومحاوره في الفصل السابق، قام من يصد الهجوم ويرد العدوان ويسعى جاهداً لكسب الجولة الأخيرة وتأمين النصر النهائي .

ولا ريب ان جهد المعركة ومستلزماتها ليس باليسير فمن المفروض بداهة أن تكون محاور صد الهجوم أقوى من محاور الهجوم حتى تتمكن الأولى من التغلب على الأخرى وحتى تتمكن ـ بعد ذلك ـ القيام بهجوم مضاد يعيد الحق الى نصابه . .

والناظر الى معترك الصراع بين الإسلاميين وأعدائهم يجد أن القوى غير متكافئة والامكانيات غير متعادلة والمحاور غير متوازية .. ويكاد المرء يقول بعد النظرة العجلى هذه بحتمية مستقبل مظلم أسود . .

بيد أننا إذا أمعنا النظر في طبيعة الصراع وأحوال المتصارعين تأكدت عندنا نظرة أخرى انبثق عنها أمل مشع لمستقبل مضيء مشرق ..

صلابة المقاومة الاسلامية :

ان صلابة المقاومة الإسلامية تشير الى أصالة في الإيمان والفكر والى وعي عقائدي رائع والى تصميم وعزم أكيدين في دفع المقاومة قدماً الى الأمام. لقد انبثقت المقاومة الإسلامية بوحي الشرع فكانت متميزة بالأصالة الواعية المدركة من أول يوم فلاعجب بعد ذلك ان تكون قد حددت أهداف عدوها المهاجم ثم رسمت الخط العريض لمجابهته . فالعدو الغربي الجاهلي يريد قتال الاسلام .. وفي سبيل الوصول الى هدفه هذا توسل بكل شيء، احتل الأرض وفرّق الكلمة واستثمر الخيرات وذل الشعوب .. فلا بد ، اذا ما

أراد الشرق المسلم أن يفوت على العدو هدفه ويحبط مسعاه ، ان يكشف عن غاية الجاهلي الزاحف والصليبي المهاجم ويعلن بصراحة ووضوح تمسكه بقرآنه منهجاً لحياته ودستوراً لمؤسساته وأنظمته ..

تحديد الأهداف :

ان تحديد الأهداف في معركة الصراع أول خطوة للنصر المؤكد وكل محاولة لتغييب هذه الأهداف لا يمكن ردها إلا الى جهل بطبيعة الصراع أو الى تمويه من العدو المهاجم . فالحركات التي تجعل من وسائل المهاجم غايات له وأهدافاً كباراً حركات تنقصها الإصالة ويعوزها الوعي أو.. هي حركات للتمويه أوجدها المهاجم نفسه لتشتيت القوى ولإخفاء الأهداف من معركة الصراع ..

ان الجاهلية ، من غرب وشرق ، لم ترد في يوم من الأيام احتلال الشرق لأنه شرق .. فيه الخيرات والماء العذب الفرات إنما أرادت ان تطمس معالم الحياة فيه بجاهلية جديدة كجاهليتها أو أشد .. فعندما استطاعت تجهيل قلوب المسلمين وصلت الى كل شيء الى خيراتهم وثمراتهم الى أسواقهم وتجاراتهم ..[1]

وبهذ المعنى ما أطلقه الامام الشهيد حسن البنا كشعار للمقاومة الاسلامية ضد الجاهلي المهاجم (اطردوا الاستعمار من قلوبكم يخرج من أرضكم) . ففي الوقت الذي تتمرد فيه قلوب الشرق على جاهلية المهاجم .. لا يستطيع هذا العدو أن يَثْبُتَ على أرض الشرق لا بجيشه ولا بفكره اذ أنها تكون قد مادت من تحته .

وقد لاحظ بعض الدارسين هذه الخاصية في المقاومة الاسلامية فقال

(١) قال وزير المستعمرات البريطاني في أواخر القرن التاسع عشر « ما دام القرآن بين أيدي المسلمين معززاً فانه سيعيق سبيلنا ، لا بد من اخفاء ، هذا الكتاب عنهم أولاً » . انظر حياة سعيد النورسي ص ١٣ .

الاستاذ برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الأفريقية والشرقية بجامعة لندن في كتابه الغرب والشرق الأوسط ما نصه :

ومن بدء التغلغل الغربي في العالم الاسلامي .. حتى يومنا هذا كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصيلة التي قامت في وجههم ، حركات اسلامية . ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الإيمان والعقيدة بمشاكل الجماعة الإسلامية التي سيطر عليها غير المسلمين ، أكثر من اهتمامها بأرض أو بلد احتله الأجانب ، وأقوى الحركات الثورية التي قامت ، والتي كسبت أقوى التأييد وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينية شعبية في أصولها ، وفي شعاراتها ، وفي الاسلوب التي عبرت عن غايتها وسبيلها (١).

محاور المقاومة الاسلامية :

وعلى غرار محاور الهجوم كانت المقاومة الاسلامية تعمل على محاور أيضاً . فمنها ما تميز بالعمل الفردي ومنها ما انصبغ بالتعليم والخدمات الاجتماعية ومنها ما كان أكثر شمولاً وحيوية عن طريق الأحزاب والمنظمات الاسلامية ..

فمحاور المقاومة الاسلامية إذن ثلاثة :

أولها : محور العمل الفردي .
ثانيها : محور الجمعيات الخيرية والتعليمية .
ثالثها : محور الأحزاب والمنظمات الاسلامية .

● **محور العمل الفردي :**

وضم هذا المحور جهود عدد كبير من الشخصيات الاسلامية التي لم يتسن لها ان توجد حركات إسلامية منظمة وان تلتزم بالحركات القائمة .

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ١٤٨ .

ولا ريب ان هذا الجهد المبرور كان له كبير الأثر في تفتح الوعي الاسلامي في قلوب الناشئة في الأجيال المتعاقبة وربما أيضاً كان له أثر في تنشئة رجال سعوا فيما بعد لإيجاد المنظمات والأحزاب الاسلامية العاملة .

ولا تكاد بلدة في الشرق تخلو من داعية أو أكثر كتب أو نشر أو دعا وقاوم محوراً أو أكثر من محاور الهجوم الماكر . وهذا الزخم الهائل قد سد سداً كبيراً في الجهاد الاسلامي ضد الزحف الجاهلي الصليبي الخطر .. بيد أن فاعلية هذا المحور تتوقف الى حد كبير على المواهب الشخصية الذاتية للمفكر المسلم فتشتد هذه الفاعلية أوتضعف تبعاً للقدرة أو الوضوح الشخصي.. وعملُ هؤلاء الاسلاميين من خطيب المسجد الى مؤلف كتاب الى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ، يتميز بالفردية أي أن عمله يخرج من ذاته دون تخطيط جماعي عام . وثمرات هذه الأعمال أشبه بزارع ينشر البذور في كل مكان فان أصاب أرضاً طيبة أنبتت بذوره وآتت أكلها وإلا تلفت ولفها العدم ..

ومن هذا يتضح المقصود بالعمل الفردي فهو كل عمل يقوم به داعية اسلامي من تلقاء نفسه دون أن يخضع هو أو عمله لمخطط اسلامي جماعي أي دون أن ينظم ثمرات عمله ويسلكها في حركة مسؤولية منظمة .. ويبقى العمل فردياً ولو كان للعامل تلاميذ وأنصار يأخذون عنه ويدرسون عليه ..

ويهدف الاسلاميون الفرديون الى كشف مخططات الهجوم الماكر على الاسلام والى توعية المسلمين في شؤون اسلامهم ورفع مستواهم الفكري والروحي والى الدفاع عن الاسلام على أنه فلسفة أو منهج أو دستور أو نظام. إلا أن هذه الأهداف يسعى كل منهم للوصول إليها بوسيلته الخاصة ودون تنظيم أو ترابط فيما بينهم ..

ويتوسل هؤلاء لبلوغ الأهداف بالخطابة والتدريس المسجدي والكتابة

والتأليف وإصدار المجلات والصحف وربما أيضاً التدريس في المدارس والمعاهد والجامعات .

واذا ألقينا نظرة الى هؤلاء وجدناهم عدداً ضخماً يأمل المرء بهم خيراً كثيراً .. بيد أنه سرعان ما ينقلب كئيباً أسفاً بسبب انعدام الرابطة التنظيمية بين هؤلاء وإصرارهم في عناد على رفض مواكبة الحركات الاسلامية المنظمة في عمل جماعي مشترك ..

ان القوى الفردية الإسلامية قوى ضخمة هائلة . ولو أنها انضوت في عمل جماعي حركي أو التحقت في تجمع اسلامي أو تنظيم فاعل إذن لـسرّعت تحرك المقاومة الاسلامية ولضاعفت من طاقاتها وامكاناتها ولفوتت فرص أعدائها المتربصين بها الدوائر ..

ويمكننا هنا أن نقرر بكل طمأنينة أن قادة العمل الفردي كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا لو انهم عملوا بتجمع حركي شعبي جماهيري منظم لغيروا سير التاريخ ولقوموا الانحراف في الدولة العثمانية ولأحبطوا مؤامرات التجمع الحركي المنحرف (الاتحاد والترقي) .. إلا أن هؤلاء اعتمدوا على ذواتهم دون الجماهير . لقد انعزلوا حركياً عن المسلمين مع أنهم كانوا على اتصال دائم بهم فكرياً وثقافياً .

ان الأفكار والمبادىء التي نادى بها هؤلاء وجدت التجاوب العميق في قلب كل مسلم .. فلو أنهم تعهدوا هذه القلوب بالتنظيم والتجميع لأثمرت جهودهم وما باءت بالفشل . فالإصلاح السياسي الذي نادى به الأفغاني ومشروعه في الجامعة الإسلامية قد قضي عليهما في مهديهما .. ذلك ان جمال الدين قد تحرك بالمشروع فردياً ودعا اليه دون تجمع ودون تنظيم .. وما كان ليصل المشروع الى هذه النتيجة لو كان له تجمع يمتد في طول البلاد وعرضها ويترابط بوحدات تنظيمية واعية .

ولا بد لنا أيضاً من تقرير واقع آخر وهو أثر سلبي للاسلاميين الفرديين.

فرفض هؤلاء المفكرين الكبار أو الدعاة أو الخطباء .. الخ الانضواء في عمل حركي منظم أوجد السلبية في كثير من الناس فقد بات عدد من المسلمين وخاصة المتصلين بالفرديين الإسلاميين يستسيغ الفردية في العمل الإسلامي ويرفض الجماعية ويجد مبرراً له ، زيداً وعمراً بل يسعى – بردة فعل خاطئة – الى تخطئة العمل الجماعي وتبيان عيوبه ومساوئه .

وبقطع النظر عما تقدم فان محور العمل الفردي في المقاومة الاسلامية ضد الهجوم الماكر قد قام بواجب ضخم نجد آثاره في آلاف من الكتب والصحف والمجلات والدراسات والرسائل وكلها تنافح عن الاسلام بوعي واخلاص عميقي الغور .

محور الجمعيات الخيرية والتعليمية

قام هذا المحور للرد على محوري التبشير والخدمات الاجتماعية والخيرية فقد لاحظ بعض المفكرين المسلمين اعتماد خطة « التغريب » و « التبشير » ، كوسيلة للوصول الى الأهداف على التعليم والخدمات الاجتماعية . فعزم هؤلاء على انشاء جمعيات للعناية بنفس الوسيلة بغية إيجاد جيل مسلم مثقف ثقافة عالية .

والملاحظة الأولى ، التي تسجل هنا ، هى كون هذه المدارس والخدمات أهلية . وقد بدأت منفصلة عن الحكومات وربما الى حد ما عن برامجها الرسمية .

المعاهدة التعليمية

١ - معهد ديوبند في الهند :

ولعل أول معهد تعليمي – بكونه ردة فعل على محور التبشير والتغريب – هو معهد ديوبند في الهند فقد كتب الأستاذ ابو الحسن علي الحسني الندوي يقول[1]

(١) رسالة الدعوة الاسلامية في الهند وتطورها ص ٢٨ - ٢٩ - ٣٠

وفي سنة ١٨٥٧ ثار المسلمون ثورة عظيمة للتخلص من الانجليز ولكن اخفقت هذه الثورة واحتلت الحكومة محل شركة الهند الشرقية فكان الأمر أشد ودخلت الهند في حكم بريطانيا المباشر . . وانبث دعاة المسيحية والقسس في القرى والمدن يدعون الى المسيحية علناً ويشنعون على العقيدة الاسلامية والشريعة المحمدية ويعلنون ان دولة الاسلام قد زالت وان عهده قد انقضى . . وطبقت الحكومة نظام التعليم المدني وهو يهدف الى تخريج طراز من الناشئة لا يصلح إلا لادارة جهاز الحكومة الانجليزية وتنفيذ برامجها وكثيراً ما كان افراد الجيل الجديد ينسلخون عن الاسلام انسلاخاً كلياً ويثورون على الحضارة الاسلامية والديانة الاسلامية بتأثير التعليم والتربية في مدارس الحكومة التي كان يديرها الانجليز وأشباه الانجليز .

« ولم ير العلماء أمامهم طريقاً الا فتح المدارس العربية والمعاهد الدينية فأنشأوا هذه المعاقل ليحتفظوا ببقايا الحياة الاسلامية وليكافحوا تيار الغرب المدني والثقافي ويخرجوا منها دعاة الاسلام والوعاظ والمرشدين وعلماء الدين فيحفظوا على المسلمين دينهم ويعيدوا الثقة الى نفوسهم فأسس مولانا محمد قاسم النانوتي مدرسة ديوبند سنة ١٢٨٣ هـ وأسس مولانا سعادات علي مدرسة مظاهر العلوم في سهارنبور في نفس ذلك العام ثم تواترت المدارس الدينية في اتحاد الهند وقد كان لهذه المدارس فضل كبير في نشر الدين والدعوة الاسلامية وفي نشر الثقافة في طبقات الشعب .

ويعلق الأستاذ الندوي على نجاح هذه المدارس فيقول « وسر نجاح هذه المدارس – كديوبند وشقيقاتها – في أداء رسالتها ونشر العلم والدين أنها لم تكن تنال مساعدة من الحكومة وكانت قائمة على أساس الزهد والتضحية والجهاد فأثار ذلك روح المقاومة والجهاد وقوة العمل والنشاط . ثم أن

أبناءها المتخرجين لم يكن لهم أمل – بطبيعة الحال – في وظائف الحكومة والرواتب الضخمة لأنهم تخرجوا من مدارس حرة لا صلة لها بالحكومة فألجأ ذلك أكثر المتخرجين الى الانقطاع الى الشعب دون الحكومة والتجرد للدعوة والخدمة دون المناصب والرواتب وهكذا وجد دعاة متجردون متحمسون متطوعون يقتنعون بالكفاف وينقطعون الى الدعوة والرسالة فقاموا بأعمال اصلاحية لا تقوم بها أكبر دولة » .

٢ – دار العلوم في لكنهؤ :

ويعقب الاستاذ الندوي على ذلك فيقول :

« ولما رأى بعض العلماء ان الهوة قد اتسعت جداً بين التعليم المدني والتعليم الديني وحدثت بين المتخرجين من المدارس الدينية والمتخرجين من المدارس المدنية فجوة وجفوة تتسعان على مر الأيام حتى أصبح هؤلاء أمة ولكل أمة لغة خاصة وثقافة خاصة ونفسية متميزة لا يفهمها الآخر ، بل أصبح التعليم الديني في واد والعصر الحديث في واد ولا جسر يربطهما ، وقد أصبح هذا العصر يطلب من العالم الديني ثقافة أوسع وأسلوباً للدعوة أرق وأقرب الى نفسية هذا العصر واطلاعاً على ما تجدد من العلوم والإفكار والمسائل والحاجات أنشأ القائمون على (ندوة العلماء) وفي مقدمتهم مولانا محمد علي المونكيري مدرسة دار العلوم في لنكهوء سنة ١٣١٦ هـ ورسالتها الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع والتصلب في العقيدة والمبادىء والتوسع في الجزئيات والوسائل . وقد خرجت علماء ومؤلفين كانوا ملتقى للثقافتين وبرزخاً بين الطائفتين وقد ألفوا في السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي كتباً هي خير ما ألف الى الآن للجيل الجديد ولا يزال كتاب (سيرة النبي) في ستة مجلدات كبار للشيخ شبلي النعماني والاستاذ الكبير السيد سليمان الندوي أعظم

مؤلف في السيرة النبوية وتعليمات الاسلام لا يوجد له نظير في مكتبة الاسلام الحديثة ولا يزال لهذا المركز التعليمي نشاط وانتاج [1] .

رشيد رضا والتربية والتعليم :

أما في بلاد العرب فقد قام رشيد رضا [2] في مصر يحث العلماء على أن يكون الاصلاح عن طريق التربية والتعليم . . وأكد ان التربية والتعليم هما الركنان اللذان يقوم عليهما بناء السعادة وقال :

« ان التربية والتعليم متلازمان بمعنى ان الثاني لازم للأول لا يتم إلا به بل هو جزء منه لأن التربية على ثلاثة ضروب : تربية الجسم وتربية النفس وتربية العقل وهذا الأخير هو عين التعليم ثم كل منها يحتاج للعلم والتعليم »[3] .

وعدد رشيد رضا الفنون التي يجب أن تعتمدها التربية والتعليم وتدرسها في مدارسها فذكر :

١ — علم اصول الدين ويقصد به القضايا الأساسية للدين لا البحث في غوامض علم الكلام .

٢ — علم تهذيب الأخلاق وإصلاح العادات لأنه يساعد على التربية الصحيحة .

٣ - علم فقه الحلال والحرام والعبادات .

---

(١) لا يزال هذا المعهد قائماً حتى الآن ويشرف على اصدار رسائل وكتب مختلفة منها الرسالة التي اعتمدناها هنا (الدعوة الاسلامية في الهند) . وأهم اصدار مستمر على مدار السنة هو البعث الاسلامي وتصدر بالعربية منذ أكثر من احدى عشرة سنة وشعارها كما هو معلن عنه على غلاف المجلة (الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع وبين الايمان الراسخ والعلم الواسع) .

(٢) ولد محمد رشيد رضا في القلمون قرب طرابلس في لبنان ٢٧ جمادى الاول ١٢٨٢ / ١٨٦٥ ودرس على استاذه الشيخ حسين الجسر علامة طرابلس ثم هاجر الى مصر وانشأ فيها مجلة المنار التي كان لها الأثر الطيب في مختلف البلاد الاسلامية .

(٣) رشيد رضا الامام المجاهد للدكتور احمد العدوي سلسلة أعلام العرب ص ١٧٤ وما يليها .

٤ — علم الاجتماع وأحوال البشر في بداوتهم وحضارتهم وعاداتهم وسائر شؤونهم .

٥ — علم تقويم البلدان « الجغرافيا » .

٦ — علم التاريخ لأنه مادة السياسة ومجد العقل ومغذيه . .

٧ — علم الاقتصاد الذي يبحث في إنماء الثروة وحفظها . .

٨ — علم تدبير المنزل وينبغي أن تتوسع البنات في هذا العلم لأنه وظيفتهن .

٩ — علم الحساب ولا بد من معرفة القدر اللازم منه للبنين والبنات .

١٠ — علم حفظ الصحة وهذا من أهم المهمات لتربية الأولاد وهناء العيش . .

١١ — علم لغة البلاد .

١٢ — فن الخط .

٣ — مدرسة الدعوة والارشاد في القاهرة :

ونادى رشيد رضا أثناء دعوته لإصلاح التربية والتعليم بأن يتولى الناس بأنفسهم انشاء المدارس والابتعاد عن الحكومة ذلك أن معظم الحكومات في البلاد الاسلامية كانت خاضعة في عهده للسلطات الاستعمارية ولا يرجى من ورائها نفع وفي نفس الوقت أكثر الاستعمار من المدارس التبشيرية في البلاد الإسلامية وصار الموقف يتطلب نهضة تنبعث من الشعوب الاسلامية نفسها حتى يتمكن اقبالها على التربية والتعليم مثمراً وضرب رشيد رضا أروع الأمثلة في ميدان التربية والتعليم اذ لم يكتف بدور الموجه والناصح وإنما نزل الى هذا الميدان عملياً ووضع فيه خلاصة آماله وتجاربه.. وتبلورت مجهوداته في تلك السبيل في انشاء جمعية الدعوة والارشاد تكون مهمتها الاولى والأخيرة الاشراف على مدرسة تحمل اسم الجمعية وتهدف الى تحقيق الاصلاح في ميدان التربية والتعليم [1]

---

(١) المرجع السابق ص ٨٩ - ٨٠

ودخل مشروع انشاء جمعية الدعوة والارشاد الى حيز الوجود سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م وجاء في مشروع تأسيس مدرسة الدعوة والارشاد ما يأتي .

١ – يختار طلاب هذه المدرسة من طلاب العلم الصالحين من مسلمي الاقطار ويفضل الذين هم بأشد الحاجة الى العلم على غيرهم كأهل جاوة والصين وما عدا القسم الشمالي من افريقية .

٢ – المدرسة تكفل لهم جميع ما يحتاجون اليه من الغذاء والطعام والكتب .

٣ – يعنى بتدريبهم على آداب الاسلام واخلاقه وعباداته بحيث يطرد من المدرسة من يثبت عليه ارتكاب أو اظهار العصبية الجنسية أو المذهبية او ارتكاب شيء من المعاصي [١] .

وبدأت المدرسة في التربية والتعليم وانجبت نفراً لا بأس به من خيرة المثقفين في البلاد الاسلامية ولكن المدرسة تعطلت عند نشوب الحرب العظمى الاولى ولم تفتح أبوابها مرة أخرى [٢] .

٤ ـ المنار انشأت مدارس اندونيسيا :

ويبدو ان مجلة المنار التي كان يصدرها رشيد رضا قد أحدثت أثراً بالغاً في الوسط الاسلامي في جاوة ـ اندونيسيا ففي نفس العام ١٩١٢ التي أسس فيها الاستاذ الامام مدرسة الدعوة والارشاد السالفة الذكر قامت في اندونيسيا جمعيتان تعليميتان : الجمعية المحمدية وجمعية الارشاد ، وتعتبر الجمعية المحمدية اليوم (اكبر جمعية في العالم للتعليم أعضاؤها نحو مئتي الف ولها ألف وخمسماية مدرسة ثانوية وسبعماية مستشفى وثلاثماية دار أيتام ولها دار لتخريج المعلمين لمدارسها وللجمعية الآن فروع للسياسة والاقتصاد والثقافة والاوقاف والتبليغ .

(١) المرجع السابق ص ١٨٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٨٨ .

أما جمعية الارشاد فلها الآن نحو خمسة آلاف مدرسة ، التدريس فيها بالعربية ومدرستها الكبرى في سورابايا في شرقي جاوه . . . أكبر من الشكنة الحميدية التي فيها كليات جامعة دمشق كلها .

وفي سنة ١٩٣٠ أسس كياي (أي الشيخ) عبد الرحمن شهاب جمعيته ولها اليوم في كل بلدة وكل قرية من (سومطرة) مدرسة ..[١]

الجمعيات الخيرية الاسلامية في لبنان :

ان حركة التعليم في البلاد الاسلامية – على انها حلقة في المقاومة الاسلامية ضد الهجوم الماكر – أخذت في الانتشار والاتساع حتى لا تكاد تجد بلداً في الشرق المسلم يخلو من مدرسة أهلية أنشئت لهذا الغرض ... فمثلاً هنا في لبنان مركز الجامعات والكليات التبشيرية ، نجد جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت التي افتتحت عدداً كبيراً من المدارس الابتدائية والثانوية في بيروت وصيدا والقرى، والمستشفى المعروف بمستشفى المقاصد في بيروت . وكذلك نجد الجمعية الخيرية الاسلامية وإسعاف المحتاجين في طرابلس التي أسست دار التربية والتعليم وملجأ الأيتام والمعهد الديني الابتدائي ومدارس أخرى للبنات وفي القرى ... ومنذ عشر سنوات تقريباً تأسست في بيروت جمعية البر والاحسان وعلى أثرها افتتحت جامعة بيروت العربية التي أصبحت، في الواقع ، إحدى الجامعات المصرية ليس إلا !..

وخلال سنة ١٩٦٧ تداعى في لبنان نفر مخلص من شباب الدعوة الاسلامية ، وأسسوا جمعية التربية الاسلامية التي من أهدافها فتح المدارس لتخريج جيل يؤمن بالله وقد أخذت الموثق على نفسها ألا تنحرف عن جادة

(١) من مقال للاستاذ علي الطنطاوي بعنوان : الحركة الاسلامية في أندونيسيا منشور في مجلة المسلمون المجلد السادس ص ٦٣٨ .

الحق وألا تقع في أخطاء الجمعيات الأخرى وقد افتتحت فعلاً في طرابلس مدرسة الإيمان النموذجية وأخرى لتعليم القرآن خلال أشهر الصيف ..

وقد سبقت هذه الجمعية في لبنان ، مدارس الأقصى في الأردن ، ومدارس وطنية مختلفة في سوريا[1] خرّجت بالفعل شباباً يجمع الى الثقافة المدنية الثقافة الدينية والخلق والعمل الاسلاميين .

والملاحظة التي أسجلها هنا بألم وأسى أن بعض هذه المؤسسات والجمعيات الخيرية وخاصة هنا في لبنان قد تحولت عن مقصدها وغدت تجارية المظهر والجوهر ولم تعد تحقق أهدافها في تنشئة جيل مسلم يقوى على مواجهة التحديات والانحرافات .

ان التعليم مجال ضيق لصقل نفوس النشء الجديد وتخريج أجيال تنطبع بالإسلام خلقاً وسلوكاً عقيدة ومنهاجاً . . . ومن نكد الأيام أن تتحول مؤسسات المسلمين التي نشأت من جيوبهم الى معاهد للتعليم الرسمي شأنها شأن المدارس والكليات الرسمية الحكومية ...

وما يقال عن التعليم يقال أيضاً عن جمعيات الكشافة والأندية الرياضية والمستوصفات الطبية وجميعها قد نشأت بغرض تأدية خدمات اجتماعية اسلامية معارضة خدمات المبشرين ... بيد انها أصبحت تكايا للمتزعمين والمتنفذين وفقدت كل مظهر اسلامي كريم ..

● محور الاحزاب والمنظمات الاسلامية

ولعل هذا المحور أعظم المحاور في المقاومة الاسلامية شأناً وأثراً. فهو المحور الذي تتلقى على جبهاته ثقلُ المقاومة بكاملها ، وهو الذي يملك

(١) أممت هذه المدارس في سوريا في الآونة الاخيرة كما أممت المدارس الاجنبية .

مخططاً ما لصد الهجوم الماكر ولإعادة مجد الاسلام في إقامة حكم إسلامي في الشرق المسلم ...

ومن المحقق ان الحركات الإسلامية منذ نشأتها في الشرق المسلم كانت شوكة في أعين المبشرين والمستعمرين وتلاميذهم من أبناء البلاد ...

ولقد واجهت هذه الحركات صعوبات شتى وخاضت معارك ضارية ضد أعدائها من أجانب ورسميين حكوميين وحزبيين محليين أصحاب الدعوات غير الإسلامية .. ويبدو ان كل ضغط واجهته هذه المنظمات كان وفق خطة مدروسة وبناء على محور أو أكثر من محاور الهجوم الماكر على الاسلام العقيدي والحركي .

يقول الاستاذ برنارد لويس في كتابة الغرب والشرق الأوسط : (والشيء الواضح ان من بين جميع الحركات الكبرى التي هزت الشرق الأوسط في آخر قرن ونصف كانت الحركات الاسلامية وحدها أصيلة في تمثيلها لمطامح أهل هذه المنطقة ، فالليبرالية والفاشية والوطنية والقومية والشيوعية والاشتراكية كلها أوروبية الأصل مهما أقلمها وعدلها أتباعها في الشرق الأوسط والمنظمات الاسلامية هي الوحيدة التي تنبع من تراب المنطقة وتعبر عن مشاعر الكتل الجماهيرية المسحوقة . وبالرغم من ان كل الحركات الاسلامية قد هزمت حتى الآن غير انها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة)[1] .

الشعبية والجماعية في الحركة الاسلامية :

وتتميز الحركات الاسلامية – بوجه عام – **بالشعبية** أي انها تعمل في الوسط الشعبي لاختيار دعاة يمكن أن ينضووا تحت لواء العمل الجماعي ويخضعوا لتوجيه قيادي وفق نظام مدروس .

(١) الغرب والشرق الاوسط ص ١٧٩ .

ولعل هذه الصفة – أي الجماعية – هي التي تحدد خطورة هذه الحركات في مقاومة الهجوم الماكر وبناء التجمع الاسلامي الجديد . فهي أي الحركة الاسلامية ليست أفراداً يعملون متفرقين دون خطة أو تنظيم يبذرون البذور ولا يتعهدونها بالرعاية والسقاية والتهذيب والتشذيب انما هي تنظيم قبل كل شيء محدد الأهداف والغايات مبين الوسائل والمسالك يتحرك بخطة ومنهج ويتوقف ليدرس ما نفذ وطبق وما يجب أن يعدل في الوسيلة والطريقة ، فهناك إذن قيادة وقاعدة أمراء وجنود وعي ونظام ...

هدف الحركة الاسلامية :

وهدف هذه الحركات ، بوجه عام ، إقامة مجتمع اسلامي ، يطبق حكم الاسلام وتصوراته في الدين والانسان والحياة ... ومن أجل ذلك تحارب هذه الحركات كل فكرة جاهلية غير الاسلام غربية أو شرقية ، قومية أو اشتراكية ، ولا تدين – هذه الحركات – بالولاء إلا لمفاهيم الاسلام وفق القرآن والسنة مرددة قوله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل وان الله هو العلي الكبير »[1] .

وسائل الحركة الاسلامية :

وتتوسل الحركات الإسلامية في سبيل أهدافها بكل شيء شرعي أو موافق للشرع فمن الخطابة الى التدريس الى التعليم الى الكتب والمطبوعات والرسائل والصحف الى المناقشة الفردية والجماعية والمحاضرات والندوات الى التدريب والتجميع والخدمات الاجتماعية الخ ... والفارق الأساسي بين وسائل الحركات الإسلامية والشخصيات الإسلامية (العمل الفردي والجمعيات الخيرية) التنظيم . . فوسائل الحركات تسعى لاختيار العناصر الصالحة من

---

(١) آية ٣٠ من سورة لقمان .

مجموع الناس وسلكها في تجمع عضوي حركي يخضع في النهاية لتنظيم (القيادة والقاعدة) ... فهي اذن تتعهد البذور بالسقي والرعاية حتى إذا ما أثمرت قطفت ثمارها بالانضمام الى التنظيم الجماعي .

الأسلوب الحركي :

والملاحظة الثانية في الحركات الاسلامية الحديثة انها فهمت الاسلام فهماً حركياً جيداً أو انها أضفت على تفهم الإسلام أسلوباً علمياً فريداً . ويحسن بنا ونحن في هذا الصدد أن نوضح بعض خصائص هذا الأسلوب كما جاء بها ، ونبين بعض المبادىء كما هي معتمدة في تلك الحركات ...

ان أسلوب الدراسة الاسلامية في الحركات الاسلامية الحديثة هو أسلوب حركي علمي واع يتجاوز الخلافات المذهبية ويحاول أن يستقي المعلومات من القرآن والسنة مباشرة فيمكن بالتالي وصفه بأنه سلفي المنهج حركي الطابع .

ويستهدف الأسلوب (مجال التأثير عند الانسان) لبيان ان الاسلام عقيدة الخلاص لهذه الانسانية المعذبة المنهوكة بآلام الجاهلية وإدران الضلال والزيغ ...

المبادىء التي أظهرتها الحركة بشكل جديد :

أما المبادىء التي أظهرتها الحركات الاسلامية في دراساتها ومؤلفات قادتها وأعضائها فيمكن أن نوجزها بما يلي :

أولا : التصور الاسلامي للكون والانسان والحياة وهو بحث يتعلق بالعقيدة وما يرافقها من ظلال ومعقبات (وإدراك المسلم لطبيعة التصور الاسلامي وخصائصه ومقوماته هو الذي يكفل له أن يكون عنصراً صالحاً في بناء هذه الأمة ذات الطابع الخاص المنفرد المتميز وعنصراً قادراً على القيادة والانقاذ فالتصور الاعتقادي هو أداة التوجيه الكبرى الى جانب النظام الواقعي الذي ينبثق منه ويقوم على أساسه ويتناول النشاط الفردي كله والنشاط الجماعي كله في شتى حقول النشاط الانساني) .

ولا بد (من صيانة التصور الاسلامي في قالب ذاتي مستقل) و (لا بد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة إذ ان محاولة عرضهـــا بأسلوب الفلسفة يقتلها ويطفىء إشعاعها وإيحاءها ويقصرها على جانب واحـــد من جوانب الكينونة الانسانية الكثيرة) (ان العقيدة – إطلاقاً – والعقيدة الإسلامية – بوجه خاص – تخاطب الكينونة الانسانيـة باسلوبها الخاص وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع واللمسة المباشرة والإيحاء) فاذا ما أردنا (البحث عن خصائص التصور الإسلامي ومقوماته) علينا (أن نستلهم القرآن الكريم مباشرة بعد الحياة في ظلال القرآن طويلاً – وأن نستحضر – بقدر الإمكان الجو الذي تنزلت فيـــه كلمات الله للبشر ... ومنهجنا في استلهام القرآن الكريم ألا نواجهه بمقررات سابقة اطلاقاً لا هزات عقلية ولا مقررات شعورية من رواسب الثقافات التي لم نستقها من القرآن ذاتـــه ، نحاكم اليها نصوصه أو نستلهم معاني هـــذه النصوص وفق تلك المقررات) و (واننا لا نبغي بالتماس حقائق التصور الاسلامي مجرد المعرفة الثقافية ولا نبغي انشاء فصل في المكتبة الإسلامية يضاف الى ما عُرف من قبل باسم الفلسفة الإسلامية . . انما نحن نبتغي (الحركة) من وراء المعرفة نبتغي أن تستحيل هذه المعرفة قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع ، نبغي استجابة ضمير الانسان لتحقيق غاية وجوده الانساني كما يرسمها هذا التصور الرباني نبغي أن ترجع البشرية الى ربها والى منهجها الذي أراده لها والى الحياة الكريمة الرفيعة التي تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للانسان والتي تحققت من فترات التاريخ على ضوء هذا التصور عندما استحال واقعاً في الأرض يتمثل في أمة تقود البشرية الى الخير والصلاح والنجاة ...[1]

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته – سيد قطب مقتطفات متفرقة من الفصل الاول « كلمة في المنهج » انظر الجاهلية والاسلام للاستاذ المودودي ، والعدالة الاجتماعية في الاسلام لسيد قطب ، وعقيـــدة المسلم لمحمد الغزالي ، والانسان بين المادية والاسلام لمحمد قطب ، ومبادىء الاسلام للاستاذ المودودي ،

ثانياً : الجاهلية والاسلامية :

وبناء على التصور الإسلامي للكون والانسان والحيـــاة أطلقت الحركة الإسلامية لفظ الجاهلية على كل مجتمع لا تسوده شرعـــة الله (ليست الجاهلية صورة معينة محدودة ، كما يتصورها (**الطيبون**) الذين يرون انهـا فترة تاريخية مضت الى غير رجوع . انما هي جوهر معين يمكن أن يتخذ صوراً شتى بحسب البيئة والظروف والزمان والمكان فتتشابه كلها في انهـــا جاهلية وان اختلفت مظاهرها كل الاختلاف .

وليست هي (المقابل) لما يسمى العلم والمعرفة والحضارة والمدنية والتقدم المادي والقيم الفكرية والاجتماعية والسياسية والانسانية على اطلاقها كما يتصورها (الخبيثون) سواء بالنسبة للجاهلية العربية أو بالنسبة للقرن العشرين .

انمـــا الجاهلية – كما عناها القرآن وحددها – هي حاله نفسية ترفض الاهتداء بهدي الله ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزله الله (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) . المائدة ٥٤

هي اذن – مقابل – معرفة الله ، والاهتداء بهدي الله والحكم بما أنزل الله وليست مقابل ما يسمى العلم والحضارة المادية ووفرة الانتاج[1] .

ولعل الأستاذ أبا الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان كان أول من أطلق هذا اللفظ (الجاهلية) على المجتمعات الحديثة وذلك في رسالته الإسلام والجاهلية .

ثالثاً : الاسلامية في المجتمع والدولة :

أكدت الحركات الإسلاميـــة في أهدافها وكتاباتها ان الإسلام دين ودولة

---

(١) جاهلية القرن العشرين – محمد قطب ص ٩ ، انظر ايضاً الاسلام والجاهلية لأبي الأعلى المودودي ، ومعالم في الطريق لسيد قطب .

مصحف وسيف حرب ومحراب وانه يملك الأنظمة لكل شأن من شؤون الحياة صغيرها وكبيرها ، وراحت هذه المؤلفات تصور حياة الإسلام في الدولة والمجتمع في السياسة والاقتصاد في الفرد والأسرة وتقارن بين هذه الحياة الربانية الإيمانية الإسلامية وبين أنظمة الأرض قومية وشيوعية ورأسمالية وديكتاتورية وديمقراطية وحزبية . الخ ..

فالحكومة في الإسلام كما يقول الإمام الشهيد حسن البنا هي قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء به للناس فهو لا يقر الفوضى ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام ، ولقد قال رسول الله ﷺ لبعض أصحابه : (إذا نزلت ببلد وليس فيه سلطان فارحل عنه) . كما قال في حديث آخر لبعض أصحابه كذلك : (إذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم رجلا) .

فمن ظن ان الدين أو بعبارة أدق الإسلام لا يعرض للسياسة أو ان السياسة ليست من مباحثه فقد ظلم نفسه وظلم علمه بهذا الإسلام ولا أقول ظلم الإسلام فان الإسلام شريعة الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وجميل قول الغزالي رضي الله عنه : (اعلم ان الشريعة أصل والملك حارس وما لا أصل له فمهدوم وما لا حارس له فضائع . فلا تقوم الدولة الإسلامية إلا على أساس الدعوة حتى تكون دولة رسالة لا تشكيل إدارة – ولا حكومة مادة صماء لا روح فيها – كما لا تقوم الدولة إلا في حماية تحفظها وتنشرها وتبلغها وتقويها[1] .

وأما الاقتصاد فقد لخص حسن البنا قواعده الإسلامية بالنقاط التالية :

١ – اعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره .

(١) مشكلاتنا في ضوء النظام الاسلامي – حسن البنا ص ٣٨ – ٣٩ انظر ايضاً النظرية السياسية في الاسلام للاستاذ المودودي ، والاسلام وأوضاعنا السياسية لعبد القادر عودة.

٢ – ايجاب العمل والكسب على كل قادر .

٣ – الكشف عن منابع الثروات الطبيعية ووجوب الاستفادة من كل ما في الوجود من قوى ومواد .

٤ – تحريم موارد الكسب الخبيث .

٥ – تقريب الشقة بين مختلف الطبقات تقريباً يقضي على الثراء الفاحش والفقر المدقع .

٦ – الضمان الاجتماعي لكل مواطن وتأمين حياته والعمل على راحته وإسعاده .

٧ – الحث على الإنفاق في وجوه الخير وافتراض التكافل بين المواطنين ووجوب التعاون على البر والتقوى .

٨ – تقرير حرمة المال واحترام الملكية الخاصة ما لم تتعارض مع المصلحة العامة .

٩ – تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم والتدقيق في شؤون النقد .

١٠ – تقرير مسؤولية الدولة في حماية هذا النظام[1] .

وللعدالة الاجتماعية معنى وتصور فهي تقوم على أسس ثلاثة هي :

١ – **التحرر الوجداني المطلق** بمعنى أنه (لن تتحقق عدالة اجتماعية كاملة ولن يضمن لها التنفيذ والبقاء ما لم تستند الى شعور رئيسي باطن باستحقاق الفرد لها وبحاجة الجماعة اليها وبعقيدة في انها تؤدي الى طاعة الله والى واقع انساني أسمى) .

٢ – المساواة الإنسانية الكاملة بمعنى انه (إذا استشعر الضمير كل هذا التحرر الوجداني فخلص من كل ظل للعبودية إلا الله وأمن الموت والأذى

(٢) المرجع السابق ص ٧٥ انظر ايضاً الاقتصاد بين الاسلام والانظمة المعاصرة للاستاذ المودودي ، واشتراكية الاسلام لمصطفى السباعي ، والعدالة الاجتماعية في الاسلام .

والفقر والذل إلا باذن الله وتفلت من ضغط القيم الإجتماعية والمالية . . إذا استشعر الضمير البشري هذا كله ووجد من الضمانات الواقعية والقانونية ما يؤكد في نفسه هذا الشعور فلن يكون في حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظاً وقد استشعرها في أعماقه معنى ووجدها في حياته واقعاً بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم اطلاقاً سيطلب حقه في المساواة وسيجد لتقرير هذا الحق وسيحتفظ به حين يناله .

٣ – التكافل الإجتماعي الوثيق بمعنى انه للمجتمع مصلحة عليا لا بد أن تنتهي عندها حرية الأفراد وللفرد ذاته مصلحة خاصة في أن يقف عند حدود معينة في استمتاعه بحريته لذلك يقرر – الإسلام – مبدأ التبعة الجماعية التي تشمل الفرد والجماعة بتكاليفها وهذا ما ندعوه بالتكافل الإجتماعي[١] .

وعلى هذا المستوى الرفيع وبهذا الوعي العميق عالجت الحركة الإسلامية مختلف جوانب الحياة وأضفت عليها طابع البحث الدقيق وخاصة فيما يتعلق بالنفس البشرية وخصائص تكوينها وطرق معالجتها[٢] .

الظروف الصعبة في نشأة الحركات الاسلامية :

لقد نشأت الحركات الاسلامية في ظروف صعبة فهي قد ولدت في قلب الصراع وفي وسط الهجوم الماكر على الشرق المسلم .. وكانت هذه الظروف المعاكسة كفيلة بالقضاء عليها وطمس معالمها بيد ان الحركة استطاعت التغلب على كثير من الصعوبات وواجهت التحديات بإيمان ووعي الأمر الذي يثبت حيوية هذا الدين وقدرته على المقاومة والانتصار ..

ولقد انتشرت الحركات الاسلامية في مختلف البلاد وكأنها حلقات متصلة تنتظمها سلسلة واحدة هي الاسلام وكأنها فروع لحزب واحد هو حزب الله مع أن هذه الحركات قد نشأت منذ البداية منفصلة عن بعضها ..

(١) العدالة الاجتماعية لسيد قطب ص ٣٦ و٥١ و٦٣ .

(٢) نذكر هنا كتابي الاستاذ محمد قطب في النفس والمجتمع وخطوط متقابلة في النفس البشرية.

ولعل أبرز هذه الحركات في القرن العشرين هي كما يلي :

في البلاد العربية : جماعة الاخوان المسلمون .

في تركيا : حركة النور .

في ايران : فدائيان اسلام .

في باكستان : الجماعة الاسلامية .

في أندونيسيا : حزب ماشومي أو مجلس شورى المسلمين .

ولا بد لنا أن نلقي أضواء كاشفة على هذه الحركات ..

أولاً : الاخوان المسلمون في البلاد العربية :

يبدو أن بعض المؤرخين الموضوعين قد كتب بشيء من التجرد على الاخوان المسلمين فالدكتور نبيه أمين فارس – أحد أعلام المؤرخين العرب المعاصرين كتب عن الاخوان يقول :

ان فكريتهم ومثاليتهم لا تزال أعمق مطامح المسلمين من المغرب الى اندونيسيا [١].

أما البروفسور كانتول سميث فقد نقل عنه الاستاذ برنارد لويس قوله : (من الخطأ في نظري اعتبار الاخوان المسلمين حركة رجعية محضة .. فلقد قامت فيها مجهودات إيجابية بناءة محمودة لبناء مجتمع جديد مؤسس على العدالة والانسانية المستمدة من أفضل القيم التي احتفظ بها من تقاليد الماضي ولقد مثلت حركة الاخوان جزئياً العزم على التخلص من الانحلال والتفسخ اللذين أغرقا المجتمع العربي ، وخصوصاً الانتهازية الاجتماعية غير الاخلاقية التي امتزجت بالفساد الفردي وأرادت العودة بالمجتمع الى مقاييس خلقية مقبولة وتوحيد النظرة الى هذه المقاييس والسير قدماً في برامج التطبيق وتنفيذ

(١) نقلاً عن كتاب الغرب والشرق الأوسط ص ١٧٨ .

الأهداف الشعبية بواسطة منظمة منتجة حسنة السلوك وهبت نفسها للمثل العليا . وحركة الاخوان تمثل جزئياً – التخلص من الاحترام السلبي لقيم ميتة تافهة متوارثة .. ومحاولة تحويل الاسلام من عاطفة حماسية في قلوب المعجبين الكسالى الى عمل وتحويل التقليديين المنحرفين محدودي الفكر والتنفيذ الذين يشدون أنفسهم الى عصور الانحطاط الى قوة عاملة نشيطة فاعلة تحل مشاكل العصر »[1].

طبيعة الحركة ووسائلها :

كتب الدكتور محمد كمال خليفة الاستاذ في جامعة القاهرة في مقدمة كتاب الاخوان المسلمون والمجتمع المصري [2] يقول (وجاء حسن البنا ليأخذ من هذا وذاك – أي من الأفغاني وعبده – ويسلك طريقاً شعبياً يكفل العصبة المؤمنة وطريقة تعليمية تنشر العقيدة السليمة والفهم الصحيح الشامل للاسلام ونظامه وأخذ يكافح في سبيل ذلك كفاحاً أدهش الجميع حتى ركز للاسلام مكانته في المجتمع وكل ذلك بتلك البساطة المعجزة في اقناعها بذلك الاسلوب الممتنع في سهولته وبذلك المنطق الذي أرضى العامة والخاصة وبتلك الروح الانسانية التي تهدف الى المبادىء الأساسية للاسلام وتبعد عن الخلافات الفرعية وتتجنبها حتى اكتسب ثقة الجميع ومحبتهم وكون تلك المجموعة من الشباب المؤمن التي كافحت ولا تزال في سبيل استخلاص الحقوق الوطنية وانقاذ الكرامة العربية وشهد لها الأعداء والأصدقاء .

(١) المصدر السابق ص ١٧٦ وقد علق المعرب الدكتور نبيل صبحي على قول كانتول سميث بما يلي (هذا أول كاتب غربي لم يخل تحليله من بعض الموضوعية والتجرد فبالرغم من ترديده للنغمة المألوفة – الرجعية والتعصب – فانه لم يستطع ان يتجاهل النقاط الايجابية البارزة في دعوة وتاريخ هذه الجماعة التي رماها خصومها الكثير بالسهام المسمومة وبخل ، حتى المحايدون، عليها بطاقة من الورد ..

(٢) أعد هذا الكتاب الاستاذ محمد شوقي زكي عام ١٩٥٢ ليكون رسالة ينال على أساسها اجازته وقد أشرف على هذه الرسالة الدكتور خليفة وقدم لها ومن مقدمته نقلنا رأيه .

ثم اتجه اتجاهاً عملياً في اصلاح المجتمع فأقام المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتربوية باسم الاسلام . حتى عادت الثقة شيئاً فشيئاً الى النفوس وترعرعت نبتة الايمان الكامنة في القلوب ووصل الناس الى مرحلة من فهم الاسلام الكامل الشامل كما يفهمه الاخوان وكما كان في عهود العصور الأولى للاسلام وهكذا أدى الرجل رسالته حتى قضى حياته وقد خلف من بعده جيلا من الايمان يسعى على الأرض تحوطه ظلال الوحي وأنوار النبوة الكريمة وأمثلة حية للرجوله المؤمنة والكفاح المجيد .

تاريخ الاخوان المسلمين :

وقد لخص الاستاذ برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق الأوسط ، تاريخ الاخوان المسلمين فقال : (وكانت أقوى هذه المنظمات الاسلامية وأكثرها نجاحاً منظمة الاخوان المسلمين وهي جمعية نصف علنية واسعة الانتشار تقوم على أساس الخلايا والفتوة ذات الطابع العسكري ، وشبكات ضخمة واسعة من المؤسسات الثقافية والاقتصادية) *.

ولقد أسست حوالي ١٩٢٨ على يد مدرس ثانوي مصري اسمه الشيخ حسن البنا وكان يلقب بالمرشد العام ثم نمت الحركة بإضطراد وبسرعة ما بين

* من المؤسسات الاقتصادية الاخوانية شركة المعاملات الاسلامية والشركة العربيه للمناجم والمحاجر وشركة الاخوان المسلمين للغزل والنسيج – شركة المطبعة الاسلامية (شركة الاخوان للطباعة) والجريدة اليومية (شركة الاخوان للصحافة) (شركة التجارة والأشغال الهندسية بالاسكندرية) (شركة التوكيلات التجارية) (شركة الاعلانات العربية) . وكان في القاهرة فقط وبندر الجيزة سبعة عشر مستوصفاً طبياً أما بالنسبة للتعليم فقد كان هناك عدد كبير من المدارس موزعة وفق التصنيف التالي : رياض الأطفال – مدارس لمحو الأمية وتنمية الثقافة الدينية – مكاتب لتحفيظ القرآن – مدارس ليلية لتعليم العمال والفلاحين – أقسام خاصة للراسبين في الامتحانات العامة شعب لتعليم الغلمان الذين حرموا التعليم لاشتغالهم بالصناعات – معاهد لتعليم البنين مدارس أمهات المؤمنين لتعليم البنات – دور الصناعات الملحقة بالمعاهد .. مدارس الجمعية.. راجع الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ١٧٧ وما يليها ..

١٩٣٠ - ١٩٤٠ ودخلت الميدان السياسي ما بعد عام ١٩٤٠ وتمكن الاخوان بسرعة ان يلعبوا دوراً عاماً عاصفاً في السياسة المصرية خصوصاً في الفترة العصيبة التي مرت ما بين آخر الحرب العالمية الثانية وقيام الحكم العسكري في مصر . ولقد عملت الحركة الى فترة من الوقت كحزب سياسي .. وفي ١٩٤٨ حارب متطوعو الاخوان في فلسطين وعند عودتهم قيل انهم دبروا خطة الزحف على القاهرة والقيام بإنقلاب للاطاحة بالملك والحكومة واقامة جمهورية اسلامية وجاءتهم الضربة الأولى من النقراشي (باشا) رئيس الوزراء. ففي سلسلة من التدابير التي بدأت في ٨ كانون أول ديسمبر ١٩٤٨ حل النقراشي جماعة الاخوان المسلمين وحجز موجوداتها واعتقل العديد من أعضائها ..* وفي الثاني عشر من شباط (فبراير) سنة ١٩٤٩ قتل الشيخ حسن البنا صريعاً في ملابسات غامضة لم تفسر كلياً الى الآن وقام نشاط سري قوي بعد ذلك واستلم منصب المرشد العام الاستاذ حسن الهضيبي وفي سنة ١٩٥١ سمح للاخوان باستعادة بعض ممتلكاتهم المحجوزة ومزاولة نشاطهم العلني ، ولقد لعب الاخوان دوراً مهماً في معركة القنال ضد الانكليز وفي الأحداث الجائحة التي أدت الى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ وبعد فترة قصيرة من التعاون الصعب بين الاخوان والحكم العسكري تدهورت العلاقات بسرعة[١].

---

* كتب الاستاد البنا قبل مقتله وكان هذا آخر ما كتبه عن أسباب حل الاخوان وجاء فيها الضغط الاجنبي : فقد أقر وكيل الداخلية للمرشد العام أن مذكرة قدمت الى النقراشي باشا من سفير بريطانيا وسفير فرنسا والقائم باعمال سفارة أمريكا بعد أن اجتمعوا في فايد في ٦ ديسمبر ١٩٤٨ تقريباً يطلبون فيها المبادرة بحل الاخوان المسلمين انظر « الاخوان المسلمون والمجتمع المصري ص ٢٩ » . ووصفه اللواء محمد نجيب في خطاب ألقاه بذكرى وفاة البنا بما يلي : ان الامام الشهيد حسن البنا أحد أولئك الذين لا يدرك البلى ذكراهم ولا يرقى النسيان الى منازلهم لأنه رحمه الله لم يعيش لنفسه بل عاش للناس ولم يعمل لمنفعته الخاصة بل عمل للصالح العام . انظر المرجع السابق ص ٣٥ .

(١) الغرب والشرق الأوسط ص ١٧٣ - ١٧٦.

فاتهموا بمحاولة الانقلاب وأعدم ستة منهم من بينهم المرحوم الاستاذ عبد القادر عودة مؤلف كتاب التشريع الجنائي في الاسلام .. وزج بالالآف في السجون ثم في عام ١٩٦٥ اتهموا مجدداً بنفس الاتهام وحوكم الاستاذ سيد قطب على كتابه معالم في الطريق وأعدم هو واثنان في التاسع والعشرين من آب سنة ١٩٦٦ .

وللاخوان المسلمين فروع في مختلف البلاد العربية وقد لعبوا دوراً بارزاً في سياسة أقطارهم .

أهداف الاخوان :

أما أهداف الاخوان المسلمين فقد أوجزها المرحوم الدكتور مصطفى السباعي المراقب العام للاخوان المسلمين في سوريا ولبنان فقال :

« تستهدف دعوة الاخوان خمسة أمور رئيسية » :

أولاً : اصلاح الفرد وصلاحه إنما يتم - على الوجه الأكمل بتطهير عقيدته من الفساد وقلبه من الزيغ ونفسه من الشهوة وخلقه من الضعف وروحه من العزلة حتى يكون في المجتمع بناءً يعمل بروح الأبرار ويكافح بعزيمة المناضلين ويفكر بعقل العلماء والحكماء .

ثانياً - اصلاح الأسرة : اذ هي الخلية الأساسية في المجتمع ، واستقامة شؤونها وتماسك بنيانها هو وحده السبيل الى تماسك بنيان المجتمع على الأسس التالية :

١ - التحرر من الجهل والخوف والرذيلة والجوع والمرض والمهانة .

٢ - النظام المحكم الذي يجمع بين القوة والرحمة والعدالة والتسامح وينتفي فيه طغيان الفرد وميوعة الجماعة .

٣ - القوة التي تحفظ الأمة في داخل المجتمع وتصد العدوان عن حدوده وسيادته وتحارب الظلم والطغيان أينما كان ..

رابعاً - كفاح الاستعمار : الاخوان المسلمون لا يرون لكفاح الاستعمار

حـــداً يقفون عنده حتى تتحرر أمتهم من كل آثاره العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية وهم لا يرون استعماراً أولى بالمهادنة من استعمار . فكل عدوان على بلادهم وعلى عقائدهم وعلى كرامتهم وأموالهم يعتبر استعماراً يجب محاربته بكل وسيلة .. ويرى الاخوان ان كفاح أعوان المستعمرين من طغاة ومستبدين ومستثمرين هو كفاح للاستعمار ذاته لا يهادنون فيه أحداً ..

خامساً ـ توحيد العرب والمسلمين : (.. من أجل ذلك نادى الاخوان المسلمون بوجوب تكتل العالم الاسلامي في اتحاد سياسي واقتصادي كالإتحاد السوفياتي أو الأمريكي وفي ظل هذا الاتحاد يستطيع العرب وكل شعب من شعوب العالم الاسلامي أن يعملوا لبـــلادهم ولكياناتهم الخاصة في إطار من التعاون العملي الذي يجعل منهم أمة مرهوبة الجانب محترمة الكيان تلعب دوراً خطيراً في صيانة السلام في العالم وتوفير الرغد والأمن لشعوبه ..)(1)

تعريف جماعة الاخوان :

ويعرف الدكتور السباعي جماعة الاخوان المسلمين بما يلي :

ليست دعوة الاخوان المسلمين دعوة حزبية ضيقة تقف عند حدود سوريا ولبنان ، فقط بل هي حركة عالمية في مصر والسودان وشمالي أفريقيـــا وفلسطين وشرقي الأردن والعراق وسوريا ولبنـــان والحجاز وباكستان وأندونيسيا وأكثر مناطق الشرق العربي والاسلامي، نهضة عالمية تمثل حركة البعث الجديد في شباب العروبة والاسلام بعثاً قوياً يعتمد على أقوى الدعائم التي أحدثت كبرى الانقلابات الاصلاحية في العـــالم القديم والحديث وهي واضحة في اسسها واضحة في أهدافها ووسائلها ..

ونحن الاخوان المسلمين :

لسنا جمعية خيرية تنحصر مهمتها في جمع الأموال لإغاثة الفقراء والمنكوبين من المحسنين والأغنياء .

(1) دروس في دعوة الاخوان المسلمين .

ولسنا جمعية وعظية تنحصر مهمتها في وعظ الناس بالخطب والمقـــالات والنشرات .

ولسنا حزباً سياسياً تنحصر مهمته في جمع الناس حوله ليصل أعضاؤه الى الحكم فيحققوا منهجهم السياسي المحدود .

ولسنا جماعة مادية تنحصر مهمتها في نطاق المشاريع الاقتصادية لفائدة أعضائها المنتمين إليها .

ولسنا هيئة اقليمية تنحصر مهمتها في نطـــاق محلي أو إقليمي أو قومي ضيق .

« إنما نحن :

دعاة انقلاب إصلاحي فكري وعملي شامل ..

دعاة رسالة شاملة .. تشمل الناس جميعاً وتنظم نواحي الحياة جميعاً ..

دعاة عصبية للفضيلة والخير والحق والعزة .

دعاة دين ولسنا دعاة طائفية ..

انصار سلم ان أراد بأمتنا وبلادنا سلماً وخيراً وكرامة ..

جنود كفاح لمن أراد لنا الافناء ولأوطاننا الاستعمار ولشريعتنا التهديم ولجماهيرنا الإفقار والإذلال ..

دعاة إصلاح اجتماعي في أمتنا .. »(1)

ثانياً : حركة النور في تركيا

حتى في تركيا . . في المجتمع المتغرب العلماني المترفع . مجتمع الجمهورية الكمالية . . كانت حركات دينية مكافحة تعارض الثورة الكمالية وكان على زعامتها الأخوة الدراويش ولم يكونوا من « العلمـــاء » لأنهم كانوا موظفين رسميين . في حياة كمال أتاتورك كانت الحركة النقشبندية رأس حربة المعارضة

(1) المرجع السابق ص ٢١ - ٢٢ .

الدينية ، إذ قاد عدد غير قليل من أفرادها ثورات مسلحة وأهمها في المنطقة الجنوبية الشرقية سنة ١٩٢٥ وفي مينيمين سنة ١٩٣٠ ، أما حديثاً فالحركة التيجانية والحركة النورية هما اللتـــان تبشران وتدعوان مناهضة الثورة الكمالية .. ولكنهما لم تحملا السلاح بعد » هذا ما قاله الاستاذ برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق الأوسط ص ١٧٧ .

والحقيقة ان حركة النور حركة ضخمة بلغ عدد أفرادها الملايين وقد أسسها العلامة الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي .

« ففي منتصف القرن الماضي **نشأت في الدولة العثمانية حركات علمانية قوية** بين طبقات المثقفين بالثقافة الأوروبية من المدنيين والعسكريين تدعو الى تجديد بناء الدولة العثمانية على أسس أوروبية محضة ، ونجحت هذه الحركات بعد محـــاولات كثيرة في الاستيلاء على الحكم وأنشأت جمهورية حديثة على أسس علمانية وبدلت أحكام الشريعة بأحكام قانونية غربية ثم تابعت محاولتها لفصل شعب تركيا المسلم عن سائر الشعوب الإسلامية الشقيقة وعلى الأخص الشعوب العربية .

ولكن شعب تركيا الشجاع لم يستسلم لهذه الفتنة الجديدة بل راح يقاومها بكل ما أوتي من قوة وقامت حركات شعبية اسلامية تبين أصـالة الشعب التركي في تعلقه بالاسلام ديناً وشريعة وبالأخوة الإسلامية مع الشعوب العربية .

وكان من أهم تلك الحركات وأغزرها فكراً وأعمقها أثراً تلك الحركة التي قام بها العلامة الشيخ بديع الزمـان سعيد النورسي وتلامذته ـ طلاب رسائل النور ـ فكشف عن دقائق الإسلام الخالدة من جديد وأعاد للأجيال الناشئة ثقتها بتاريخها وجهـــادها ونجح في بلورة تعاليم الإسلام وبين مزايا شريعته الخالدة للشباب المتوثب في تركيا . وأخذ يكتب عدداً من الرسائل الإسلامية تحت عنوان (سلسلة رسائل النور) [1] .

---

(١) من مقدمة لرسالة عن حياة سعيد النورسي للاستاذ الشيخ عبد الله الخالدي .

وإذا كانت سنة الله في كونه اقتضت كما يقولون أن يبعث بين كل فترة وأخرى من الزمن من يجدد للمسلمين أمر دينهم ، ويوقظ فيهم دواعي الجهاد ذوداً عن شريعة الله ودينه فان بديع الزمان هو المجدد الذي أكرم الله به المسلمين في تركيا إبّان حكم كمال أتاتورك فقد كان رمز الحرب الاسلامية لحكمه وكان المحور الذي استقطب حوله ملايين الشباب المسلمين للصمود في وجهه ، ولقد مات أتاتورك مصطفى كمال واتباع بديع الزمان يكثرون ويزيدون .

« وحينما توفي بديع الزمـان منذ ثلاث سنوات (توفي في ٢٧ رمضان ١٣٧٩ / ١٩٥٩) تقريباً كان اتباعه يطرقون أبواب الحكم في تركيا من جميع أطرافه ورغم أن أمريكا تداركت الأمر فقلبت الأوضاع وعملت على وضع الحكم من جديد في أيدي « الكماليين » فان أتباع بديع الزمان والأمناء على عهده وجهاده هم الذين يجمعون أمرهم اليوم للثورة » [1] .

ففي سنة ١٩٠٨ حين ظهرت حرية محمد رشاد وجمعية الاتحاد والترقي التي كانت تتقنع بالدين ظاهراً وتخفي رجس الماسونية واليهودية باطناً ، بادر بديع الزمان فألف جمعية إسلامية باسم « الاتحاد المحمدي » سرعان ما انضم اليها من شتى أطراف الدولة العثمانية آلاف الناس .

محاربة الماسونية لبديع الزمان :

.. ولقد أثار عمل بديع الزمان هذا مخاوف الماسونيين الذين كانوا من وراء الحركة الاتحادية فأرسلوا رئيس محفلهم الثري اليهودي العظيم «قرصو» لمقابلته ولكنه ما لبث ان خرج من عنده قائلاً لرفاقه « لقد كاد هذا الرجل العجيب ان يزجني في الإسلام بحديثه « وقرصو » هـــذا هو أول صهيوني ماسوني عمل على قلب الخلافة العثمانية وخلع السلطان عبد الحميد واستلاب فلسطين .

---

(١) الاستاذ محمد سعيد رمضان البوطي ، المرجع السابق ص ٦ - ٧ .

ولم يجد الاتحاديون من سبيل أمامهم أخيراً سوى القبض على بديع الزمان فقبض عليه في حادثة ٣١ آذار سنة ١٩٠٩ التي أعدم فيها ١٥ مسلماً وقدم الى نفس المجلس الذي حوكم فيه هؤلاء .

وبعد ان حكم على الخمسة عشر بالإعدام توجه رئيس المحكمة خورشيد باشا الى بديع الزمان قائلا : وأنت ايضاً تدعو الى تطبيق الاسلام ؟ وطلب منه أن يتكلم بما لديه فقال بديع الزمان :

لو ان لي ألف روح لما ترددت أن أجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الاسلام . . انني أقول لكم وأنا أقف أمام البرزخ الذي تسمونه السجن في انتظار القطار الذي يمضي بي الى الآخرة لا لتسمعوا أنتم وحدكم بل ليتناقله العالم كله :

. . لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد والآن فانها تعادي الحياة واذا كانت الحكومة هكذا فليعش الجنون وليعش الموت . . . وللظالمين فلتعش جهنم .

لقد سألتموني : هل أنت داخل في جمعية الاتحاد المحمدي ؟ وأنا أقول لكم مع الفخر إنني من أصغر أفرادها ولكن هل لكم أن تخبروني من هم الذين يوجدون خارج هذه الجمعية غير المجانين والسفهاء ؟

وكانت جريمتي الأخرى اني تصديت للرد على دعاة الماسونية والالحاد من أصحاب الصحف وقلت لهم : ان على الأديب أن يكون أديباً في دعوته . . خصوصاً اذا كان سمع الأمة ولسانها . وانني أقول الآن : كما انه لا يناسب الشيخ الوقور أن يلبس لباس الراقصين فكذلك لا يناسب استانبول أن تلبس أخلاق أوروبا (١) .

(١) المرجع السابق .

وحكم على بديع الزمان . . . ثم أخلي سبيله تحت ضغط الجماهير . . .
ونشبت الحرب الأولى ووقع بديع الزمان أسيراً في يد الروس، واستطاع الفرار . . وبعد انتهاء الحرب الأولى استولى الانكليز على استانبول عام ١٩١٨ ووجهوا ستة أسئلة الى المشيخة الاسلامية عن طريق كنيسة (انكلكان) أريد منها البدء بسلسلة مؤمرات على الاسلام فوجهت المشيخة الاسلامية هذه الاسئلة الى بديع الزمان ليجيب عليها بستمائة كلمة حسب طلب الانكليز فكان جواب بديع الزمان « ان هذه الأسئلة لا يجاب عليها بستمائة كلمة ولا بستة كلمات ولا بكلمة واحدة . بل ببصقة واحدة على أفواه السائلين فحكم عليه بالاعدام . . ثم عدل عن ذلك خوفاً من ثورة الاناضول » .

حكم الخائن مردود :

وعندما قام مصطفى كمال بثورته ١٩٢٠ وكان يتظاهر بالايمان والاسلام . أرسل بديع الزمان خطاباً مطولاً الى المجلس النيابي الذي ترأسه مصطفى كمال ضمنه نصائح لهم في عشر فقرات وجعل عنوانه هذه الجملة :

« اعلموا أيها المبعوثون انكم مبعوثون ليوم عظيم » .

وكان من تأثير هذا البيان . . ان استقام على التدين وإقامة الصلاة ستون نائباً منهم غير ان هذا أثار حفيظة مصطفى كمال ، فاستدعى بديع الزمان ودخل معه في مناقشة حادة وفي ديوان المجلس النيابي وكان مما قاله كمال : لا ريب اننا بحاجة الى استاذ قدير مثلك . . ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة لقد كان أول جهودكم هنا حديث الفرقة في أهل هذا المجلس .

فأجاب بديع الزمان : « ان أعظم حقيقة تتجلى بعد الاسلام إنما هي الصلاة وان الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود » (١) .

(١) المصدر السابق ص ٢٢

وبدأ الصراع . . واستطاع كمال أتاتورك ان يحول تركيا الرسمية عن الاسلام ـ على نحو ما رأينا [١] ـ وعكف بديع الزمان على كتابة الرسائل مستهدفاً التوعية الاسلامية ومقاومة أتاتورك بالفكرة والمبدأ . أما كيفية انتشار هذه الرسائل بين الناس ففيها الأعجوبة الخارقة التي تكشف عن مدى ما تفعله عقيدة هذا الدين في نفس صاحبها إذ تحول فيه الضعف الى قوة والجبن الى شجاعة .

كان أتاتورك إذ ذاك قد أسفر عن وجهه . . . فألغى جميع وجوه النشاط الاسلامي وفي مقدمتها الكتابة بالأحرف العربية وما قد يتضمنها من بحوث وتعليمات إسلامية . فكان سبيل جماعة النور الى نشر رسائل الاستاذ هو أن يأخذ كل فرد على نفسه كتابة ما يمكن من النسخ عن كل رسالة تظهر فاذا وزعها على القراء كان على كل من هؤلاء ايضاً أن يقوم بنفس الوظيفة وهكذا تتكاثر هذه الرسائل في الأيدي عن طريق التوالد المطرد وكما تنتشر الدوائر المتداخلة على سطح الماء إذ يقذف فيه بحجر تنتشر هذه الرسائل بسرعة مذهلة في مختلف البلدان والقرى والمجتمعات . لقد ظل جماعة النور قرابة عشرين عاماً ينشرون رسائل النور بهذه الوسيلة ، فقد كانت أيدي الشبان والفتيات تقوم بما تعجز عنه آلات الطباعة . وكثيراً ما تعرضت فتيات للسجن والتنكيل إذ ظهر للسلطات انها تسهر الليالي الطويلة وهي تنسخ هذه الرسائل ثم توزعها في صناديق البريد أو في صفوف المدارس [٢] .

وعلى أثر ذلك أمر أتاتورك بنفي بديع الزمان فنفي الى بارلا ثم الى اسكي شهر ثم حوكم بتهمة قلب نظام الحكم . وبعد ان انتهت مدة سجنه نفي الى كاستامونو على البحر الأسود . ولكنه حتى في هذه الحالة ظل يكتب البحوث والمواضيع الاسلامية ويهيب بالمسلمين أن لا يتركوا دينهم ويصيح

(١) راجع فصل كيف دالت دولة الاسلام من هذا الكتاب .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧

بالشباب أن لا يعصب عينيه بعصائب الجهل بالاسلام. وظلت النشرات تنتقل سراً . . الى صفوف الجامعات ومعسكرات الجيش ودواوين الحكومة .

« وشعر مصطفى كمال بالزلزال يسري في كيان حكومته ، فعقد اجتماعاً سرياً دعا اليه كبار رجال الماسونية الذين ساهموا مساهمة فعالة في تقويض بناء الخلافة الاسلامية وبناء الحكومة العثمانية على أنقاضه ، انتهى باتفاقهم على إحالة بديع الزمان مرة أخرى للمحاكمة بتهمة تأليف جمعية سرية والعمل على الاساءة لحكومة الثورة واتهام مصطفى كمال بالدجال » [١] .

بديع الزمان امام المحكمة من جديد :

ووقف بديع الزمان وكثير من أعضاء جماعته أمام المحكمة . . وكان مما قاله :

« انني لا أتوجه في بياني هذا الى أعضاء هذه المحكمة فقط بل والى تلك الجماعة الماكرة في اسبارطة ايضاً . . اني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية . على حين يحق لمارق مثل (الدكتور دوزي) أن يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار ثم يعتبر أمراً مقدساً بذلك ، لأنه حرية للرأي والفكر . أما نور القرآن الذي يأبى الا أن يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره فهي خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة .

« انكم تدورون ثم تقولون: ان أعمالي الدينية ما هي الا استغلال ووسيلة للاخلال بالأمن ولكن أقول لكم بالمقابل : ان دعواكم هذه ليست الا استغلالاً ووسيلة لاعدام الدين باسم المحافظة على الأمن . . إذا فان تلك المادة ذات الرقم ١٦٣ ما هي إلا عبارة عن كرة تقذفون بها الى حيث أردتم وما

(١) المصدر السابق ص ٣٦

إرادتكم إلا معاداة الدين اذا « فاسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق انني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوة : افعلوا ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه ان نجعل رؤوسنا فـــداء لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام » (١) .

ومع ان المحكمة برأته وآمن بأفكاره من آمن من أعضائها . . إلا أن بديع الزمان أعيد الى منفاه وبقي فيه حتى أوائل عام ١٩٤٧ حين ظهرت سلسلة من التسهيلات التي أدخلتها الحكومة إذ ذاك على قانون أتاتورك فيما يخص الثقافة والنشاط الديني وكان هذا بضغط من جماعة النور التي اكتسحت إذ ذاك كل شيء .

وأجازت الحكومة أيضاً طباعة رسائل النور بمختلف وسائل الطباعة . . فانتشرت الرسائل في كل بلدة وسوق ومسجد ومدرسة وجامعة بل كثيراً ما كانت آلاف النسخ منها تمطر فوق رؤوس الناس بواسطة القائهـا من الطائرات بواسطة ضباط ينتمون الى حركة النور .

فعاد الجذع يستبد من جديد بأفئدة السلطات فقد رأوا أن تيار النور سيكسحهم لا محالة وشعروا ان دائرة الالحاد واللادينية تنتقص أطرافها بسرعة مذهلة وان الواجهة الثقافية والفكرية للشعب التركي من علماء وأدباء ومفكرين وأساتذة جامعة ينضوون تباعاً تحت لواء هذه الدعوة بحماس منقطع النظير .

فألقت الحكومة القبض عليه واحالته الى محكمة افيون الجزائية عام ١٩٤٨ فأصدرت المحكمة حكمها على سعيد بالحبس عشرين شهراً ثم بقي معزولاً مراقباً حتى وفاته في السابع والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩ هـ .

(١) المصدر السابق ص ٣٦

تقرير اللجنة الرسمية المكلفة بدراسة طبيعة وعمل جماعة النور :

ولا تزال جماعة النور حركة قوية تنتشر في كل مكان من تركيا فتبدد ظلام الكمالية والجاهلية . . ويقدر المراقبون عدد أعضاء هذه الحركة بين ٦٠٠،٠٠٠ عضو وبين مليون (١) .

وقد وضع مجموعـة من أساتذة الجامعـات التركية تقريراً رفعـوه الى الحكومة التركية بناء على طلبها وذلك حين قدمت جماعة النور الى المحاكم ـ في المرة الأخيرة ـ وكان التكليف رغبة من الحكومة لمعرفة طبيعة هـذه الجماعة وكان من اللجنة ثلاثة من كبار الأساتذة هم البروفسور حميد طوبجواوظو والبروفسور فاروق رام والبروفسور نشات جـاغاتاي وقد نشرت تعريب هذا التقرير مجلة الشهاب اللبنانية العدد الخامس السنة الأولى سنة ١٩٦٧ وقد جاء في هذا التقرير :

هي دعـــوة شاملة لعموم المسلمين تدعوهم ليغيروا تفكيرهم حتى يطابق التفكير الإسلامي . وهم يدعون الناس الى تفهم القرآن الكريم وأن يتخلقوا بأخلاق الإسلام وحين تصبح عقولهم وقلوبهم مطابقة لتعاليم الإسلام يدعون يومها طلبة النور .

وهم جماعة متساندة متعاونة تحاول درأ أي خطر قـــد يمس جماعتهم والخلاصة هي جمـــاعة رائدها الاخلاص متمسكة بحبل الله المتين مستعدة للجهاد في سبيـــل الله وفي سبيل إقـــامة شرع الله في الأرض . . وفي سبيل إقامة وحدة إسلامية مع البلدان الإسلامية عامة والعرب بصورة خاصة .

وهم ليسوا من أولئك الذين يؤمنون بترك نعم الحياة وينفرون من العمل

(١) راجع الحركة الاسلامية بين الأمس واليوم للاستاذ فتحي يكن في مجلة الشهـــاب اللبنانية العدد ٥ السنة الاولى ١٩٦٧ وحياة سعيد النورسي للاستاذ البوطي .

في السياسة والاكتفاء بالحياة الآخرة دون الحياة الدنيا ويتبعون لذلك الأنزواء البعيد عن الحياة .

كلا : فهم ليسوا من هؤلاء المنعزلين في سبيل الوصول الى الهدف ولكنهم جماعة يحبون العمل والحركة ويستعدون لإعلان الجهاد المقدس في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض ولذا فهم يحرصون على تربية أفرادهم تربية روحية وعقلية كاملة بحيث تصبح الشهادة في سبيل العقيدة مطلبهم الرئيسي .

وحركة النور في تركيا .. تعرف أن الأحكام الإسلامية وما يتصل بها من قوانين حقوقية خاصة بالدولة قد استبدلت بأحكام مدنية لا دينية وهي تعلن أنها تستنكر هذا الأمر .

.. وهم لن يلجأوا الى تغيير الأوضاع بالقوة ولكنهم سيمهدون لهذا التغيير بالأمور الدعوية المعنوية حتى يقم الوعي وينتشر نور الاسلام في كل مكان ..

ثالثاً - فدائيان اسلام في ايران :

يقول برنارد لويس في كتابه الغرب والشرق الأوسط (ويلاحظ نفس المزيج من المثالية والعنف ، من التقوى والارهاب في المنظمة الايرانية التي تسمى فدائيان اسلام .. وبالرغم من مذهبهم الشيعي فإنهم يحملون فكرة عن الوحدة الإسلامية تماثل الى حد كبير فكرة الاخوان المصريين . ولقد كانت بينهما اتصالات وفي ٧ آذار سنة ١٩٥١ قتل أحد أفراد فدائيان اسلام رئيس الوزراء الإيراني الجنرال ازمارا .. وفدائيان اسلام هي في حالة خسوف الآن ولقد بقيت الى مدة عامل اضطراب في سياسة ايران)[1].

(١) ص ١٧٦ - ١٧٧

نواب صفوي وجهاده :

(كان نواب صفوي معارضاً شديداً للجهاز الحاكم في ايران وكان يعتبره مؤلفاً من دمى في أيدي المستعمرين وكان على يقين انه سيدعى ورفاقه ان عاجلاً أو آجلاً ليقدموا دماءهم في سبيل الأهداف التي يتمسكون بها وقال نواب اننا متأكدون من أننا سنقتل ان لم يكن اليوم فغداً ، ولكن دماءنا وتضحياتنا سوف تحيي الاسلام وتحفزه الى النهوض ان الاسلام بحاجة الى هذه الدماء والتضحيات اليوم ولن ينهض بدونها أبداً)[1] .

ونواب هذا شاب متوقد الإيمان والحماس يبلغ من العمر تسعة وعشرين درس في مدينة النجف بالعراق ثم عاد الى ايران ليقود حركة الجهاد ضد الخونة والمستعمرين أسس (نواب صفوي) حركة فدائيان إسلام التي تؤمن بأن القوة هي السبيل الوحيد لتطهير أرض الاسلام من الصهيونية والمستعمرين[2].

فدائيان وجهادهم بفلسطين وضد الانكليز :

وعندما بدأت الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ **لبس رجال جماعة فدائيان اسلام الاكفان واستعدوا للزحف على فلسطين .. لكن توقيع الهدنة أعادهم**)[3] .

وأيضاً عندما بدأت (معارك التحرير من النفوذ البريطاني عند تأميم مصافي عبادان كان فدائيان اسلام الشعلة التي أثارت السبيل ومهدت الطريق بسيل من الدماء ..

وأخيراً عندما نُقضت اتفاقات التأميم انتكست الوثبة وعاد معه أذنابه وأتباعه ، كان لا بد لفدائيان اسلام من أن يعملوا .. فقال زعيمهم نواب « لا » بالرغم من أن الكتل الوطنية كلها سكتت أو زج بها في السجون ..

(١) مجلة المسلمون المجلد الخامس ص ٨٦
(٢) و(٣) الاستاذ فتحي يكن جريدة الشهاب اللبنانية العدد ٤ السنة الاولى ١٦٧

فكان أن شرفه الله بالشهادة مع نفر من اخوانه وسقط نواب صفوي برصاص الخونة والعملاء صباح يوم الاربعاء الواقع في الخامس من جمادى الثاني ١٣٧٠ الموافق ١٨ من كانون الثاني ١٩٥٦ [١].

مبادىء فدائيان :

ويمكن أن نلخص مبادىء حركة فدائيان اسلام بالمبادىء الأربعة التالية :

أولاً : الاسلام نظام شامل للحياة .

ثانياً : لا طائفية بين المسلمين أي لا سنة ولا شيعة .

ثالثاً : لا تعارض بين الاسلام والوطنية .

رابعاً : وحدة العالم الاسلامي على أساس « الاسلام طريق حل مشكلات المسلمين » .

فمن المبدأ الأول يقول نواب « ليس الاسلام عندنا مجرد فرضية غيبية انه نظام شامل للحياة الانسانية ، انه فكرة فعالة قادرة على تزويد الانسان بكل خير في الدنيا والآخرة ، وينطوي على الحلول الحاسمة لجميع مشكلاتنا وقضايانا انه يوفر للجميع الغذاء والكساء والمأوى ويهيء لنا أشرف علم وأسمى ثقافة وتربية وفوق كل ذلك يضع لنا نظاماً اجتماعياً اقتصادياً سياسياً يضمن الأمن والسلامة للفرد والمجتمع والناس كافة . انه يغنينا عن كل ما في النظم المعاصرة – الرأسمالية والشيوعية – من فوائد وينأى بنا عن مضارها » [٢].

وعن المبدأ الثاني قال نواب « لنعمل متحدين للاسلام ولننسَ كل ما عدا جهادنا في سبيل عز الاسلام . . ألم يأن للمسلمين أن يفهموا ويدعوا الانقسام الى شيعة وسنيين . لينظروا جميعاً في كتاب ربهم وهو كفيل بتوحيدهم حتى

(١) المرجع السابق .

(٢) مجلة المسلمون ص ٧٥

يكونوا جبهة قوية متحدة أمام أعدائهم المتربصين . ان الآلام والتضحيات التي يتحملونها في سبيل هدفهم المشترك سوف يكون لها الأثر الفعال في جميع القلوب » [١].

أما المبدأ الثالث فقد أوضحه نواب للصحفي الباكستاني الذي سأله عن تعاون فدائيان مع حركة مصدق القومية المتطرفة التي آزرها حزب تورة الشيوعي في نفس الوقت فقال « ان مصدق يعمل لنهضة ايران . وان تأميم البترول كان من الأهداف المشتركة التي جمعت بين مصدق وفدائيان ولذلك وقفت الجماعة من مصدق موقف المؤيد الثابت ، خصوصاً عندما حاول المستعمرون التغلب عليه بالدسائس الدنيئة والمؤامرات بالتعاون مع عملائهم في ايران . . وان الاسلام لا يتعارض والوطنية ولكنه يحارب الوطنية الحمقاء.. واذا حصل أي تعارض بين الاسلام والوطنية فان جماعة (فدائيان) دون شك أو تردد تعتزم سبيل الاسلام » [٢].

وجواباً على سؤال كيف يواجه المسلمون مشكلاتهم الكبرى التي تعترض سبلهم كمشكلة كشمير وفلسطين والمغرب (حين كان المغرب مستعمراً) أجاب نواب محدداً المبدأ الرابع من مبادىء فدائيان فقال « ان الكمنولث الاسلامي هو الحل الصحيح بل هو الطريق الوحيد للخلاص ، ولكن هذا غير مستطاع ما دام العاملون المخلصون للاسلام لم يتقلدوا بعد أمور المسلمين وكل وحدة مصطنعة بين المسلمين مع وجود القوى المستعمرة التي لا تعمل إلا لصالحها فانها رهينة التفكك . ان وحدة العالم الاسلامي ممكنة على أساس الاسلام ولصالح المسلمين ولا تصح إلا على هذا الأساس » [٣].

(١) مجلة المسلمون ص ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ٧٤

(٣) المرجع السابق ص ٧٧

رابعاً : الجماعة الاسلامية في باكستان :

الجماعة الإسلامية في باكستان حركة اسلامية بحتة تدعو الى احياء الدين الحنيف وتهدف الى رفع كلمة الله في الأرض وتحكيم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في الحياة العامة والخاصة وتطهيرها من شوائب التناقض والشرك وإقامة مجتمع إسلامي سليم يمثل الإسلام في مبادئه النبيلة وتقاليده الذهبية وروحه الطيبة .

« ولقد تأسست الجماعة الإسلامية سنة ١٩٤١ أي قبل قيام باكستان بست سنوات بقيادة الاستاذ الكبير العلامة المجاهد الشجاع أبي الأعلى المودودي وما أن تأسست باكستان وبرزت الى الوجود هذه الدولة الإسلامية حتى أخذت الجماعة الإسلامية زمام المبادرة للمطالبة بوضع دستور البلاد على أسس مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، وقد لاقت في سبيل هذه الدعوة ما لاقت من المحن والمتاعب »[1] . واصطدمت اصطدامات عنيفة بالفئات والاتجاهات التي أوجدها الاستعمار كالقاديانيين ومنكري السنّة النبوية والمتفرنجين والمخدوعين بالحضارة الغربية .

وفي عام ١٩٦٣ صادرت الحكومة مجلة ترجمان القرآن — التي كان يصدرها الاستاذ المودودي — وألغت امتيازها * بحجة ان المجلة حاولت إساءة العلاقة بين باكستان وإيران * .

وفي عام ١٩٦٤ أصدرت الحكومة أوامرها بحل الجماعة وصادرت أموالها وأغلقت دورها ومراكزها ، ثم ألقي القبض على أمير الجماعة وجميع أعضاء مجلس الشورى وهم ستون شخصاً ... وزج بهم في السجون والمعتقلات ... وبعدها قدّم المودودي للمحاكمة وصدر الحكم فعلاً ثم خفّض الى السجن

---

(١) محنة الجماعة الاسلامية في باكستان ص ٣ .

* مع غرامة مالية قدرها عشرة آلاف روبية باكستانية ، انظر أيضاً كتاب محنة الجماعة الاسلامية في باكستان ففيه حياة هذه الجماعة وأعمالها ومنها وتهم الحكومة الباطلة .

* مقال نشرته المجلة كتبه علماء ايران عن الوضع في ايران وسياسة الحكومة ووضع اليهود انظر المرجع السابق ص ٧٠ وما يليها .

المؤبد تحت ضغط العالم الإسلامي واستنكاره الشديد لموقف الحكومة من الجماعة الإسلامية[1] .

وتقلبت الجماعة الاسلامية — بعد ذلك — في أدوار مختلفة حتى إذا ما أعلنت الحكومة العسكرية الأخيرة عن اجراء انتخابات في باكستان في أواخر سنة ١٩٧٠ لوضع دستور للبلاد حتى راحت الجماعة الاسلامية تركز قواها في جميع انحاء البلاد متآلفة مع المجموعات الاسلامية هناك .

وقد كشف النقاب في باكستان عن ان الجماعة الاسلامية توجه ثلاثة تنظيمات جماهيرية كبرى هي منظمة العمال التي تضم خمسمائة اتحاد مهني ومنظمات الشباب التي يتفرع عنها منظمة الطلاب المسلمين ومنظمة قوة الشباب الديمقراطية ومنظمة الفدائيين المسلمين الذين كتبوا بدمائهم استعدادهم للاستشهاد في سبيل الدعوة الى الله .

ومن الناحية الاعلامية فان الجماعة الاسلامية تحاول تغطية باكستان بشقيها الغربي والشرقي فقامت باصدار ست صحف يومية موزعة في المدن الرئيسية ومجلة شهرية وأخرى أسبوعية .

أما من الناحية التنظيمية فقد أصبح للجماعة في باكستان ثلاثمائة فرع يقوم على قيادتها خمسمائة متفرغ لا عمل لهم الا التنظيم والدعوة الى الله .

طبيعة ومصدر منهاج الجماعة :

وتتلخص دعوة الجماعة الاسلامية في باكستان بمبادىء ثلاثة كما أعلنوها وهي :

١ — دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره .

---

(٢) للاستاذ فتحي يكن مجلة الشهاب اللبنانية العدد الرابع السنة الاولى ١٩٦٧ وقد أفرج عن الاستاذ المودودي مؤخراً ثم أعيد اعتقاله ثم أفرج عنه .

٢ – ودعوتنا لكل من أظهر الرضا بالاسلام ديناً أن يخلعوا دينهم لله ويتركوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من التناقض .

٣ – ودعوتنا لجميع أهـل الأرض أن يحدثوا اصـلاحاً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً وأن ينزعوا هذه الامامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً [١] .

وقـد ذكر الاستاذ المودودي طبيعة ومصدر منهاج الجمـاعة في العمل الاسلامي فقال [٢] « الحقيقة ان منهاجنا – كدعوتنا – إنما هو مأخوذ من القرآن الكريم وسيرة الأنبياء عليهم السلام فالذين يقبلون دعوتنا ويظهرون استعدادهم لحمل أعبائها وتبليغ رسالتها معنا ، فان أول ما نطالبهم به أن يدخلوا في دين الله كافة ويصطبغوا بصبغته بجملة شؤون حياتهم من فكرية وعملية ويجعلوا سلوكهم العام في الحياة هو الدليل على أخلاقهم وتجردهم ويبذلوا سعيهم لتزكية حياتهم وتطهيرها من كل شيء يخالف إيمانهم ومن هنا تأخذ أرواحهم تقـوى ونفوسهم تعقل وأخـلاقهم تتهذب وسيرتهم تتزكى ويدخلون مرحلة الابتلاء والامتحان » .

ومن النتائج التي توصلت اليها الجماعة الاسلامية بعد مرورها بتجارب متنوعة واجتيازهـا مراحل عديدة ان الحركة الاسلاميـة ليست بغنى عن أمرين أساسيين بحال من الأحوال ، في صدد دعم قواعدها وتثبيت خطواتها وتحقيق غاياتها :

أحدهما : التخطيط والتنظيم .

والآخر : التربية من ناحيتين : فكرية وروحية .

---

(١) راجع الصفحة الاخيرة من كتب الاستاذ المودودي وقد وقعت هذه الصفحة باسم الجماعة الاسلامية في باكستان وراجع ايضاً تذكرة دعاة الاسلام للاستاذ المودودي ص ١٠٩

(٢) تذكرة دعاة الاسلام ص ٢٥ – ٢٦

« كما يلزم للعاملين للإسلام أن يكونوا مضطلعين بالثقـافة العصرية والأفكار السائدة والدعوات الحديثة من مواطن الضعف والفساد والدمار إذ أن هذا يزيدهم إيماناً بنظرية الإسلام ودعوته ويؤهلهم لدحض الحجة بما هو أقوى منها ولإقناع الأذهان بخطأ الخاطىء وصحة الصحيح بينما تحليهم بالتربية الروحية يجذب اليهم القلوب . . وهـذا أقوى سلاح وأنجح وسيلة وأوفق منهاج وأضمن عمل لنجاح صاحبه في الدنيا والآخرة » [١] .

كتابات المودودي :

من أجل هذا عكف الأستاذ المودودي على تزويد أعضاء الجماعة والمسلمين في العالم بمباحث فكرية رصينة في مختلف مواضيع الحياة والحركة ، ونستطيع أن نقرر بكل طمأنينة أن لمؤلفات الأستاذ المودودي أعظم الأثر في بلورة الفكرة الاسلامية ليس فقط في الجماعة الإسلامية في باكستان بل في كافة الحركات الإسلامية في العالم الاسلامي وتعتبر كتابات المودودي مرجعاً غنياً للعاملين والمفكرين المسلمين .

ومن هذه المؤلفات :

في الحركة : تذكرة دعاة الإسلام والأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية .

في العقيدة : مبادىء الإسلام – البينات – المصطلحات الأربعة في القرآن – الإسلام والجاهلية – الحضارة الإسلامية .

في الأنظمة : معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام – النظرية السياسية في الإسلام – الجهـاد في سبيل الله – نحو دستور إسلامي – الربا – الحجاب – حركة تحديد النسل .

في الحضارة : الحضارة الإسلامية .

---

(١) خليل أحمد الحامدي معتمد دار العربية للدعوة الاسلامية بلاندر باكستان انظر تقديم كتاب تذكرة دعاة الاسلام ص ٧ – ٨ وقد كتب هذا التقديم في شباط ١٩٦٦ .

وله مقالات عديدة منشورة في مختلف المجـلات الإسلامية تبحث في الثقافة والتفسير [١] والرد على مفتريات المبطلين والخانعين ، وله أبحـاث ودراسات موضوعية مختلفة .

وتعتبر الجماعة الإسلامية في باكستان من أقـوى الحركات الإسلامية في العالم عدداً وتنظيماً .

خامساً : حزب ماشومي (او مجلس شورى المسلمين) في اندونيسيا :

للحركة الإسلامية في أندونيسيا تاريخ يختلف عن تاريخ الحركات الاسلامية من حيث التكوين ، ومن حيث العدد والتنظيم . فحزب ماشومي مثلاً يقدر أعضاؤه منذ عام ١٩٥٤ بأحد عشر مليوناً [٢] وهو عدد ضخم يمكنه التأثير بسياسة أندونيسيا بشكل طبيعي . وهذا ما حدث فعلاً فقد قادت الحركة الاسلامية الجهاد ضد المحتلين اليابانيين ثم الهولنديين ، وقد تولى المفاوضة على المائدة المستديرة التي انتهت باستقلال تام ومنجز لأندونيسيا ممثلون عن حزب ماشومي قائد الثورة [٣] ثم كان للحزب ممثلون في البرلمان والوزارة واستلم رئاسة الوزارة لفترة من الزمن ثم بدأ الصراع عنيفاً بينه وبين الرئيس سوكارنو مما أدى الى اشتعال ثورة هائلة في أواسط سومطرة . . . وظل الحزب بعيداً عن الحكم يقاوم الشيوعيين وحكم سوكارنو حتى أذن الله بزوال حكم سوكارنو وكشف مؤامرة الشيوعيين الأخيرة في أندونيسيا . وقد كتب الأستاذ علي الطنطاوي تحليلاً للحركة الاسلامية في أندونيسيا

---

(١) للاستاذ المودودي تفسير يسمى (تفهيم القرآن) وقد بدأ به منذ أكثر من خمس وعشرين سنة وظهر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء من أول سورة الفاتحة الى آخر سورة الروم . ويكتب الاستاذ المودودي مؤلفاته بالاردية وقد عربت أكثرها .

(٢) راجع الحركة الاسلامية في أندونيسيا للاستاذ علي الطنطاوي والمنشور في مجلة المسلمين المجلد السادس ص ٦٣٦ ولعله أراد بالأعضاء مآزري الحزب ومؤيديه فضلاً عن المنتظمين .

(٣) من تصريح للاستاذ محمد ناصر زعيم الحزب .

على أثر زيارته لهذه الدولة واطلاعه على الأوضاع الخاصة للأحزاب هنـاك نقتطف منه ما يلي :

« لتاريخ الجمعيات والأحزاب في أندونيسيا مراحل كثيرة :

١ — أما مرحلة التأسيس ، فالفضل كله فيها لرجل واحد ، هو الذي شق للناس هذا الطريق ، هو الذي قادهم الى العمل وهو الأستاذ الأكبر عمر سعيد شكروامينوتو الذي أسس أول حزب في أندونيسيا سنة ١٩١٠ وهو (شركة إسلام) وشركة في اللغة الأندونيسية تستعمل بمعنى (جمعية) وكان هذا الحزب هو الساق الذي تفرعت منه الأحزاب والجمعيات كلها ولا يزال موجوداً الى اليوم .

« وكان شكروامينوتو شعلة حماسة وكنز اخلاص ومنار هداية ، ولقد بذل الهولنديون المستعمرون كل شيء ليصرفوه عن غـايته : المناصب ، والأموال ، والمتع ، فوجدوه جبلاً لا يتزحزح .

وفي هذا الوقت أسست جمعيتان وان لم تنصرفا للسياسة والجهاد كما فعلت شركة اسلام ، فلقد عملت عملاً أثبت وأبقى ، وهـو فتح المدارس واعداد نشء صالح يكون عدة للمستقبل (الجمعية المحمدية) أسسها الحـاج أحمد دملان سنة ١٩١٢ و (جمعية الارشاد) * أسسها السوكرتي الانصاري وهو سوداني الأصل سنة ١٩١٢ .

وفي سنة ١٩٣٠ أسست جمعية وحدة العلمـاء ، وفي سنة ١٩٣٥ أسس الدكتور سوكيمان الحزب الإسلامي الأندونيسي وثم سنة ١٩٣٦ أسس الحاج أوغست سالم (وزير خارجية أندونيسيا) حزب التنوير الإسلامي وجمعية الشبان المسلمين .

وبدأت بعد ذلك حركة تقارب وتعاون بين هذه الجمعيات والأحزاب

---

* راجع محور الجمعيات الخيرية من هذا الفصل .

وتكون منها بين الحربين شبه اتحاد باسم المجلس الإسلامي الأعلى ، عقد مؤتمرات إسلامية عامة واشتغل بمسألة الخلافة * . . واشتغل المجلس بقضايا العرب في فلسطين وفي برقة وعمل على مقاطعة ايطاليا . . وانشأ فرعاً للصحافة لرد مفتريات المجلات الأوروبية والصينية . . والمجلات الالحادية . وجاهد جهاداً رائعاً لابطال القوانين الاستعمارية ومنها قانون الزواج المدني المخالف للاسلام . . وسمي الجبل القائم في منطقة المؤتمر باسم (جبل شركة اسلام) ولا يزال اسمه الى اليوم تخليداً لهذا المؤتمر .

٣ — وكان الاحتلال الياباني لأندونيسيا والملايو . . وتشكلت الخلايا العسكرية ومنها فرق الدفاع الوطني بقيادة « الجنرال سوديرمان » وهو في الأصل من العلماء وأكثر ضباطه من الجمعية المحمدية ومنها أيضاً (حزب الله) بقيادة زين العارفين (من جمعية نهضة العلماء) .

٤ — وأيام حكم اليابان اجتمعت الجمعيات وكونت منها اتحاداً أوثق وأقوى وكان مجلس الشورى الإسلامي بدلاً من المجلس الإسلامي الأعلى .

٥ — ولما استلقت أندونيسيا وصارت فرق الدفاع الوطني هي الجيش وبقي حزب الله واعتزل وألف شبه حكومة داخلية باسم دار الإسلام وهي موجودة الى اليوم في جبلية من جاوة تضم ملايين من السكان وتقيم حكم الله . إلا أن المؤتمر الأكبر الذي جمع الأحزاب والجمعيات كلها كان قد قرر توحيد الصفوف في حزب واحد دعي (ماشومي) * .

٦ — ثم كان مؤتمر جوكجا في ١٩٤٩/١٢/١٥ وقد دام خمسة أيام بلياليها وكان أعظم مؤتمر إسلامي شهده سبعماية مندوب وقرر :

١ — تثبيت ماشومي وتكوين مكتب تنفيذي له واعتبار جميع الأحزاب

* في أعقاب الغاء الخلافة في استانبول .

* تكون اسم ماشومي من الحروف الاولى والاخيرة « المجلس الشوري الاسلامي » .

والجمعيات أعضاء فيه .

٢ — جعل للحزب أقساماً للدعاية والنشر والنساء والاجتماعيات والاقتصاد والتربية والثقافة .

٣ — تأليف جبهة تضم جمعيات الشباب كلها باسم (جبهة الشباب الأندونيسي) .

٤ — تأليف لجنة دائمة للحج .

٥ — توحيد الصحافة الإسلامية في أندونيسيا .

٦ — اعداد لجنة من العلماء لوضع الدستور الاسلامي .

٧ — تأييد فلسطين وتونس والجزائر ومراكش عملياً ومالياً .

٨ — انشاء وقف بخمسين مليون روبية لانشاء مدارس اسلامية.

٧ — ولكن الاتحاد هذا لم يدم . وكان ان انشقت جمعية نهضة العلماء وشركة اسلام والتربية الاسلامية وألفوا فيما بينهم حزباً واحداً (اسموه مسلم ليك) أي الجماعة الاسلامية . . وأعلنوا ان الخلاف بينهما وبين ماشومي خلاف شكلي خلاف في الطريقة فقط لا في المبدأ ولا في الغاية . . فصار في أندونيسيا جبهتان اسلاميتان ماشومي ورئيسها محمد ناصر، وهو رجل عالم فاضل متواضع ويقدر عدد المنتسبين الى ماشومي بأكثر من أحد عشر مليوناً . (ومسلم ليك) ورئيسها دملان [1] .

اهداف حزب ماشومي ونظرته للكون والحياة :

وقد نشرت مجلة المسلمون في مجلدها السادس سنة 1958 النص الكامل للخطاب الذي ألقاه محمد ناصر زعيم حزب ماشومي في الهيئة التأسيسية التي انتخبت لوضع الدستور وقد أعلن محمد ناصر في الخطاب (أن

(١) المسلمون ، المجلد السادس ص ٦٣٦ وما يليها .

فكرة دعوتنا . . تهدف الى بنـاء دولة اسلامية أي أن تكون أندونيسيا دولة اسلامية) .

وقد جاء خطابه جامعاً شاملا لأكثر مناحي الصراع وجعل له عنواناً ذهب شعاراً في التحليل السياسي لأوضاع المسلمين (اختاروا احدى السبيلين : سبيل الدين أو سبيل اللادينية) وقد تكلم في مستهل خطابه عن مفهوم الدولة وتطورها وآراء الاتجاهات الفكرية المعاصرة والقديمة ثم نقد المبادىء الخمسة التي دعا اليها سوكارنو لبناء أندونيسيا وهي :

١ ـ الايمان بالله (بمعناه العام) .

٢ ـ القومية .

٣ ـ الديمقراطية .

٤ ـ الانسانية .

٥ ـ العدالة الاجتماعية .

ثم قال : « ليس مجال للحياة الانسانية يمكن فصله عن الدين أو فلسفة الحياة ، فلا بد لنا أن نختار سبيلين : سبيل الدين أو سبيل اللادينية . أمـا سبيل اللادينية كما قد شاهدناها طوال هذه الفترة لا يمكنها ان تعطي أساساً راسخاً لحياة المجتمع بل انها تقوض أسس حياة الأفراد والجماعات » .

ثم مضى قائلا : « مما لا يختلف فيه اثنان ان للدين ميزة خاصة فما هي حقيقة الدين ؟ الدين هو عقيدة ونظام للحياة يشتمل على عدة عوامل منها :

الايمان بالله كمصدر للحكم وقيم الحياة .

الايمان بالوحي المنزل على الرسول .

الايمان بوجود صلة العبودية .

الايمان بأن هذه الصلة تؤثر في حياة الأفراد .

الايمان بوجود حياة أخرى بعد الممات .

الايمان بأن العبادات هى وسيلة للتقرب الى الله .

الايمان بالله كمصدر للقيم العليا .

الايمان برضى الله كهدف أسمى في هذه الحياة .

ثم راح يقارن بين المبادىء الخمسة وبين مبادىء الإسلام وعقب بقوله : (فأنى لهذه المبادىء (أي الخمسة) أن تكون أساساً لدولة . . ليس في مقدور ـ هذه المبادىء ـ أن تخاطب أرواح المسلمين ، هؤلاء الذين لهم فكرة واضحة المعالم كاملة البناء تمتد جذورها الى أعماق نفس الشعب كهدف لحياته ومصدر لكيانه المادي والروحي ، الا وهي فكرة الإسلام . اما أن ينتقل المسلم من فكرة الإسلام الى (المبادىء الخمسة) فمثل ذلك كمثل من ينتقل من أرض يطؤها بقدمه الى فضاء خال) .

وبعد ذلك اختار سوكارنو طريق اللادينية وحل حزب ماشومي ثم قام بحل المجلس التأسيسي الذي وافق ، مبدئياً على ألا تتصادم القـوانين مع الشريعة الإسلامية سنة ١٩٥٩ ثم حـل البرلمان ورشح أعضـاء يرضى عنهم وأكثرهم من اليساريين الشيوعيين .

وخلال هذه الفترة ، نشأ فراغ هائل في أندونيسيا خلفه تشتت الأحزاب الإسلامية وتوغلها في السياسة . . فتداعى فريق من الأندونيسيين الغيورين الى مؤتمر عقدوه في سربانا ـ أندونيسيا ـ في السابع من رمضان سنة ١٣٨٢ واتفقوا على (انشاء مؤسسة إسلامية غـير سياسية ، لا تخوض في المسائل الخلافية المذهبية التي هي سبب انشقاق المسلمين بأندونيسيا، مؤسسة تعترف بها الحكومة على الرغم من شيوعيتها) كما جاء في التقرير الذي أذاعه في مكة بتاريخ ١٩٦٧/٩/٣ الأستاذ حسين الحبشي بالنيـابة عن مؤسسة الدعوة الإسلامية ويقول :

« هكذا اخترنا لها الاسم الذي بها عند الحكومة ثم ركزنا جهودنا على

طبع رسائل ندحض بهـــا مزاعم الاشتراكيين وندحض فيهـا خرافات الأناجيل * .

وقد لخص الأستاذ الحبشي في تقريره منهاج المؤسسة فقال :

١ — السعي في توحيد كلمة المسلمين المنتشرين في شتى الأحزاب الاسلامية وتسوية كل خلاف نشأ بينهم .

٢ — عدم الخوض في المسائل الفقهية المختلفة بين المذاهب الاسلامية .

٣ — إيجاد جبهة إسلامية في أندونيسيا مكونة من الأحزاب الاسلامية على اختلاف مناهجها السياسية ، وفي هـذه نؤمل أن يسعدنا الحظ لدعوة قادة الفكر الاسلامي المنتشرين في جميع الأقطار الاسلامية لعقد مؤتمر تحضره الأحزاب الاسلامية .

٤ — حد الغزو الثقافي الصليبي والاشتراكي .

وبعد أن أطيح بسوكارنو تنفس الاسلاميون الصعـــداء وصار بامكانهم التحرك والتفاعل والتوحد وقد لاحت بالأفق تباشير ذلك .

* * *

وبعـــد . .

فان هذا العرض السريع وهذه الصفحات المعدودات لا يفيان بالجهـــد الكريم الذي بذله ويبذله الدعـــاة الى الله في كل مكان من أرجاء وطننا الاسلامي الكبير إزاء الهجوم الصاعق الماكر .

---

* كان المبشرون تدعمهم سفارة أمريكا وأوروبا، قد نشطوا نشاطاً كبيراً خلال عهدسوكارنو الاسود راجع ص ١٠٩ من هذا الكتاب وكذلك الشيوعيون .

ان خط المجابهة خط صعب المراس والقياد والثابتون على الثغور المنافحون عن هذا الدين الخالد لا يلتفتون الى السهام السامة التي يرمون بها عن كل قوس بل إنهم ليمضون في طريق الجهاد والكفاح مدركين تبعات العمـــل وثقل المسؤولية ومخاطر الصراع بين الجاهلية والاسلام .

ومما لا ريب فيه ان أن ثبات المجاهين على طول خط المجابهة أول علائم النصر القريب . . ولا يوجد ثبات دون إيمان ولا إيمان دون استعلاء ولا استعلاء ، دون تمرد ولا تمرد دون عناد . . والعناد صفـة أصيلة من صفات المرابطين المجابهين .

والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الفصل الثامن

كيف نقيم
حكم الإسلام من جديد

انتهينا في الفصول الأولى ، من هذا القسم ، وخـــاصة في فصل النظام والحضاره الى أن الانسانية المعذبة الحائرة ستلقي رحالها ، في يوم من الأيام قريب ، على عتبة الاسلام تبغي عنده الراحة والطمأنينة والعدل والنظام .

وبالرغم من أن الاسلام العظيم قد راشقه أبناؤه ومختلف دول العالم بالسهام المسمومة القاتلة – كما رأينا في فصل الهجوم الماكر – فانه على استعداد تام لابدال السهام القاتلة بالأنوار المحيية يشعها من قرآنه المبين ليضيء بها قلوب التائهين الحيـــارى وليخرجهم من جديد من ظلمات الجاهلية الى وضاءة الاسلام .

ان الاسلام لن يحقد على الانسانية ولن ينتقم منها كما انه لن يبخل عليها، متى آبت الية ، بمعطياته الأصيلة بغية إنشاء إنسانية سعيدة ، وإذا كان هذا شأن الاسلام مع العالم بأسره ، فحري بـــه أن يكون كذلك مع أبنائه . فهؤلاء قد أخذوا على حين غرة ، وخدعوا بآلام الانسانية المعذبة وظنوها على جهل منهم آمالاً كباراً يجب أن يسعوا لمحاكاتها بكل قواهم ولو ضحوا باسلامهم العظيم .

ورأينا في الفصل السابق ، كيف أن الله سبحانه مَنَّ على المسلمين في كل بلد من جدد لهم دينهم ونهض بخط المجـاهدة على مختلف محاوره حتى غدت الحركة الاسلامية بالرغم من المحن والضربات، قوة لا يستهان بها وتياراً أصيلاً نابعاً من ضمير هذا الشرق المغلوب على أمره .

أو كما يقول برنارد لويس « وبالرغم من أن كل الحركات الاسلامية قد هزمت ، حتى الآن ، غير انها لم تقل بعد كلمتها الأخيرة » .

ان التيار الاسلامي يتحرك في كل مكان بالرغم من النكبات ، ويسعى جاهداً بالرغم من المعوقات والتحديات ، لاقامة حكم الله في أرض الله .

ان الحركات الاسلامية لم تقل بعد كلمتها كما يقول المراقبون، لكنها ستقولها في ساعة الصفر – أو بمعنى أدق – في لحظة القدر الموعودة « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » (إلا إن نصر الله قريب) .

ولا نكون غلاة في التفاؤل ان قلنـا : ان إيماننا بمستقبل هذا الدين في الشرق المسلم وفي الانسانية جمعـاء إيمان لا يرتابه شك ولا تزعزعه قوى الشر العاتية .

ان نور الاسلام سيشرق من جديد ليبدد الظلمـات فحلكة الليل البهيم سيكشفها فجر الاسلام القريب ان الليل لا يمكن أن يبقى ليلاً ، والظلام لا يمكن أن يدوم ، وان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ؟

أخي ستبيد جيوش الظلام — ويشرق في الكون فجر جديد
فاطلق لروحك أشواقهـا — تر الفجر يرمقنا من بعيـد
أخي انني ما سئمت الكفاح — ولا أنا القيت عني السلاح
وان طوقتني جيوش الظلام — فاني على ثقة بالصبـاح
أخي فامض لا تلتفت للوراء — طريقك قد خضبته الدماء
ولا تلتفت ها هنا أو هناك — ولا تتطلع لغـير السماء
فلسنا بطير مهيض الجناح — ولن نستذل ولن نستبـاح
واني لأسمع صوت الدمـاء — قوياً ينادي: الكفاح الكفاح
سأثأر لكن لرب وديـن — وامضي على سنتي في يقين
فإما الى النصر فوق الأنام — واما الى الله في الخالدين (١)

(١) من قصيدة طويلة معزوة للاستاذ سيد قطب .

وإيماننا بـ « مستقبل هذا الدين » يواجه ـ طبعاً ـ الهزء الساخر من « مثقفي الشرق المنكود» ممن ران على قلوبهم ظلام الغرب الدامس وجاهليته الرعناء بيد ان هذه السخرية القارصة لن تمنعنا من المضي قدماً في الطريق يحدونا الأمل بالنصر الأكيد القريب .

ولن تكون حالنا ـ عندما نرنو ببصرنا الى الفجر الجديد ـ بأحسن من حال رسوله ﷺ والصديق ابي بكر عندما كانا يوم الهجرة مختبئين في غار ثور وأعداؤهما على باب الغار يطاردونهما . . ومع هذا فقد نطق قلب رسول الله (لا تحزن ان الله معنا) . . وكذلك عندما طاردهما وهما في الفلاة، سراقة بن مالك، طمعاً بمائة من البعير فما ان كبت فرسه حتى وعده رسول الله ﷺ بكنوز كسرى [1] واليوم كالأمس فمهما كان الهجوم الماكر شديداً والحكام العتاة بغاة فان النصر قريب « وسيشرق في الكون فجر جديد » .

الارتفاع الى مستوى الدين والواقع :

أمر واحد يجب أن يكون في حسابنا . . ان أمامنا كفاحاً مريراً شاقاً طويلاً لاستنفاذ الفطرة من الركام ، ثم لتغليب الفطرة على هذا الركام .

كفاحاً مريراً يجب أن نستعد له استعداداً طويلاً يجب أن نستعد بأن نرتفع الى مستوى هذا الدين . . نرتفع الى مستواه في حقيقة إيماننا بالله . وفي حقيقة معرفتنا بالله فاننا لن نؤمن به حق الايمان حتى نعرفه حق المعرفة .

ونرتفع الى مستواه في عبادتنا لله . فاننا لن نعرف الله حق المعرفة إلا اذا عبدناه حق العبادة .

ونرتفع الى مستواه في وعينا بما حولنا ، ومعرفتنا لأساليب عصرنا ، ورحم الله رجلاً عرف زمانه واستقامت طريقته .

ونرتفع الى مستواه في احاطتنا بثقافة عصرنا وحضارته وممارسة هذه

(١) راجع سيرة ابن هشام .

الثقافة وهذه « الحضارة » ممارسة اختيار واختبار . . فاننا لا نملك الحكم على ما ينبغي أن نأخذ منها وما ينبغي أن ندع ، إلا اذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة ، فمن المعرفة والخبرة نستمد سلطان الاختيار .

ونرتفع الى مستواه في ادراكنا لطبيعة الحياة البشرية وحاجاتها الحقيقية المتجددة . فنرفض ما نرفض من هذه الحضارة ، ونستبقي ما نستبقي عن خبرة بالحياة ذاتها تعادل خبرتنا بهذه الحضارة كذلك .

« وهذا كفاح مرير . . وكفاح طويل . . ولكنه كفاح بصير و كفاح أصيل » [1] .

× × ×

من أجل هذا . .

من أجل انبثاق الفجر من قلب الظلام الحالك ، ومن أجل استئناف الحياة الاسلامية قامت نظريات مختلفة ، ووجدت « أشكال » و « أساليب » عديدة ، إلا أنها مع اختلافها وتعددها تخدم غاية واحدة مشتركة : الاسلام.

ونحن هنا ، في هذا الفصل ، سنستعرض ان شاء الله ، أكثر هذه الطرق في إقامة الحكم الإسلامي .

ولا بد قبل البدء في تحديد مضمون هذه النظريات من القول ان المعني هنا ، هو الحكم الاسلامي بذاته أي مضمون الدولة الاسلامية لا شكلها بمعنى اننا لا نقصد في دراسة هذه النظريات شكل الدولة : هل هي دولة تجمع كافة المسلمين في العالم في وحدة مركزية أم في اتحاد أم في جامعة ؟ وسنتحدث عن هذا ، في القسم الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله . إنما نقصد الحكم الاسلامي مجرداً من هذه الأشكال أي الحكم في أية دولة من الدول الاقليمية في الشرق المسلم . فالسؤال المطروح الذي تسود جوابه نظريات العمل المختلفة : كيف نقيم حكم الاسلام في أية دولة من الدول الحالية . . أو فى أي مكان في العالم ؟

(١) المستقبل لهذا الدين ص ١١٧ - ١١٨ للاستاذ سيد قطب .

اولا : نظرية الحاكم المسلم :

تقول هــذه النظرية اننا إذا استطعنا أن نوصل الى سدة الحكم رجالاً يؤمنون بالاسلام إيماناً عقيدياً صحيحاً على انــه نظام حياة واجب تطبيقه أمكننا أن نبني حكم الإسلام . . فعن طريق التشريع والتوجيــه الرسميين تستقيم حياة الناس ويعودون الى دينهم . . إذ ان امكانات الدولة خاصة في العصر الحديث ، امكانات هائلة وتملك هذه الأساليب في تقويم الناس ما لا تمكن أن يحققه الأفراد العاديون أو الحركات الإسلامية المنظمة .

وهذا الطريق – بنظر أصحاب هذه النظرية – أقصر الطرق وأفضلها إذ لا يمكننا أن ننتظر حتى يعتقد جميع أفراد الشعب بصلاح حكم الإسلام – كما تذهب الى ذلك النظريات الأخرى – ولا بد من أن نحمل الناس حملاً الى الإسلام . . فهؤلاء – بفطرتهم – مسلمون وليسوا بحاجة إلا الى نظام مسلم يخطط لهم سبل الحياة الإسلامية ..

ويستدل أصحاب هذه النظرية على واقعيــة نظريتهم ما حدث في الهند عندما انحرفت الدولة الإسلامية فيها وشاع الفساد بين الناس خاصة في عهد جمال الدين اكبر وكان مضطرب العقيدة فاسد التصور . ووصف الإمام أحمد السرهندي حالة المسلـمين وقتئذ فقال : « واحزناه واحسرتاه وامصيبتاه ان أتباع محمد ﷺ غرباء مهانون في بلادهم وأعداؤه مكرمون . . ان الباطل بارز منصور وان الحق مخذول مقهور . . . ولقد أتى على الإنسان والمسلمين حين من الدهر في هذه الديار – يعنى بــه عهد الملك أكبر – إذا عمل مسلم بحكم شرعي يسجن ويعاقب ويهان ويعذب ، والديانات كلهــا حرة متمتعة بكل حق . لقد شمت بالمسلمين الأعداء . وسخروا منهم وأصبحوا هدفـاً لكل تجريح وإهانة[1] .

(١) راجع تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند للأستاذ أبي الحسن الندوي ص ١٦ – ١٧ .

الامام احمد السرهندي ودولة الاسلام في الهند :

وصمم الشيخ على الإصلاح ... ووجد ان السبيل الوحيد هو التأثير على الملك والحاشية . ويموت السلطان جــلال الدين اكبر ويؤول الحكم الى ابنه جهان كير .. وينشط الشيخ في التأثير في بلاط الملك ورجال دولته وجيشه ويستثير همم رجال الدولة المسلمين ويستنهضهم لخدمة الإسلام وإقالته من عثرته فيكتب الى خانخانان – وهو قائد الجيش والركن الأعظم للدولة – « ان ميدان البطولة الإسلامية لا يزال خالياً ينتظر فارساً من فرسان الإسلام فهل تسبق الى هذه السعادة وتحرز قصب السبق وتنصر هذا الدين المظلوم وتغضب لهذا الحق المهضوم وتبلغ بجهادك الى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمــون القائمون . فحَيَّهَلا يا أهل الغيرة والفتوه ويا أهل الشهامة والمروءة » وظل الشيخ مثابراً على دعوته الى وفاته حتى تغير اتجاه الدولة وتغيرت سيرة الملك ونفسيته وأصبحت الدولة تتقدم كل يوم من حسن الى احسن فخلف جهان كير ابنه شاهجان الذي قال : « عجباً لفرعون جلس على عرش من الآبنوس فقال : أنا ربكم الأعلى ، وها أنا ذا أسجد لله شكراً وأقع له ساجداً مقراً بعبوديتي وضعفي وقدرته وكبريائه » .

الملك الصالح صاحب الفتاوى الهندية :

وخلف شاه جهان السلطان العظيم الملك الصالح أورنك زيب عالم كير وهو ممن عني أولاد المجدد (الشيخ أحمد السرهندي) بتربيته وثقافته فنشأ متعبداً متبعاً للشريعة فقيهاً في الدين غيوراً عليه حريصاً على تطبيق أحكامه واصلاح المجتمع الفاسد وتقويم الحكومة الزائفة . ويذكر المؤرخون مــن استقامة أورنك زيب على الشريعة الإسلامية ومن عبادته وصلاحه ما يدهش رجال هذا العصر فقد حفظ القرآن بعد جلوسه على العرش وجمــع أربعين حديثاً وشرحها وأمر بتدوين الفتاوى لتكون دستوراً للمملكة وألف له لجنة كبيرة من العلماء وكان يشرف على هــذه اللجنة ويطلع على عملها يومياً

ويقرأ قبل النوم كل ما كتب في هذا الموضوع وهي الفتاوى المشهورة (بالفتاوى الهندية)[1] .

وهذه التجربة قريبة العهد وقد تكللت بالنجاح إذ استقامت الدولة على الحق وباستقامتها استقام الناس ولم يكلف ذلك جهداً كبيراً ... فالتأثير إذن على الحكام وجهاز الحكم يؤدي الى تغيير كلي ويقلب الأوضاع رأساً على عقب ، وهو تغيير سابي لا يتسم بالعنف .

وسيلة اصحاب نظرية الحاكم :

ويتوسل أصحاب هذه النظرة في أيامنا الحاضرة **بالتأثير المباشر** على الرؤساء ، وخاصة على الملوك ، في الأقطار الملكية وهذا ما حاوله جمال الدين الأفغاني مع السلطان عبد الحميد بالنسبة لفكرة الجامعة الاسلامية ..

وأيضاً ينتهج أصحاب هذه النظرية **سبيل البرلمان في محاولة تغيير معالم الدولة** . فهؤلاء يؤمنون ان البرلمان — بالنسبة للدول الحالية البرلمانية — أفضل طريق . . فعن البرلمان تصدر التشريعات والقوانين وهو الذي يرسم سياسة البلاد العامة ويؤثر في مختلف أنظمة الدولة . . فاذا كان للاسلاميين ممثلون ونواب أمكنهم على الزمن ، إحداث انقلاب اسلامي صحيح فالإسلاميون سيعارضون القوانين التي تخالف الاسلام ثم يقترحون قوانين تحد من الانحراف وتقوّم الاعوجاج ثم أخيراً يقترحون قوانين اسلامية .. وهكذا يتدرّج الحكم الاسلامي في الظهور حتى يصل الى منتهاه .

وقصر هذا الطريق وحسناته دفعا كثيراً من الاسلاميين من أصحاب محور العمل الفردي أو من أصحاب العمل الحركي الى سلوكه فكان ولا يزال بعض الاسلاميين يتقربون من عظماء الدولة في محاولة لاصلاحهم وتقويمهم وهدايتهم

---

(١) المرجع السابق الصفحات ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ . ويراجع أيضاً كتاب رجال من التاريخ فصل الملك الصالح للأستاذ علي الطنطاوي ص ١٨٩ وما يليها .

الى طريق الاسلام . كما ان عديداً منهم وخاصة من الحركيين الاسلاميين قد دخلوا البرلمان في دول عديدة .

الجماعة الاسلامية في باكستان والبرلمان :

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الاسلامية في باكستان في رسالته «واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم» ص ٦١ بعد ان عرض لمنهج الاسلام قال : « اما كيف يتأتى **هذا التغيير ، فليس له من سبيل في نظام جمهوري الا السعي في الانتخابات** . وذلك أن نربي الرأي العام في البلاد ونغير مقياس الناس في انتخابهم لممثليهم ، ونصلح طريق الانتخاب ونطهرها من اللصوصية والغش والتزوير ، ثم نسلم مقاليد الحكم والسلطة الى رجال صالحين يحبون ويقدرون أن ينهضوا بنظام البلاد على أسس الاسلام الخالص ومن حسن حظنا ان قرار مبادىء الدستور قد أزاح من طريقنا جميع العقبات الدستورية التي كانت تحول الى الآن بيننا وبين اختيار هذا الطريق فبمجرد زوال هذه العقبات في سبيلنا بدأنا نشترك في معترك الانتخابات[1] .

ويمكن هنا أن نقرر — بصورة عامة وقبل انتهاء معركة الانتخابات في باكستان — ان التجربة البرلمانية للحركة الاسلامية لم تنجح نجاحاً هاماً .

---

(١) بعد الانقلاب الاخير في باكستان تحدد يوم ٥ - ١٠ - ١٩٧٠ موعداً لانتخابات عامة في باكستان لوضع دستور دائم للبلاد ، وقد خاضت الجماعة الاسلامية الانتخابات بقوة وتصدت فيها لمختلف خصومها في عملية مجابهة خطيرة وأذاعت منهاجها الانتخابي بتاريخ ١٩٦٩/١٢/٢ تضمن مقترحاتها في الاصلاحات التي تسعى لإيجادها في حقول العدالة الاقتصادية والعمال والحقل الزراعي والاصلاح الاجتماعي والتعليم والعدل والحرية والمساواة والسياسة الخارجية، وقد أعلنت الجماعة في بيانها « ان عليها تثقيف الشعب وإقناعه بالطرق العلمية ان الاسلام هو الحل الوحيد للمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تواجه باكستان ».

راجع جريدة الشهاب البيروتية ١٥ - ٣ - ١٩٧٠ . بيد انه اثناء طباعة هذا الكتاب أعلنت الحكومة الباكستانية إرجاء الانتخابات مدة شهرين تقريباً .

التجربة البرلمانية الضخمة في اندونيسيا :

ولعل أضخم تجربة اسلامية برلمانية كانت في اندونيسيا فقد استطاعت الحركة الاسلامية هناك أن تحتل عدداً كبيراً من مقاعد البرلمان والهيئة التأسيسية وقد وصل قادتها أيضاً الى منصب رئيس الوزراء والوزراء فالدكتور محمد حتا شكل الوزارة الأندونيسية وأسند مناصب هامة وزارية الى اسلاميين .. ومع هذا استطاع سوكارنو أن يغير الأوضاع مما أدى الى نشوب ثورة هناك وقد علّق الثوار شرط انهاء ثورتهم على اعادة تكليف الدكتور حتا ، ولكن .. اختار سوكارنو سبيل اللادينية[1].

مباحث فكرية وفقهية حول جواز دخول البرلمان او عدمه ؟

وقد نشأت في الدعوة الإسلامية مباحث فكرية وفقهية حول المدى الذي يجوز معه التعاون مع السلطات القائمة على غير ما أنزل الله ؟ ففريق ذهب الى إباحة دخول البرلمان وقبول المناصب الوزارية . وفريق ثان أصر على رفض المناصب الوزارية على اعتبارها مشاركة في أعباء الحكم الاسلامي إلا انه قبل بفكرة دخول البرلمان .. وفريق ثالث حظّر البرلمان والوزارة حتى تستقيم الدولة على حكم الله ..

ولا ريب ان نهج البرلمان — والوزارة أيضاً — يستلزم الاهتمام بأمور ليست من صلب الدعوة أو من جوهر العمل الاسلامي . . مما يشل جهود البرلمانيين — والقائمين على أمر الحركة — ويحول اتجاه الدعوة الأصيل الى عمل حزبي كبقية الأحزاب والشخصيات الزعامية . ولا شك ان هذا من مساوىء العمل البرلماني ولا يخفف من مضارها إلا وجود كفايات قيادية داخلية تتولى العمل الاسلامي المباشر والتوجيه .

(١) راجع المسلمون المجلد السادس صفحة ٢٠٠ و ٩٦ وانظر خطاب محمد ناصر في الهيئة التأسيسية وقد اقتطفنا منه أجزاء في الفصل السابق ص ١٨٠ وقد أخزى الله سوكارنو مؤخراً .

وهذه المساوىء وسواها وعدم نجاح التجربة البرلمانية في الحركات الاسلامية أدى الى بروز اتجاه يقول بعدم جواز دخول البرلمان أو المشاركة في الوزارة ، فكلاهما يدعمان الحكم الجاهلي القائم بما يفرض هذا الوجود البرلماني أو الوزاري من مساومات واعتبارات أخرى .. أو انهما يلحقان الضرر بالفكرة الاسلامية عندما يطبقون — وهذا في أحسن الظروف — حكماً اسلامياً على شعب لم يستقم بعد على مفاهيم الاسلام ..

ويضيف هؤلاء في تدعيم وجهة نظرهم الى ان الرسول عليه الصلاة والسلام رفض تسلم الملك عندما عرض عليه المشركون علماً بأنه ربما قيل : (ان محمداً ﷺ كان خليقاً بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ، وبعد ان يولوه فيهم القيادة والسيادة ، وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقيه أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعث بها ، في تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد ان عبدهم لسلطانه البشري .

« ولكن الله — سبحانه — وهو العلي الحكيم لم يوجه رسوله ﷺ هذا التوجيه انما وجهه الى أن يصدع بلا إله إلا الله وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء »[1] .

والحقيقة ان الرأي لم يستقر بعد — ومن الصعب أن يستقر — لتعقد البحث وتضارب وجهات النظر — وكلها هامة ومخلصة — خاصة بعد ان تعاظمت سلطات الدولة وكثر تدخلها في كثير من المجالات والقضايا الخاصة .. الأمر الذي يدعو الى مزيد من التفكير والتدبر ..

إذ لا يجوز للحركة أن تتخلى — عن رضى منها — عن أجهزة الحكم والتوجيه ، وعليها — في أسوأ الظروف — أن تعتبر طريق البرلمان سبيلاً للدعاية عن نفسها ، فالبرلماني يتمتع بحصانة لا يتمتع بها سواه ، كما انه

(١) انظر معالم في الطريق - سيد قطب ص ٣٠ .

بامكانه ، أن يعلن مفهوم الاسلام للقضايا في أكبر محافل المجتمع الذي يعيش فيه . . والدعوة دوماً تسعى للاعلان عـــن نفسها في أي مجال ، فكيف بأكبره ؟ هذا فضلاً عما يمكن أن تطلع عليـــه الحركة من أسرار الدولة في مختلف مؤسساتها السياسية والتشريعية والعسكرية والماليـــة ما لا يمكنها الوقوف عليه دون دخول البرلمان .

فعندي ، ان الحركة ، ولو لم تعتمد طريق البرلمـــان سبيلاً للوصول الى الحكم فان عليها ألا تنسلخ عنه ، فان اعتبرت ان الانتخابات بالرغـــم مما تفسحه من الدعاية لمنهج الاسلام في الحياة تلهيها عن طريقها الخاص بها لإقامة حكم الله ، فان سلوك طريق البرلمان ولو بأعداد قليلة جداً فيه مـــن العون للحركة على طريقها ما يكفي لتجاوز سيئاته .. علماً انه يمكن التقليل من السيئات بالتخطيط والتنظيم الحركيين .

ثانياً : نظرية التوعية والمشاريع الاسلامية :

تعتمد هذه النظرية – أساساً لهـــا – بث الوعي الإسلامي في مختلف طبقات الناس والتأكيد على فكرة الحكم الإسلامي على انه « المخلص » الوحيد مما يعانيه المسلمون من ضعف وتفرقة وضياع ..

والنظرية في سبيل اعطاء فكرة واضحة عن نجاح الحكم الإسلامي في حال قيامه تدعو الى إنشاء مؤسسات اسلامية في المجتمعات الحالية كالمعاهد العلمية والشركات التجارية ودور النشر والطباعـــة والمكاتب الهندسية والحقوقية والمستشفيات والمستوصفات الخ ..

وتذهب النظرية الى القول ان الوعي الإسلامي لدى الناس المقرون بنماذج حية من المشاريع الإسلامية كفيل بقيام حكم اسلامي سليم . فعندما يتبلور الوعي العام الإسلامي في قلوب وعقول المسلمين ، وعندما تتضخم مؤسساتنا الاسلامية وتكثر حتى تشمل مرافق كثيرة من المجتمع نكون قـــد هيأنا

المجتمع بكافة نواحيه لإقامة حكم إسلامي ، وينبثق هـــذا الحكم ، بصورة تلقائية لأنه عندئذ يكون التعبير الوحيد لرغبات الناس وأمانيهم .

اتجاهات ثلاثة في نشر الوعي :

وأصحاب هذه النظرية مختلفون ، خاصة ، فيما يتعلق بنشر الوعي الاسلامي فبينما يرى فريق ان نشر الوعي والتأكيد على شعار « الدولة والحكم الاسلامي » دون تعهد الناس أو مطالبتهم بالتزام الاسلام في حياتهم العامة والخاصة الى أبعد المستطاع يكفل لنا تحقيق الحكم المنشود في أسوأ الاحتمالات أو يحمل الناس على التزام اسلامي كامل ، نرى فريقاً آخر يؤمن بضرورة الـــتزام الناس لمبادىء الاسلام وتطبيقها انما لا يرى ما يراه الفريق الثالث وهو تنظيم نشر الوعي ضمن عمل حركي .

ولا ريب ان الرأيين الأولين أي نشر الوعي بلا التزام التطبيق أو بالتزامه بلا تنظيم غير صحيحين ان من حيث المضمون (عدم الالتزام) أو من حيث الشكل (الالتزام بلا تنظيم) . وفي الصفحات السابقة في فصل المجابهـــة تكلمنا عـــن طبيعة العمل الفردي (أي نشر الوعي بالتزام دون تنظيم) وناقشناه مما أغنى عن إعادته هنا[1] ، أما الرأي الأول (أي عدم الالتزام) فهو باطل مردود على أصحابه ..

ويتوسل أصحاب هذه النظرية خاصة فيما يتعلق بالوعي العام بالكلمة . فالكتابة والخطابة والمحاضرة والتدريس والمناقشة كلها وسائل فعالة في نشر الوعي الإسلامي. بيد انه من المحقق ان ذلك دون تنظيم لا يؤدي الغرض المقصود منه أي إقامة حكم اسلامي مهما سودت الصفحات في ذم أنظمة الحكم الأخرى وتبيان حسنات وفرضية الحكم الإسلامي .

(١) راجع فصل المجابهة ص ١٤٠ .

قيمة المؤسسات :

أما بالنسبة للمؤسسات الإسلامية فالقول فيها مختلف .. إلا انها بوجه عام ليست – بحد ذاتها – بطريق لإقامة الحكم الاسلامي . فمهما تضخمت هذه المؤسسات فلن تعدو إلا جزءاً يسيراً من مؤسسات المجتمع الجاهلي أو من مؤسسات الدولة الرسمية .

ولن تتضخم أصلا إلا إذا كان وراءها تنظيم يربط فيما بينها وينسق خطواتها ويخضعها الى مخططه في معالجة شؤون المجتمع وإقامة حكم الإسلام . فالمؤسسات الإسلامية ، إذن ، وسيلة ضمن مجموعة الوسائل التي قد يعتمدها التنظيم في سعيه لإقامة الحكم .

وفائدة هذه المؤسسات وخاصة في ميدان التعليم انها تمد التنظيم بعناصر جديده تكون قد نشأت منذ الصغر في توجيه وتربية هادفين أو بعناصر قد تأثرت بالخدمات الاجتماعية في المؤسسات الأخرى[1] .

ولكن لا بد من ملاحظة هنا وهي ان انشاء مثل هذه المؤسسات وتضحيتها يجب ألا يكون على حساب عمل الحركة الأصيل وهي الدعوة المباشرة وحمل الناس على تفهم الإسلام وإخضاعهم الى تنظيم حركي ويتوجب على خط العمل الحركي أن « يقرر » القدر الذي يراه مناسباً لتضخيم هذه المؤسسات وذلك دون المساس بفاعلية الحركة .

ثالثاً : نظرية المجتمع الاسلامي والعمل الحركي المنظم :

لعل هذه النظرية أوضح النظريات وأقربها للتصور الاسلامي عن الحكم والسياسة فهي تقول بعدم جدوى العمل الفردي وبضرورة تلاقي كافة الجهود في بوتقة التجمع الحركي . . فان يد الله مع الجماعة « وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

(١) راجع فصل الجاهلية محور التعليم والخدمات الاجتماعية ص ١٤٣ .

محاكاة تجمع الرسول في مكة :

وتحاول هذه النظرية أن تحاكي تجمع الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة[1] ومراحل انتقال هذا التجمع وأساليب العمل وطرق التكوين ووسائل الانتشار والتضخم . . حتى تكاد هذه النظرية تكون مقتبسة بكاملها عن تجربة القرآن في إقامة حكم الله في الأرض .. فأصحاب هذه النظرية يقولون : ان الخط الذي اتبعه القرآن في إقامة الدولة خط صحيح واضح وليس علينا – وقد نجحت التجربة في الماضي نجاحاً هائلاً – إلا أن نبدأ من النقطة الأولى ونسير مع تدرج هذا الخط حتى نصل الى نهايته حيث تكون الحاكمية المطلقة في الأرض لله . . ولذلك فان علينا أولاً أن نختار الأفراد أعضاء التجمع الأول الذين يكونون نواة ومحور التجمع الحركي .. ويتضخم هذا التجمع حتى نستطيع أن نحيله – في لحظة القدر الموعودة – الى تجمع اسلامي كامل أي الى مجتمع اسلامي حيث ينبثق عنه الحكم الاسلامي بصورة تلقائية [2] .

فلا بد أولاً من اصلاح الأفراد ثم اصلاح الأسر ثم اصلاح المجتمع . . ولا يمكن أن يقوم حكم الله في الأرض دون اتباع هذا الخط السوي .

وإذا حاكمنا هذا المنهج في اقامة حكم الاسلام الى ما قررناه (في مفهوم الدولة) و(النظام والحضارة) لوجدنا استقامة هذا الخط في محاولتنا الجديدة لإقامة الحكم الاسلامي . . فقد قررنا هناك ان الحكم الاسلامي الذي هو « عطاء الله » لا يظهر في دولة إلا بعد أن يوجد التجمع الذي يعطي الله العقد والعهد . . أي ان استقامة التجمع على نهج الله وأمره دليل أكيد على اقتراب الوصول الى عطاء الله في الأرض . .

(١) راجع فصل (كيف أقام الاسلام دولته) من هذا الكتاب .

(٢) راجع فصل (مفهوم الدولة) من هذا الكتاب .

الطليعة المؤمنة المنظمة :

وعلى نحو ما رأينا في التجربة الأولى في اقامة حكم الاسلام . . من ان لأعضاء التجمع الحركي أثراً كبيراً في المجتمع الجاهلي وفي اقامة المجتمع الاسلامي مع ان مجتمع يثرب لم يكن كله مجتمعاً اسلامياً أي كانت هناك عناصر أخرى غريبة عن التجمع الاسلامي . . فان أصحاب النظرية في التجربة الجديدة يمكنهم أن يقرروا بكل حزم : اننا نريد الآن فقط طليعة مؤمنة منظمة تتقدم الصفوف ، وتضطلع بمهام القيادة وستستطيع هذه الطليعة – باذن الله – احداث الانقلاب المنشود وانشاء المجتمع الاسلامي الجديد . .

ومن هنا ، يتبين ، خلافاً للصورة المتبادرة في بعض الأذهان ، ان أصحاب هذه النظرية لا يؤقتون حكم الاسلام باسلام كافة قطاعات المجتمع الحالي اسلاماً كاملاً . . انما ينيطون ذلك بطليعة تنبثق من هذا المجتمع الجاهلي فتخلع عنها كل ارتباط وتتمثل الاسلام عقيدة وسلوكاً وتتحرك به تنظيماً وتخطيطاً . .

ان الطليعة المؤمنة هي قاعدة هذه النظرية لا المجتمع بكامله إذ من غير الطبيعي أن تتأخر الحلقة الأولى في الحكم الاسلامي الى الزمن الذي يرجع فيه جميع المسلمين الى عقيدة الاسلام ومنهاجه . . لكن لنا أن نقول ان كافة حلقات الحكم الاسلامي لا تتجسد بكاملها إلا في مجتمع استقام أمره على الاسلام . .

إذن ، لا بد من طليعة – تكون قوة بذاتها – تتسلم مقاليد الحكم وتخطو خطوات أولى نحو مجتمع اسلامي كامل . . وهذا ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام فقد تسلم الحكم في يثرب وأقر له الجميع بما فيهم اليهود ، بالسيادة والحاكمية[1] فاستطاع أن يقود يثرب أولاً والعرب ثانياً الى مجتمع اسلامي كريم .

(١) راجع كيف أقام الاسلام دولته .

ان جميع الحركات الاسلامية في العالم اليوم ، تلتقي ، على هذه النظرية . . أو بمعنى أدق ، ان أصحاب هذه النظرية هم الحركات الاسلامية . . . فهم يعملون في تكتيل القوى وتنظيم الجهود ويحاولون ايجاد الطليعة التي يمكنها تسلم الحكم وخطو الخطوات الأولى الحاسمة .

حركة الاخوان المسلمون والجماعة الاسلامية تعبير عن مضمون النظرية :

ولعل حركة الأخوان المسلمين في العالم العربي والجماعة الاسلامية في باكستان أوضح هذه الحركات في التعبير عن مضمون النظرية . . فقد أعلن الأخوان المسلمون[1] انهم يريدون : ١) الرجل المسلم في تفكيره وعقيدته وفي خلقه وعاطفته وفي عمله وتصرفه فهذا هو تكويننا الفردي . ٢) ونريد بعد ذلك البيت المسلم في تفكيره وعقيدته وفي خلقه وعاطفته وفي عمله وتصرفه ونحن لهذا نعني بالمرأة عنايتنا بالرجل ونعني بالطفولة عنايتنا بالشباب وهذا هو تكويننا الأسري . ٣) ونريد بعد ذلك الشعب المسلم في ذلك كله ، أيضاً نحن لهذا نعمل على أن تصل دعوتنا الى كل بيت وان يسمع صوتنا في كل مكان وان تنتشر فكرتنا وتتغلغل في القرى والنجوع والمدن والمراكز والحواجز والأمصار لا نألوا في ذلك جهداً ولا نترك وسيلة . ٤) ونريد بعد ذلك « الحكومة المسلمة » التي تقود هذا الشعب الى المسجد وتحمل به الناس على هدى الاسلام من بعد كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر من قبل .

ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الاسلام ولا يستمد منه ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ولا بهذه الأشكال التقليدية التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الاسلام على الحكم بها والعمل عليها وسنعمل على احياء نظام الحكم الاسلامي بكل مظاهره وتكوين الحكومة الاسلامية على أساس هذا النظام .

(١) أنظر دروس في دعوة الأخوان المسلمين ص ٢٠٦ .

مراحل العمل الاسلامي في دعوة الاخوان :

ويؤمن الأخوان المسلمون – شأن بقية الحركات الاسلامية – بالتدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات .. فلذلك فهم يعتقدون كما أعلن الإمام الشهيد حسن البنا[1] ان كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث :

« مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وايصالها الى الجماهير من طبقات الشعب » .

« ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين » .

« ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والانتاج ، وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث جنباً الى جنب نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعاً فالداعي يدعو وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك . ولكن لا شك في ان الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية وكثرة الأنصار ومتانة التكوين » .

الغاية والوسيلة :

ويكتب حسن البنا عن غاية الأخوان المسلمين ووسيلتهم فيقول[2] :
« ان غاية الأخوان تنحصر في تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الاسلام الصحيح* يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الاسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها* .. وان وسيلتهم في ذلك تنحصر في تغيير العرف العام وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم حتى يكونوا قدوة لغيرهم في التمسك بها والحرص عليها والنزول على حكمها » .

(١) رسالة المؤتمر الخامس للأخوان المسلمين ، مجموعة رسائل الامام الشهيد نشر دار الاندلس بيروت ص ٢٥٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٦٨ .
* أي الطليعة المؤمنة .
* تسلم الحكم .

ويجيب حسن البنا عن سؤال[1] : « هل في منهاج الأخوان المسلمين أن يكوّنوا حكومة وان يطالبوا بالحكم وما وسيلتهم الى ذلك ؟ فيقول :
« ان الأخوان المسلمين يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم على هدي الاسلام الحنيف كما فهموه .. وهذا الاسلام الذي يؤمن به الأخوان المسلمون يجعل الحكومة ركناً من أركانه .. لذلك فان قعود المصلحين الاسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة اسلامية لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الاسلام الحنيف ، وعلى هذا فالأخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم ، فان وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء واداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج اسلامي قرآني فهم جنوده وأنصاره وأعوانه وان لم يجدوا فالحكم من منهاجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله .

وعلى هذا فالأخوان أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم ونفوس الأمة على هذا الحال ، فلا بد من فترة تنتشر فيها مبادىء الأخوان وتسود ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة .

هل القوة وسيلة للوصول الى الغاية ؟

« ويتساءل[2] كثير من الناس : هل في عزم الأخوان المسلمين أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم والوصول الى غايتهم ؟ وهل يفكر الأخوان المسلمون في اعداد ثورة عامة على النظام السياسي والاجتماعي .. »

ويجيب حسن البنا بعد ان شرح شعار القوة في الاسلام فيقول : « ولكن الأخوان المسلمين أعمق فكراً وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر فلا يغوصوا الى أعماقها ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها فهم يعلمون ان أول درجة من درجات القوة قوة العقيدة والإيمان ويلي

(١) المرجع السابق ٢٧١ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ض ٢٦٩ .

ذلك قوه الوحدة والارتباط ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح ، ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً ، وانها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان سيكون مصيرها الفناء والهلاك . هذه نظرة ونظرة أخرى هل أوصى الإسلام والقوة شعاره باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال ؟ أم حدّد لذلك حدوداً واشترط شروطاً ووجه القوة توجيهاً محدوداً ؟

ونظرة ثالثة هل تكون القوة أول علاج أم ان آخر الدواء الكي ؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف ؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون ؟

هذه نظرات يلقيها الأخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة قبل أن يقدموا عليه ، والثورة أعنف مظاهر القوة ، فنظر الأخوان اليها أدق وأعمق . . وبعد كل هذه النظرات والتقديرات أقول لهؤلاء المتسائلين ان الأخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها ، وحيث يثقون انهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء حرصاء وسينذرون أولاً وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون في كرامة وعزة ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح .

المفهوم الحركي الجديد في دعوة الاخوان :

ولم تتضح المبادىء التي حددها الإمام الشهيد إلا « بالمعالم » التى رسمها سيد قطب ، فكتابات « سيد » خاصة بعد عام ١٩٦٢ أحدثت مفهوماً حركياً واعياً عميقاً في دعوة الأخوان ، فـ « سيد » بعد ان عاش في ظلال القرآن مدة من الزمن خرج على الناس وعلى الحركة بتوضيح عميق جديد لمفاهيم الدعوة الأولى فهو يرى ان (قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي وطبيعة تكوينه العضوي ، تجعلان منه مجتمعاً فريداً لا تنطبق عليه أية من النظريات

التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي . . المجتمع الإسلامي وليد الحركة والحركة فيه مستمرة ، وهي التي تعين أقدار الأشخاص فيه وقيمهم ومن ثم تحدد وظائفهم ومراكزهم .

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي ، ومن خارج المحيط البشري .. انها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر ، تنشيء لهم تصوراً خاصاً للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات ، وتحدد لهم منهجاً للعمل يترجم هذا التصور . . الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ، ولا من مادة الكون .. انها — كما قلنا — آتية من خارج النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري . . وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه . انه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الانسان وعن محيط الكون المادي .

وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه ، ودون أن يكون من شأن يد فيه — في ابتداء الأمر — تبدأ أولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الاسلامي . ويبدأ عمل الانسان أيضاً .. انسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبي بقدر الله وحده . وحين يؤمن هذا الانسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكماً) . . ان الانسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه ، انه سينطلق بها ، هذه طبيعتها ، طبيعة الحركة الحية ، ان القوة العليا التي دفعت بها الى هذا القلب تعلم انها ستتجاوزه حتماً .. ان الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة الى هذا القلب ستمضي في طريقها قدماً . . . وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ، فان هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : أنتم الآن مجتمع ، مجتمع اسلامي مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة ، ولا تسود فيه قيمها الأساسية .. وهنا يكون المجتمع الاسلامي قد وجد (فعلاً) .

« والثلاثة يصبحون عشرة »

« والعشرة يصبحون مئة »

« والمئة يصبحون ألفاً »

« والألف يصبحون اثني عشر ألفاً »

« ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الاسلامي » .

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره ، وانفصل بقيمه واعتباراته ، وانفصل بوجوده وكينونته عن المجتمع الجاهلي — الذي أخذ منه أفراده — وتكون الحركة من نقطة الانطلاق الى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميّزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع — حسب الميزان والاعتبار الاسلامي — ويكون وزنه هذا معترفاً له به من المجتمع دون أن يزكي نفسه أو يعلن عنه ، بل أن عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الأنظار المتطلعة إليها في البيئة !.

ولكن — الحركة — التي هي طابع العقيدة الاسلامية ، وطابع هذا المجتمع الذى انبثق منها ، لا تدع أحداً يتوارى ! ان كل فرد من أفراد المجتمع لا بد أن يتحرك الحركة في عقيدته ، والحركة في دمه ، والحركة في مجتمعه وفي تكوين هذا المجتمع العضوي .. ان الجاهلية من حوله ، وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله ، والمعركة مستمرة والجهاد ماض الى يوم القيامة .

على إيقاعات الحركة ، وفي أثناء الحركة ، يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع وتتحدد وظيفته ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه .

هذه النشأة ، وهذا التكوين خاصيتان تميزان نظامه والاجراءات التنفيذية لهذا النظام أيضاً وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة ، لا تعالج

مفهومات اجتماعية أجنبية عنها ولا تدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها ولا تنفذ بإجراءات مستمدة من نظام آخر [1].

وقبل هذا التفصيل كان سيد قد كتب في عام سنة ١٩٦٢ عن (الاسلام ومشكلات الحضارة) ضمنه رأيه ، في اختصار ، عن موضوع إقامة مجتمع إسلامي بتمثيل الاسلام في كل مناحي حياته ووجوده فهو يرى[2] أن (الأمر في اختصار وإجمال) ..

توجد نقطة البدء . نقطة استقرار هذه الحقيقة في قلب .. في عدة قلوب .. في قلوب العصبة المؤمنة .. ثم تمضي القافلة في الطريق .. في الطريق الطويل .. الشائك .. الغريب اليوم على البشرية غربته يوم جاءها الهدى في أول مرة — فيما غدا بعض الاستثناءات — ثم تصل القافلة في الطريق الطويل الشائك .. كما وصلت القافلة الأولى ..

الطريق طويل لكن النتيجة مضمونة :

ويعقب سيد على هذا الطريق في إقامة المجتمع الاسلامي فيقول « لست أزعم أنها مسألة هينة. ولا أنها معركة قصيرة .. ولكنها مضمونة النتيجة.. كل شيء يؤيدها .. كل شيء حقيقي، وفطري ، في طبيعة الكون وفي طبيعة الانسان .. ويعارضها ركام كثير .. ويقف في طريقها واقع بشري ضخم ولكنه غثاء ! ضخم نعم . ولكنه غثاء » .

وسيد يرى أن الجهاد بأجمعه يجب أن ينصب في هذا المجال وفي الحركة.. وفي الإعداد .. ولذلك فهو ينصح بعدم إضاعة الجهود والأوقات في (معرفة كيف يواجه المجتمع الاسلامي « في حالة قيامه » الحياة الحاضرة) وكيف يتصرف في أوضاعها القائمة — وعلى الأخص صياغة هذا

(١) معالم في الطريق — سيد قطب ١٥٦ — ١٥٩ — الطبعة الأولى ١٩٦٤ .

(٢) المشكلات ص ١٩١ .

في قالب فقهي مقنن فهذا ما أعتقد أن كل كلام فيه – في غير الإطار العام – سابق لأوانه .. بل أشبه شيء باستنبات البذور في الهواء [١] .

وهناك سبب آخر دفع سيد الى هـذا التصور وهو أن المشكلات التي سيواجهها المجتمع الاسلامي الجديد (سينشأ بشكل خاص وبحجم خاص وفق ظروف في عالم الغيب ووفق ملابسات لا يمكن التكهن بها الآن .. [٢]

المجتمع المسلم حتمية :

ويحب سيد أن يؤكد أن إيجاد مجتمع إسلامي ليس ضرورة إسلامية فقط بل ضرورة انسانية لإنقاذ البشرية فوجود المجتمع المسلم حتمية .. حتمية بوصفه ضرورة انسانية لانقاذ الانسانية وبوصفه الترجمة العملية للمنهج الالهي الذي لا بد غالب ..

ويؤكد أيضاً على أن هذه الحتمية ليس معناها ، ان الطريق اليه نزهة مريحة ولا أنه هناك على قيد خطوات .

كلا ان حتمية الميلاد لا تغني عن آلام المخاض .

« والطريق الى المجتمع الإسلامي طويل وشاق . . ومـليء بالأشواك وأعسر ما في هذا الطريق هو أن نرتفع نحن بتصوراتنا وبأفكارنا وبأخلاقنا وبسلوكنا – ثم بواقعنا الحضاري المادي – الى مستوى الإسلام .

« ولكنه – بعد هذا كله – ضرورة إنسانية وحتمية فطرية ولا بد من ميلاد ولا بد للميلاد من مخاض ولا بد للمخاض من آلام » [٣] .

وسيد – وهو يرسم معالم الطريق التي تؤدي الى قيام مجتمع إسلامي – اقتنع بجدوى تكتيل الجهود في جميع الحركات الإسلامية لإيجاد مجتمع إسلامي

(١) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٨٤ .
(٣) المرجع السابق ص ١٨٢

– ولو كان صغيراً – في أية بقعة في العالم . . فإيجاد مثل هذا المجتمع الصغير هو الذي سيحدث الانقلاب الأكبر في الكون بأسره ، والبشرية لا تستجيب عادة لمنهج مقروء أو مسموع . . إنما تستجيب لمنهج حي متحرك مجسم، ممثل في حياة جماعة من البشر ، مترجم الى واقع تراه العين وتلمسه اليد وتلاحظ آثاره العقول » .

ولذلك فهو يرى ان ألف كتاب عن الإسلام . وألف خطبة في مسجد أو قاعة أو ميدان وألف فلم في الدعاية للاسلام ، وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر في كل مكان . كل أولئك لا يغني غناء مجتمع صغير يقوم في ركن من أركان الأرض ، يعيش بمنهج الإسلام ويعيش لمنهج الإسـلام وتتمثل فيه صورة الحياة في الإسلام [١] .

* * *

الجماعة الاسلامية في باكستان :

أما الجماعة الإسلامية في باكستان فقد كتب أميرها رسالتين « منهـاج الانقلاب الإسلامي » و « واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم » .

ووجهة النظر هذه – كما سنرى – لا تختلف من حيث الأساس مع نظرة الاخوان المسلمين .

فالأستاذ المودودي يقول بعد شرح **معنى الانقلاب** وهو العمل الذي تتكون منه « الحكومة الإسلامية » كنتيجة طبيعية [٢] . ان الذين لهم أدنى إلمام بعلوم العمران يعرفون ان الحكومة مهما كان من هيئتها لا تتكون ولا توجد بالطرق المصطنعة فليست هي ممـا تصنع في مصنع ثم تنقل منه وتثبت في

(١) المرجع السابق ١٨٠
(٢) منهاج الانقلاب الاسلامي ص ٣

موضع آخر، بل انها منشأة في الهيئة الاجتماعية والتاريخية بتفاعلها في ما بينها شعور، طبيعياً .

« لا بد من جمع أسباب تلائم طبيعة الهيئة المنشودة للحكومة وفطرتها الخاصة وانتاج طريق يوصل الى ما يقصدون . فلا جرم أن تقوم حركة توافق تلك وتلائمها في طبيعتها وأن تتهيأ السيرة الفردية والأخلاق الاجتماعية التي تقتضيها تلك الهيئة المطلوبة المنشودة . وكذلك لا بد لها من زعامة وعمل اجتماعي تستدعيها هيئة ذلك النظام الذي نحن بصدد إيجادها [1].

وبعد ان عرض الاستاذ المودودي للمفاسد وذكر أن لها أصلاً متأصلاً وان مفاسد الشعب المختلفة متساندة في ما بينها استناداً قوياً محكماً . قال تحت عنون ماذا نريد [2] فلا أرى بعد كل ذلك رجلا قد أوتي حظاً من العلم والبصيرة يمتنع عن التسليم بأن مشروعاً من مشاريع الاصلاح الجزئي لا يكاد يجدي شيئاً في هذا الشأن وقصارى ما يمكنكم بانشاء المدارس الدينية وتلقين الناس الشهادتين والصلاة ووعظهم بالإقلاع عن الفسق والعصيان ومحاربة الفرق الضالة ان تحولوا بعض الحيلولة دون مصير الدين الى الهلاك وتمسكوا بعنانه حتى ينسأ في عمره قليلا وتحظى الحياة الدينية العامة بأنفاس قليلة أخري .

« ولكن كيف يرجى من مثل هذه التدابير أن تعلو كلمة الله وتذل بأزائها كلمات الجاهلية ؟ لا بد لإزالة فساد شامل للحياة كلها من برنامج جامع يقوم بعمل الاصلاح من الجذور الى الفروع بغاية من الاتزان والتناسب فماذا ينبغي أن يكون هذا البرنامج وما هو عندنا » .

برنامج الاصلاح والانقلاب :

ثم يذكر الأستاذ المودودي أجزاء هذا البرنامج فهي [1] :

(١) المرجع السابق صفحة ٤ - ٥ - ٦
(٢) واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم صفحة ٥٠

١ - الجزء الأول : تطهير الأفكار وتمهدها بالغرس والتنمية .

٢ - الجزء الثاني : استخلاص الأفراد الصالحين وجمعهم في نظام واحد وتربيتهم .

٣ - الجزء الثالث : السعي في الاصلاح الاجتماعي وهو يشمل اصلاح كل طبقة في المجتمع حسب أحوالها وتتسع دائرته على قدر ما تتوافر وسائلنا . فنقسم أعضاءنا والعاملين من أنصارنا الى مختلف شعب العمل على حسب كفاءاتهم ومواهبهم ونوسد الى كل منهم من العمل ما يلائم فطرته .

٤ - الجزء الرابع : هو اصلاح الحكم والادارة ذلك بأنه من عقيدتنا انه لا يمكن أن ينجح تدبير من التدابير في اصلاح مفاسد الحياة الحاضرة ما دامت لا تبذل المساعي لاصلاح نظام الحكم والادارة مع المساعي الأخرى للاصلاح .

* * *

وبعد هذا الاستعراض لمختلف أساليب وأشكال العمل الإسلامي الهادف لاستئناف حياة إسلامية يتعين علينا أن نؤكد إيماننا بجدوى العمل الحركي المنظم.. ويبدو أن هذا العمل أقرب النظريات الى واقع الشرع ووقع الحياة.

فقد رأينا في الفصول السابقة كيف أقام الإسلام دولته وكيف اعتمد على طليعة تكاملت فيها الشروط والمواصفات . . وكيف جرى العقد والعهد بينها وبين الله ؟ !

الحركة اسلوب الشرع والعصر :

ونرى اليوم كيف ان أكثر الدول في العالم تقوم على أكتاف طلائع هي أحزاب وتجمعات تلك الدول . . فروح العصر ايضاً تنبع عن مصدر تجمعي لا عن أعمال فردية .

لذلك كان التجمع الحركي الإسلامي الطريق الأسلم والأوفق لإقامة حكم الإسلام .

بيد ان الحركات الإسلامية، لم توفق بعد، وحتى تاريخه، الى إقامة حكم إسلامي في أي قطر من الأقطار .

ومرد ذلك الى أسباب كثيرة وقفنا على معطياتها في فصل الهجوم الماكر، وتلمسناها من خلال فصل المجابهة .

فالغزو الفكري والاعلامي والارهاب السياسي والحزبي والتنكيل المستمر بطلائع البعث الاسلامي أسباب أصيلة في تخلف الحركة عن غايتها الأساسية. لكن ليست هذه الأسباب الوحيدة في هذا الصدد . . فهناك أسباب أخرى قد تكون ناشئة عن الأسباب الأولى . . وقد تكون نتيجة طبيعية لنوع من التفكير ؟ !

اسباب عدم نجاح الحركة باقامة حكم الاسلام :

ان الحركة الإسلامية اليوم ، وبصورة خاصة في البلاد العربية ، تعاني حالة من الضياع والتردد أمام تبدل الزمن وتغير المواقف وتعدد محاور العدو.

وهي بدل أن تعدل استراتيجيتها في العمل والمجابهة جمدت على مواقف قديمة لم تعد تتلاءم في الأيام الحاضرة ، إذ أن الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان وما يصلح للثلاثينات والأربعينات . زمن ابتداء الحركة في أكثر مناطق العالم الإسلامي، لا يصلح للستينات والسبعينات ؟ ! والواقع اليوم ، ان كثيراً من الإسلاميين . . يتخوفون من استخدام وسائل جديدة في العمل العام . . ويترددون في أخذ زمام المبادرة في القضايا العامة . . كما انهم لا يتخذون القرار المناسب في الوقت المناسب .

ان تعديل استراتيجية العمل لا يكون الا بعد إقامة تصور سليم عن المجتمع الذي نعيشه .

التصور السليم لمجتمع اليوم :

وعندي ، ان معطيات هذا التصور يجب أن تصدر عن مفهوم واضح يحدد العلاقة مع هذا المجتمع . . فالمجتمع هو مجتمع مسلم في أصله . وفي غفلة من أصحاب الحق وعبر الزمن ، كما رأينا في الفصول السابقة ، أقدم سارقو السلطات على اغتصاب السلطة فيه وبفعل هذه السلطة تمكنوا من تحريفه وتمويهه محاولة منهم لتغطية سرقتهم وطمساً لمعالم الجريمة النكراء .

بيد ان أصحاب الحق بعد أن أدركوا ان مجتمعهم قد سرق منهم يرفضون باصرار ويعملون بقوة لاسترجاع ما سلب منهم .

وهذا المفهوم يحدد ضربين من الناس في المجتمع : القمة والقاعدة . . . فأصحاب القاعدة هم أبناء هذا المجتمع وهم بغالبيتهم طيبون ضللهم الهجوم الماكر وهم بعد ذلك بيئة الحركة منها تستخلص عناصرها وفيها تنشط وتمارس وجودها . . فلا يجوز بحال معاملة هؤلاء بأسلوب الحقد والكراهية ولا يجوز اعتبارهم الا مرضى بحاجة الى عطف ومحبة والى صدق ومودة .

ان أبناء المجتمع هم ممن سرقوا منا بمعنى انهم هم المعنيون في الهجمة الماكرة . . فما يصيبهم يصيبنا وما يؤذيهم يؤذينا ولا بد لنا من الدفاع عنهم ونحن بينهم ، ثم لا بد من بناء ثقتهم بنا بكوننا دعاة انقاذ وخلاص .

ان خلاف هذا الفهم يعطل كثيراً من أحكام الإسلام التي طولب بها المؤمنون في كل زمان ومكان كالبر والصدقة والزكاة وفعل الخير والنجدة والمروءة والمودة والرحمة ؟ !

أما القمة ـ رأس الحربة ـ اللصوص الذين سلبوا حقنا وطمسوا وجودنا .

أما هؤلاء فلا بد من حربهم بلا هوادة ولا بد من فضحهم ولا يجوز التهاون معهم . .

أمـــا رأيت رسول الله ﷺ كيف لم يستنكف عن الدعـــاء على الأسياد عتبه وربيعة وأمية ثم كيف لم يتوان عن استباحة دماء آخرين [١] .

بين الانفتاح والانغلاق :

ان هذا المفهوم للمجتمع الذي نعيش فيه يحتم على الحركة الانفتاح وتركيز الخطوات ومن ثم الانقضاض على السلطة واستعادتها من مغتصبيها .

ولا يتناقض هذا المفهوم مع ما ذهب اليه سيد قطب في المعالم . فسيد يرى وجوب العزلة الشعورية لأعضاء التنظيم . . هذه العزلة التي لا غنى عنها لكل عضو من أعضاء الحركة وخاصة أولئك الذين يريدون الانقضاض على السارقين . . لكنها عزلة في المفاهيم والشعور لا في العمل والحركة .

ان العمل والحركة لا يعيشان ، الا في جو متفتح ولا يمكن تصورهما منعزلين . . ان العزلة تعدمهما من الوجود وتقضي على كل نشاط فعال .

ومن الواجب هنا التأكيد على ان العزلة بمعنى البناء النفسي والتصوري ، يجب ان ترافق الداعية في شتى مجالات التفكير والتقويم . . ترافقه وهـو طالب وترافقه وهو عامل وترافقه وهوخطيب وترافقه وهو في أعلى مناصب المجتمع الذي يعيش .

وسيد ـ رحمه الله ـ يرى كما رأينا في مستهل هذا الفصل الارتفاع الى مستوى وعي عميق بما حولنا ومعرفتنا لأساليب عصرنا . . ورحم الله رجلا عرف زمانه واستقامت طريقته . ويرى الارتفاع ايضاً الى مستوى الاحاطة

(١) ابن هشام مجلد واحد ـ دار الريحاني ص ٥٠٦

بثقافة عصرنا و « حضارته » وممارسة هذه الثقافة وهذه « الحضارة » ممارسة اختبار واختيار . . فاننا لا نملك الحكم على ما ينبغي أن نأخذ منها وما ينبغي أن ندع الا اذا سيطرنا عليها بالمعرفة والخبرة .

وهذه الرؤيا الصـادقة لسيد هي الحركة الفاعلة فلا يجوز الانعزال عن ممارسة الاختبار والاختيار ولا يجوز العمل دون معرفة عميقة بالواقع الذي نتعامل معه . . ولا يجوز اخيراً الجمود على طريقة واحدة وعدم التقويم فيها والتغيير اذ رحم الله رجلا عرف زمانه واستقامت طريقته .

بيد ان التفتح هـذا لا يعني حتماً الانغماس في كل شيء والتلهي بأمور جانبية عن جوهر العمل أو القيـام بأمور حظرها الشرع أو لا تتلائم مع روح الإسلام . . إذ أن هذا يغدو انحرافاً والتواء كما ان العزلة في العمل وكراهية التحرك بجدية ومحبة انحراف والتواء .

ان كلتا السيئتين التلهي بأمور جانبية وكراهية التحرك خطر على الحركة وعلى سيرها العام .

الخطوة الاولى في طريق الحكم الاسلامي :

لذلك كان لا بد من محاكمة هادئة لأساليب العمل الاسلامي وطرقه .

ولا بد من مراجعة ناضجة لمناهج العمل الحركي في مختلف الحركات العالمية ومقارنتها بما عند الحركات الاسلامية بعد أخذ طبيعة هذه الحركات أو البيئة التي تواجهها بعين الاعتبار .

ولا بد بالنتيجة من الاهتداء الى سياسة في العمل وطريقة في الحركة أكثر دقة وأشد عمقاً وأقرب الى تفهم الواقع مما لدى الحركات اليوم .

ان المحاكمة هـــذه تؤدي بالحركة والدعاة الى العيش في قلب العمل

وتبصرهم بحقيقة الصراع الناشب في أعماق الحياة . . وبهذا « العيش » وبهذه « البصيرة » يبقى دعاة الحكم الاسلامي سائرين على خط مستقيم .

وهذه هي الخطوة الأولى في الطريق الطويل !

الخطوة الثانية : وحدة الحركات الاسلامية

أما الخطوة الثانية فـلا بد من إيجاد ترابط بين الحركات الاسلامية في العالم . . ترابط يشير الى وحدة في الأهـداف ووحدة في السياسة الحركية ووحدة في التنظيم .

ان ترابط الحركات في حركة واحدة ضرورة اسلامية كبرى يفرضها الفهم الاسلامي ويوجبها العمل الحركي وتحتمها فوق ذلك كله ظروف المجابهة فى الشرق المسلم .

فاذا كانت غاية جميع الحركات الاسلامية فى العالم تعبيد الناس لربهم !

واذا كان العمل الاسلامى طريقاً لهـا لا مفر من سلكه للوصول الى الغاية المنشودة .

واذا كانت جميع الحركات تتمنى قيام مجتمع مسلم فى أي مكان في العالم بل ترى ضرورة قيامه وانه خير ـ في دعوة سائر المجتمعات في العالم وجذبها اليه ، من مليون موعظة ومليون كتاب ومليون خطبة وكلام .

واذا كان ذلك كله فلمَ لا تتحـد الحركات فى عمل بناء مشترك تتبادل فيه التجارب وتحشد فيه الامكانيات والطاقات ؟ ولمَ لا يكون على رأس هذا العمل قيادة واحدة تخطط بعمق وتتحرك بسرعة وتوزع التبعات والمسؤوليات فى مختلف الأقطار وتحدد المواقف وتجابه من يريد السوء بأي فرع من الفروع مجابهة واحدة ؟ !

الخطوة الثالثة : دراسة قدرات مجتمعات الشرق وتخير المجتمع الملائم :

والخطوة الثالثة في الطريق الطويل أن تحزب الحركة الاسلامية أمرها وتدرس أفضل الأمكنة لإقامة مجتمع مسلم .

ولعل أول من دعا الى أخذ المبادرة في إقامة مجتمع إسلامى ولو كان صغيراً ، سيد قطب ، وظهر ذلك باجمـال واختصار في كتابه مشكلات الحضارة الصادر سنة ١٩٦٢ .

وهذا التفكير جدير بالتأمل والتمحيص ويستدعى مزيداً من التجارب والتفاعل رغم الصعاب والمعوقات ، خاصة عندما تطرح أسئلة تتعلق بمكان هذا المجتمع وزمانه ؟

ان الرسول عليه الصلاة والسلام قد نقل في ـ اللحظة المناسبة ـ تجمعه في مكة الى تجمع يثرب وعندما التقى التجمعان وتلاحما تولد عنهما مجتمع المدينة المسلم . بيد انه هنا لا بد من تقرير حقيقة وهى ان يثرب مستقلة عن مكة بمعنى انها غير خاضعة لسلطانها ولو انهـا كانت تابعة لها لتغير الوضع ولتبدلت الظروف وبالتالي الكيفية .

ولا ريب ان ظروف مجتمعاتنا الحالية والأوضاع الاقليمية والقانونية والدولية تزيد المشكلة تعقيداً وتعسر عملية المخاض . . بيد ان هذا لا يعدم الولادة فالولادة ستتم لا محالة . . ولو تعاظمت آلام المخاض حتى تقطعت الأوصال .

ويعود السؤال يطرح نفسه من جديد : كيف ستتم الولادة وأين ومتى ؟

والحقيقة ان هذا التساؤل خطير للغاية وهو بداية جدية للخطوة الثالثة في طريق اقامة حكم الاسلام الطويل .

وطبيعى أن لا يكون الجواب عليه بالسهل اليسير فليس لدى أحد بعد ،

جواب . بيد ان هذا لا يمنعنا من تحديد بعض الخطوط ونحن نحاول رسم الطريق .

فأول الأمر لا بد من استطلاع أوضاع جميع مجتمعات الشرق المسلم والوقوف على أسسها ومتناقضاتها وعلى طاقاتها الاقتصادية ومراكزها الاستراتيجية ولا بد ايضاً من معرفة أصيلة لوعي جماهيرها واستعدادهم لأن يكونوا قاعدة أولى للطليعة الاسلامية .

وبعد ذلك لا بد من الاختيار .. فأي المجتمعات توافرت فيها المواصفات الاصيلة تغدو قاعدة للانطلاق . . ويتعين حشد الطاقات والامكانيات فيها تمهيداً لعملية الانقضاض على السلطة . . سواء كان الانقضاض بطريقة ثورة اسلامية لاهبة أم بطريق انتخابات برلمانية .

وفي كلتا الحالتين لا بد من قوة عسكرية ذاتية للحركة الاسلامية تستعملها في ساعة الصفر وفي لحظة القدر الموعودة تحمي بها انطلاقها أو تختطف بها السلطة من أيدي أولئك الذين سرقوا من الاسلاميين حقهم في الحكم والسيادة .

ان امتلاك القوة الذاتية أمر محتوم في التحرك نحو حكم اسلامي .. اذ أن قيام مثل هذا الحكم ليس بالأمر الهين أو المقبول من سارقي السلطات في الشرق المسلم أو من اعيانهم وأشياعهم وأسيادهم في العالم .

وقد يُجابَه هذا المجتمع الوليد بهجمة بربرية من قبل أعدائه .. فان لم يكن بإمكانه الذود عن نفسه طوته الأحداث وتجاوزه الزمن .

وقد لا يولد إلا في ظل ظروف دولية معقدة غاية التعقيد فقد لا يأتي المخاض إلا حين يكون العالم في غمرات أحداث ضارية .. وحينها قد يكون مدعواً لإثبات رجولته من أول يوم كما حدث للثورة البلشفية في روسيا سنة ١٩١٧ وكما حدث للمجتمع المسلم في المدينة فها هو يخوض حرباً مخيفة في بدر مع تجمع العدو ولقد كان وليداً لكن كان عليه أن يظهر بأسه وشدته منذ اللحظة الأولى وقد فعل ..

ان أحداث العالم اليوم أحداث ضخام وبإمكان الحركة الإسلامية في العالم أن تخطط للافادة منها في ولادة المجتمع المسلم المنشود .

وفضلا عن ذلك فان الانسانية التائهة – كما رأينا في فصل الحضارة والنظام – تستطلع منهج حياة جديد رشيد ينقذها من براثن الدمار والخراب والتيه والعذاب .

والمجتمع المسلم كفيل بإعطاء القدوة الصالحة لمنهج الاسلام الخالد .. فلا بد إذن من قيامه ..

وقد يقوم في باكستان والحركة الاسلامية هناك تخطط من زمن وبروية لهذا الأمر الخطير وتخوض اليوم انتخابات لوضع دستور اسلامي وقد يقوم هذا المجتمع في فلسطين فيما لو استخصلت الحركة الاسلامية الجهاد والفداء والتحرير لأن فلسطين لمن يحررها .. وقد يقوم في أقطار أخرى عربية أو آسيوية أو أفريقية ..

وقد يقوم هنا أو هناك.. فقيامه ضرورة إسلامية أو إنسانية – ودولية – لكن لن يقوم إلا اذا توافرت الشروط والمواصفات في جيل الدعوة الى الله..

فهل تحقق الحركات الاسلامية رجاء الاسلام فيها وهل يحقق الشرق المسلم رجاء العالم فيه ؟؟..

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين .

« حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً .

« قل ان أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً . . »

صدق الله العظيم

فهرست الطريق

٢٨٨